

رواية

لطفية الدليمي

سييدات زحل

طبعة
ثالثة



سيدات زُحل

را: 2009/7/2878

المؤلف: لطيفة الدليمي - العراق
ISBN 978-9957-30-101-9

الطبعة الثالثة 2015



دار فضاءات للنشر والتوزيع

عمان - شارع الملك حسين - مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6-962+)

هاتف جوال: 0777/911431

ص.ب 925846 عمان 11190 الأردن

Dar_fadaat@yahoo.com

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه
أو تخزينه ، استعادة المعلومات أو نقله بأي
شكل من الأشكال... إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف 11 نضال جمهور
تصنيف الضوئي مراجع الداخلي: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع

لطفية الدليمي

سيدات زُحل

رواية

سيرة ناس ومدينة



الفصل الأول

الأسماء

وقال لي لكل شيء شجر، وشجر الحروف الأسماء، فاذهب عن
الأسماء تذهب عن المعاني. وقال لي إذا ذهبت عن المعاني صلحت
لمعرفتي.

موقف التذكرة لعبد الجبار النفري

- أنا حياة البابلي، أم أنني أخرى؟؟ ومن تكون آسيا كنعان التي
أحمل جواز سفرها؟؟
- أنت أنت، أجل حبيبتي إنك هي، أنت حياة، ثقي بي.. أنت حياتي..

منتشية بلذة الغياب والتباس وعيي بهويتي، خرق ذهولي صوت
الرجل الذي به بحة شهوة ونبرة أب حكيم، طوق رأسي قبل أن ينفذ الي
حواسي، خفق على وجهي كجناح يمامة فأيقظني من تشوشي، تماوجت
نبرته في دمي، رعشة خفية سرت في ظهري كأن أصابعه تمسد فقراتي
واحدة واحدة وتصوغ منها قلادة الرغبات
- أنت حياة، أنت هي حياة، حياتي..

أغمضت عيني، رضخت لغواية صوت الرجل، بدأت هيأته تتشكل
وتكتمل أمامي كما يقوم النوء من البحر، استحضرت ملامحه متأنية
كأنني أرسمه على سفوح مخيلتي، كأنني أعيد تكوين قسماته فيتخذ وجهه
سيماء حارس الوعود أو سادن مقامات الأمل، نظرتة شبيهة الندى
تتقطر على قلبي، فمه يرسم إسمي نشوانا، هل هو إسمي حقا؟؟
ينهمر صوته كإيقاع المطر: أنت هي، أنت حياة، حياتي..

يعانق خفتي وأنا أعوم في دخان الجحيم، أشم من شعره الجعد
الطويل رائحة طفل رضيع ومن أصابعه عبق عاصفة وبرق، كمثّل سائرة
في نومها - وقد أفقت على صدى صوته النائي - غادرت الأريكة التي
اتخذتها سريرا وملأذا في ليل بغداد المروع، صعدت الدرجات الأربع
عشرة خارجة من السرداب بقميص نومي الخفيف، ضربني ضوء

صاعق، وسمعت تغريد طانرحزين وشهقة غامضة في الحديقة وعويلا مكتوما ودوي انفجار، بين إفاقتي القلقة وذاكرتي الملتبسة ورؤيا الرجل تذكرت أنها الحرب، تلك التي تنام على وسادتي الأخرى منذ دهر وتلتهم الرجال، ليس من أحد معي، جميعهم رحلوا إلى ما بعد الحياة أو ضاعوا في متاهة الدم أو طواهم النسيان في المهاجر، إلا هو القاصي في القارة الأخرى، ساموت وحدي، الموت أيسر ما يتاح لامرأة في بلاد الجنون..

كنت أسمع حفيف الموت حولي مع كل نفسٍ من أنفاسي، صوت الرجل يرش على جوارحي ترياق النجاة، يرقيني بتعويذات الهوى، فينسحب الموت مؤقتا من نبرة النهار وفيء النخيل، يفر من رائحة الحب التي تفوح من رعشتي، أسمعته يتقهقر مع دبابات الأمريكان وهرولة المسلحين الملتئمين في شارعنا المستباح..

ينتشلني صوت الرجل من هوة الرعب التي فغرتها الحرب بين أيامي:

-إهدأي..

قال - كل هذا إلى زوال، سنعبير الزمن معا، وأشفي ذاكرتك من هذا الموت وأضرم ناراً في كل شيء ونمضي إلينا وحدنا..

اختفى طيف الرجل، تناهى بين ظلال النخيل وشرر النيازك التي انهمرت على بغداد، حلّ الفراغ في جسدي، فراغ شاسع له مذاق اليتيم تركني بين الأحلام المتهاوية وظمأ القلب..

لنعت خوفاً وفتحت مزاليج الباب الأربعة وأقفالها الضخمة التي تليق بقلعة أو سجن، خرجت إلى الحديقة شبه عمياء لما بهر الضوء عيني، تعثرت لدى الباب بمظروف أزرق فتحتته فإذا بداخله بطاقة عليها رسم لكوكب زحل، ما يعني هذا؟؟ ولماذا زحل؟ قرأت ماكان مطبوعاً ومنسوخاً عن بريد اليكتروني:

(عزيزتي حياة،

صعقتنا عودتك المفاجئة إلى بغداد، أرجو أن يكون هذا القرار نهاية
الأمك، وأن لا يثقلك الندم، أعرفك أنت لاتقترفين ندماً قط، أهنك بميلادك
التاسع والثلاثين الذي لن أنساه، فقد كنا نهرج معا وننتظر هذا الرقم وكأنه
برزخ بين عالمين، أن نطل على الأربعين وبنا بعض رمق وكثير من
الأحلام، أعلم أن لديك أحلاما بسعة بغداد، ولولا ذلك لمحقتك الأحداث،
سأوقد شمعة لك وأضع وردة أمامي كأنها أنت وأحتفل بك هنا في عمان،
تمتعي بحلمك وحبك، أنا أكيدة من قدرتك على عبور البرزخ، لك العمر
المديد، هذه الرسالة ستطبعها صديقتي مها عبر إيميلها وتوصلها لك،
إيميلك يعيد الرسائل، هل غيرت بريدك؟؟

سلاما حياة، والدتي تيلغك تحياتها وكذا البنات..

راوية التي تحب جنونك وجنونها..

من تكون راوية؟؟ إسمها يراوغ ذاكرتي، يلتمع ثم يتلاشى فلا أتوصل
لشيء، قلت سأعرفها عندما أتأكد أولا من أكون سأتذكرها حالما افتح
كراسات الحكايا وأجد أطيافهم تحوم فيها

عمرتني زهور البرتقال بعبير مغو، سرى في دمي نسغ الربيع الحار
وهاجت أشواق مبهمة في جسدي الذي قام من سبات، شيء يشبه خدر
الحب تمدد في أطرافي وغصصت برحيق حلو فاضطربت روعي وتناثرت
في الهواء، صرت هواء في الهواء، رقصت ودرت حول نفسي حتى
اتبهت أنفاسي، ارتبكت كما لو أنني في نشوة مابعد الحب، فتحت عيني
ببطء، الأجفان ثقيلة والدوار يطوق رأسي، كأتني بعثت من موت مديد، نيرة
الرجل عادت تلفني كدوامات الريح، في نشوتي تحت حنو صوته وشذا
البرتقال دخت وترنحت ثم سقطت فوق المرج وقمت أضحك من جدل،
وتناهي إلي صوت صاعد من الأعماق:

- إنك هي، أنت.. أنت حياة البابلي..

تتكرر الاحداث أو تستعد بطريقة أو بأخرى، يخيل إلي أن شينا كهذا مر بي، واحدة من البنات، كتبت لي رسالة بعد أسبوعين من سقوط بغداد وقصف المدن، نعم، أرى ذلك الآن، كانت ورقة وردية، كنت حسب ظني في الرابعة والثلاثين، نعم، حدث هذا قبل خمس من السنوات، وأن تفتحت أزهار البرتقال في حدائق حي(الداوودي)، في ذلك الصباح أفتنا على أصوات انفجارات مروعة، وبعدها ضجت سيارات الإطفاء والإسعاف ثم همد كل شيء ولم أعد أسمع سوى نههة بكائي وعويل الآخرين وكان يوم ميلادي الذي لم أعد أحتفل به..

بعد الانفجارات أشرقت الشمس الجديدة فوق البلاد المحروقة النازفة، الشمس الساخنة الحلوة، بدت كرخيف ذهبي أنضجته السماء، في أهوال المخاوف عافت نفسي كل طعام، منذ متى لم أنق خبزا ساخنا؟؟ ياإلهي، كأنها الف ليلة ويوم من الجوع والظما، لم يخبز أحد في تلك الأيام، عشنا على خبز الرقاق المجفف الذي نرطبه بالماء ونسخنه على فرن الغاز ومع الخبز قد نجد حبات تمر أوزيتون أو بعض دبس التمر وفصوص لبن مجفف، بحثت في البيت عما يؤكل لم أجد إلا كسرات خبز متعفنة تجمع فوقها النمل، بحثت ثانية في خزانات المطبخ فعثرت على حبات تمر وقليل من لب الجوز فجعلت التمر سندويشا خشوته بقطع الجوز ومنحتني حلاوة التمر ودسامة الجوز إحساساً بالشبع، جمعت من الحديقة بعض البصل الأخضر والبقدونس وأوراق الخبز واعترمت أن أعد منها طبقاً للعشاء لو حصلت على بعض الخبز ستكون وليمة طيبة..

لا كهرباء في المدينة، بدأنا نعتمد على مولدات الكهرباء، وللسبب ذاته انقطع الماء أيضاً، أخذنا نجتمع قطرات ماء من حنفيات الحديقة التي تقطر ماء شحيحا يعيننا على البقاء لأجل يسير، لم أعرف الوقت، الشمس في

السمت، وإذن هي الظهيرة وإذن هو نهار القتل والموتى ورعب
المداهمات..

تتهدت الأرض كشجرة سدر حزينة، سمعتها تنشج وتهتز تحت قدمي،
أشجار السدر تنتهد في حدائقنا وتنوح كعادتها في الليل، السدر شريكنا في
الحزن والشجن، كان أهلنا يحرمون علينا قطع شجرة سدر مخافة أن يحل
شومها علينا فيموت أب أو ولد في مصيبة مفاجئة لم يتحسب لها أحد،
لكنهم ماتوا جميعا دون أن نقطع أشجار السدر، مات شقيقاي وأبي وأمي
وابن خالتي وشقيق حامد أبو الطيور وماتت زينة وانتحرت لمي، مات
رجال ونساء كثر في حروبنا المجنونة وبقيت أشجار السدر ترسل أنينها في
حدائقنا الحزينة..

أصابني نوع من الخرس، هل مر يوم؟ يومان أم ثلاثة وأنا عاجزة عن
الكلام؟؟ إستغرقتني السكوت، تخيلتني فقدت قدرتي على النطق، لا أعلم كم
بقيت في خرسى وأنا اتنقل بين مخبأي في السرداب وغرف البيت والحديقة
وأكابد اضطراب الذاكرة وجنوح المخيلة التي تموج بأوهامها..

أحسست أن شللا ضرب لساني فالتصق باللهاة، حاولت تحريكه
فعجزت، جف ريقى وتيبس فمي، الماء، أشرب كثيراً من الماء ولا ينفع.
تناهت إلي رائحة شاي مطيب بالهيل وبيض مقلي وخبز ساخن من الجوار،
بقعة وقد تحركت غريزة الجوع واضطربت حواسي، استجاب الجسد لروائح
الطعام فتحلّب ريقى وتحرك اللسان وتراءت أمامي موائد ممدودة عليها
ثمار وأصناف خبز وأجبان وبيض ودوارق شاي، كان المشهد المتخيل دافيا
لينبعث ألم في معدتي ودوار في رأسي، نطقت عبارات طويلة طويلة،
عبارات ضالة بكلمات لا رابط بينها، حكايات مبتورة، مطالع أغان، أبيات
شعر وعبارات عشق، بسرعة ماكنة مجنونة بدأت أهذي عبارات ترصعها
الأسماء، عشرات الأسماء تساقطت من بين شفتي وأنا أهذي، تعرفت بينها

إسم الشيخ قيدير البابلي، قيدير.. قيدير.. قيدير، أيقظني الإسم، هل بوسع
إسم واحد أن يجلو الذاكرة ويحييها؟؟
قيدير البابلي: أضاء الإسم رأسي، تيقنت إلى حد ما من كوني حياة
البابلي بعد تأكيدات صوت الرجل، فقيدير عمي ومن إسمه انكشف عالم
شاسع كان محجوبا عني وأنا في وحدتي بين عتَمات السرداب وكوابيس
رعبي..

سمعت صوت رجل، كأنه أبي، كأنه يوصيني:

لاتيأسي إبحثي عن عمك الشيخ قيدير، إبحثي عنه في الجهات
والكتب والأسماء والروى، قولي له رحل عدنان في غصة فقدكم جميعا..
انهمرت العبارات من صوتي أسرع من ذي قبل ولم أستطع التوقف عن
الهنيان، أهي مادة حكاياتي تتدفق من رأسي؟؟
سمعت صوتي وأنا في دوامة من الزمن السائل والتولُّه الجارف للرجل
البعيد وقد غطتني الكلمات كعباءة من نور، شفاً الجسد في بهجته
وانتفضت الروح في يقظتها، لعنني غفوت بعدها في خدر يسير ثم أفقت من
"يه المتع وطوفان الكلام وبني من التعب مالا تصفه الكلمات..

لمن أتحدث؟ من يفك التباس حالي بحالي؟ من غير صوت الرجل يغمرني
بعسل الكلمات وينقض كيمياء الموت؟؟

الملح و العسل كانا يمطران على صباحي من نبرته، ملح البقاء وعسل
الرغبة، ضحكته النضرة تبتدو وحشة روعي، ومن دون هذا المدد كيف لي
أن أقاوم موتي وجنون البلاد؟؟

ألقيت قبضة من زهور البرتقال في دلو ماء ساخن، طفت البراعم
وتفتحت كابتسامات الثلج، خلعت قميص نومي ونثرت ضفيرتي وتعريت من
ثيابي و زمني وخشيتي، أشعلت شموعا في عتمة المساء فأضاءت زاوية

من الحمام وانعكس النور على جسمي، دعتك صدري وعنقي وجسدي كله
بالزهور الطرية حتى توهج جلدي وتيقظت الحواس، صرت شجرة يرتقال
تفوح وسط الظلّمة الخفيفة، قال لي أنه يحبني برائحة العشب والزهور
البرية، قال إنني أذكره بطوفان الأنهار وضحكات اليمام، قال لي أنت شجرة
المباهج وآية بقاني بين العالمين..

شميم زهر البرتقال أيقظ ذلك الشوق الذي يزلزل الجسد أول الربيع،
تساقطت سنواتي ورماد الحرب في الماء، ذابا معا، لبرهة بقيت بلا عمر ولا
تاريخ، جسدا خفيفا معطرا تانها ومعزولا عن الحريق.
أيسمعي الساعة والمدن غارقة في السبات؟ أتبلغه عبر آلاف الأميال
لثغة الشوق التي تتعثر على شفتي الراعشتين؟؟ أينصت لتراويل جسدي
المهجور في ليل المذابح؟؟

دارت بي دوامة من الشك بنفسي حين تلاشى وجه المحبوب وانسحب
الطيب عاندا إلى مداره في القارة الأخرى بعيدا عن ندالة الحرب وثناتة
مدينتي الغاصة بالجنث، حضوره أيقظ جانبا من ذاكرتي التي كانت تهمد
وتمحي بين آونة وأونة، ثم تومض منها شذرات ومشاهد مرتبكة مترادفة..
ذاكرتي خط دفاعي الأخير، لكنها تخذلني وتزج بي في تيه الجنون،
أتوسل إليها:

توقفي عن تعذبي، اهمني إلى الأبد ودعيني..
تتمرد ولاتأبه لضراعتي وتقوم قيامتها حين يهب صوته الليلي، تنشط
وتستحضر أحداثا وأحزانا ومباهج وكوارث مرت بي.
يهيب بي صوته البعيد:

-لا تستسلمي للموت، قاومي، لا تدعي جنونهم يفسد حلمنا..

وأنا في سرداب السراب تخادعني المرايا المعلقة على جدرانها كما

يخادعني الوعي المتداعي فأراني في سفينة تانهاة وسط غمر بلا حد،
وحدي بلا بوصلة ولا اتجاه، تلبليني تكتكة الساعات التي تملأ جدران
السرداب (هي ماتبقى من هوائية والذي الذي كان مولعا بتجميع آلات
الزمن)، عيناى بالكاد تريان الأشياء في نصف عمّة السرداب، أحاذر أن
أحدث صوتاً وأنا أسير بالخف المصنوع من قماش وجلد لنلا تهب فراشات
النور من الزوايا وتخفق على وجهي، أعد الشاي على شعلة الكحول، غبش
الفجر يشوش رؤيتي، نافذة صغيرة أعلى جدار السرداب تتيح لمن في
الحديقة وهو ينحني نصف انحناءة ويزيح أغصان اللبلاب أن يراني وأنا في
نومتي على الأريكة، أرتعش للفكرة وأتخيل القتلة يتربصون بي من وراء
الفجر وشجر اللبلاب فيستحيل جسدي غيمة هشة في الليل، كانه ليس لي..
في كل تلك الليالي والنهارات المروعة كان الشر يتنزه حولنا ويسخر
منا، يغير سحنته كل برهة، يصير صاروخاً أو رجلاً ملتحمياً أو عبوة ناسفة
أو صديقاً يخون، ما أن نحسد اقترايه ونحسب له حتى يغير سيماءه
كحرياء ويكمن لنا بهينة لا نتوقعها.

أضع قدح الشاي أمامي وأنتشق عبيره الغامض، أبعد القدح لنلا تمتزج
دموعي بالرحيق النياقوتي أرشف رشفات متأنية وأطيل متعة تذوقي له وأنا
سغمضة العينين، اللذة أجمل في رحاب التخيل، أتراني على صواب؟؟

أقف أمام المرايا فينبني ثوبي الناعم بألوانه الوردية المتماوجة أنني
هي، هذا ثوبها، ثوب حياة البابلي، أنت هي يا امرأة، كانوا ينادونني حياة
وإنا في هذا الثوب، ينعكس لون الثوب الوردي المموج على روعي
فأشتعل، دخان الحرائق في بغداد يناقض لون الورد، أدعك ثوبي بأصابعي
فأحس دفء اللون، تعرق أصابعي ويتجدد النسيج قليلاً، أشم في أصابعي
رائحة ملح ونعناع تشترب به النسيج من زمن بعيد بعيد كالرويا، تنهمر
الرويا وتجتاحني بنفاصيلها:

كأنتي كنت في بلاد غريبة كأنتي اشتريت هذا الثوب من مدينة لها
سماء من ذهب ونحاس، هواؤها لأذع بتوابل وأملاح وزفرة سمك، كان

معروضا في دكان على البحر وراء الزجاج بلا مانيكان ترتديه، وقد انعكست عليه ألوان غسق مشتعل، بدا كقطعة جمر طالها بعض الرماد أو غشتها رغوّة البحر، أغواني بدخول المتجر وابتاعه، كان معي رجل شغف بي وشغفت به، رجل قال أنه يحبني إلى ما بعد موتنا، كان متخفياً وراء قناع، وقال إنه كان يتوقع ظهوري في حياته كنبوعة أو قدر، لم يقل لي اسمه، أم تراه همس به؟؟ أو لعله قال إسم الفتاع فسقط من ذاكرتي، كنت أقيس الثوب الذي أضفى نضارة وسحرا على ملامحي، والبائعة قالت له:

- امرأتك جميلة..اختارت ما يليق بها..

لم يقل شيئا لأنني لم أكن امرأته أو امرأة أي أحد، كنت نفسي حسب..

جاملتنني البائعة: زوجك محظوظ بك.

لم أقل شيئا، كان هو يقف في مواجهة البحر الذي اصطبغ بلون الذهب، وقال لي عندما خرجت أحمل الثوب وقد برقت عيناه بدموع كان يغالبها وهو يتمتم وينظر الي:

- لكي نحب نحتاج إلى كائن استثنائي، لكي نهنا بالحب نحتاج إلى حيوات عدة، لكي نحيا هذه الحيوانات كلها نحتاج إلى بلاد الله أجمعها، كم نحتاج لنكون معا؟؟ تعالي إلى ذلك المقهى، امنحيني متعة سماع ضحكك، نتحدث عن طفولتنا وصبانا لعلنا نتعرف سبيل غدنا، تعالي لنحلم معا بشرفة تأخذنا إلى ما لا ندرية من مفاجآت..

جلسنا أمام البحر على كراس من الخيزران المندى برطوبة الهواء، شربنا شاي نعان تطفو فيه حبات صنوبر، قال: أحب كونك امرأة حرة كالهواء..أنت غير من عرفت من النساء..

نهض وقبلني واجتاحت قلبته جوارحي فانهارت حصوني التي كنت أتمترس خلفها..

كان متاعما مع الفتاع حتى تمنيت أن لا يتخلى عنه، قلت و ماذا بهم؟

الذين أحبوني وخذلوني تبين لي أنهم بألف قناع، هذا الرجل استخدم قناعه منذ البدء ولن يطول به التخفي حتى يجهر بحقيقة ما ويشفى من متلازمة الأتقنة، ليس منطقياً أن يتخلى عن قناع ليتنكر بأخر، مهنة القناع شاقة وسريعة العطب، وقناعه موشك على التصدع، بل أنني أرى التشققات المريعة تظهر وتتقاطع على مادة القناع وأتوقع أن يتناثر كلما ابتسم أمامي..

كلانا كنا نضحك في سرنا من ذلك التخفي الطفولي الذي جعل منه الرجل مصداً دون تحفظاتي، كنا متواطئين بشأن لعبة القناع، فانا أعرف ما وراءه وهو يحدس أنني أعرف ونموت ضحكاً، يا لألعاب الحب كم تسلينا وتعيد خلفنا وتعزز جنسنا البشري كل أن..

أعاد لي الثوب تلك اللحظات وامتلاً في بمذاق حبات الصنوبر في قدح الشاي المنع وطعم الهواء المالح المتبل وعطر الرجل الخفيف..
غمرتني نظرة الرجل ورعشة يده وهو يضعها على كتفي وصدى قبيلته الرقيقة على شعري وعنقي، أمام العشق البحري بدأ العشق وسقط القناع..
أنا الآن حياة، رائحتي رائحتها، وجلدي جلدها، وصوتي؟؟ أيشبه صوتها؟؟ أصرخ: حياة.. حياة.

ولكن يا امرأة، هبي أنك صدقت كونك حياة، ألا يحتاج الأمر إلى أحد يؤكد ذلك؟؟

هل يعرف الآخرون من نكون حين نجهل ذواتنا؟؟ أيمكن أن يعرفنا الآخرون أفضل مما نعرف أنفسنا؟؟

قد يكون هذا ممكناً في الحب، أما في الحرب فنحن محض نكرات وأرقام غفل، نكرات بلا ماض ولا مستقبل، قطعان تشغل الحاضر بضاوتها ومجونها وعنفها وتتشابه في قنوطها وهي تساق للذبح، فلا تملك معنى ولا توقاً لأن تدرك من تكون..

كان إسمي حياة البابلي حين عشقتني ناجي الحجالي، وهو رجل القناع

نفسه الذي شاء أن يبهرني بالأعيب العشاق والنزق الصبياني والحديث عن الدروشة والتصوف ومحنة الجسد في العشق والموت، قال:

- أشهد أنني وجدت امرأة روائ التي انتظرتها من ألف الف حلم، أتذكر هذا وأحب تصديقه لأستند إليه فهو الحقيقة الوحيدة الجميلة في حياتي الراهنة، كل ما حولي هباء وموت، يا إلهي ساعدني، ساعدني لأقف في الحاضر، سنمت اجتراح الأحلام والغرق في التخيلات الغريبة وتشوش الذاكرة..

بدأت أرى وجهي، وأستعيد ملامح حياة وعينيها وشعرها الطويل..

أنا حياة، وهذه كراساتي التي شرعت بكتابتها منذ سنوات ودونت فيها حكاياتنا، حكاية عشقتنا الصاعق، قصص الفقد وأوجاع السجن والإختفاءات، عار الخصاص وبتر اللسان، خزي اغتصاب البنات، دونت أكثر من ثلاثين كراسة طوال كارثة الحصار وحرب الإحتلال، وكنت: كلما أنهيت واحدة منها وعدت إليها ألقاً باختفاء الأسماء، فتختلط الأحداث، تمحي أسماؤنا جميعاً وتصبح الحكايات منسوبة للجميع فأعيد تدوين الأسماء لتختفي مرات ومرات حتى ينست من محاولاتي..

أرعبتني فكرة ضياع الأسماء واختلاطها وعشت رعباً مضاعفاً عشرات المرات، فقد يكون ما حدث لهالة في سجن أبي غريب قد وقع لي وما فعله رجال القاعدة بمنار وأهلها هو ماحدث لراوية ولعل ما جرى للمي هو ذات ما حدث لهيلين، وما فعله السجانون بأمي في أول السبعينيات قد يكون حدث معي على أيديهم في التسعينيات، ومن أعدم أخي ماجد في 1991 هو نفسه الذي خطف فتنة زوجة عمي الشيخ قي دار وأخصى طريقي حازم، زلزلتني الملابس واشتباهي بما تبثه ذاكرتي وما تبقى في وعيي من جراح..

- ينبغي لي أن أعمل كالمساحرات وأتبع حدوسي لعلمي أستطيع الفصل بين الأحداث والأزمنة والحكايات رغم تعالق المصائر وتشابكها، لا بد من

طريقة لفعل شيء، لابد من وسيلة تعيني وتكافيء جهد أعوام طويلة في تدوين الحكايات وحراستها، نسيت إسمي ونفسي ومن أكون وكنت أكتب وأكتب حتى غلب التشوش على ذاكرتي ووعيي، لكنني نجحت في القبض على الكلمات وتشبثت بما دونت وماعاد اختفاء الأسماء يعنيني فالحكايات لنا جميعا ونحن نداول الأحزان والمسرات والموت بتبادل مواقعنا، الأسماء إرث نتقاسمه مع الزوال والنسيان..

كانت الحكايات تنهمر علي كطوفان أهوج بلا منطق ولا سياق وأنا أكتب وأجمع أوراقهم مع كراساتي حتى عجزت عن تنظيمها في سياق زمني، قلت:

وهل كانت أحداث حياتنا وحروبنا ومدينتنا ذات منطق وسياق؟؟ ما شأني بالنظام والإساق في عالم مضطرب لا منطق لأحداثه؟؟ ماذا أفعل بالسياقات المألوفة وبغداد تنقلب في لجج النار والدم ويصرعها الجنون؟؟
فلأسرد الحكايا وما تتضمنه كراساتنا كما تتدفق وتأتي، المهم لدي أن أدونها وأمضي ولتختلط الأسماء التي عادت تظهر في الحكايات وتحتل أماكن لست أكيدة من أنها أماكنها، فلأهمل الأسماء ولتكن الحكاية مقصدي والحوادث هدفي..

أعطتني البنات في لقائنا الأخير عند مفوضية اللاجئين في عمان ما سجلته من قصصهن في أوراق مبعثرة أضفتها إلى كراساتي، وفي لحظات النهود النادرة بين انفجار مفخخة وعبوة ناسفة وموت يتربص بي-أحاول تجميع الشظايا لأعيد تشكيل صورة مدينة محطمة وأناسها، وغالبا ما تشببك الحكايات بين يدي ويرتبك كل شيء فأدعها على ما هي عليه وأمضي قدما، و ماذا يهم؟؟ الزمن دوامات تلتف حولنا وأحداث ماضيها تستعاد بين دورات الزمن، ليس بمحض مصادفة بل بحتمية كونية لا تفسير لها، فلا تنتقل بين الأزمنة وأحوال مدينتي في عصورها وحكايات البنات وأصنع صورة من كل هذا الحطام كفسيفساء تشبهنا..

أغسل وجهي من غناء الكتابة ومراجعة الكراسات، وأراني في سحنة ذابلة، غير أنني لأستسلم، لقد كبرت عاما ونقص عمري أعواما، بعد سنة سأكون في الأربعين، وقد لا أفلح في إنجاب الطفل الذي حلم به ناجي. سأموه غضون الحزن التي خطتها الكارثة على وجهي، أرسم خطأ من الكحل حول عيني وألون شفتي وأجمع شعري الطويل في ضفيرة، أردي سروالا أسود وقميصا من القطن الهندي المجعد به وردات ملونة لها قلوب من مرايا تتعكس عليها عشرات الوجوه لمن يقف أمامي، لست وحدي من يتكرر حدوثه أو زواله..

ابتسمت لنفسي حين رأيت وجهي في مرآة بيضوية كبيرة على جدار السرداب، رأيت المرأة التي رسمتها على وجهي والأخرى التي في قلبي والثالثة التي تتبسم بين الإثنين، ابتسامتها بيضاء وغامضة، قال لي ناجي ذات عناق:

- ابتسامتك نور حياتي، هذه الإبتسامة ستغير مصيري..

كنا نتخاطر ويلبي أهدنا نداءات الآخر، نتراسل أفكارا بين القارات والأزمنة، يرسل لي رسائل ومضات، فأكون قد توصلت إلى الفكرة ذاتها، تدربت روحانا على التواصل فكأننا نحيا معا، ألغينا سطوة المسافات ووطأة الزمن، كتب لي:

- لماذا ترددت ولم تكتبي لي منذ نصف ساعة عندما ناديتك؟؟ كان

رصيد هاتفني النقال قد نفذ حين بدأت أكتب ردي على ندائه التخاطري..

حطت حمامة حزينة على طنف النافذة ونظرت إلي، عيناها حبتا عقية قرمزيان لعلها هي ذاتها حمامة ظهيرات الصيف التي يخبرني ددليلها بدرجة حرارة النهار، كأنها عرفتني، كأنها أكدت لي أنني حياة، في عينيها رأيتني كما كنت في أصياف ماضيات، عندما طارت الحمامة وفردت جناحيها اللذين من حرير رمادي، تقمصت وجه ناجي ورسمته على وجهي في المرأة حتى تداخل وجهانا وتمازجت ملامحنا فبكيت، صرت كأننا مركبا

من ذكر وأنتيات، وغرقت في موج المرأة حتى أوشكت على الاختناق،
بجهد أنتشلت نفسي من المياه وأفلتت من قاع المرأة، تعالت أصوات
انفجارات متتالية، وتصاعدت رائحة النيران من جلدي وفاحت من الستائر
و تصاعد الدخان من كل شيء، من زهور اللاتينيا البرتقالية في
الحديقة، من قدح الماء من أصابعي وشعري من الكتب ونباتات الظل وقطع
الخزف، دخان ووهج حارق ملأ المكان، سنموت أنا والبيت، سنموت قبل
أن يصل ناجي او أعثر على عمي، وسوف يجдени ناجي هيكل عظميا تعزف
عليه الريح أو رمادا منتورا فوق الممرات..

انفجاران هزا بغداد قبل برهة، عاودتني رجفة الهلع واختض جسدي
واصطكت أسناني، علام خوفك يا ابنة البابلي؟؟
الزلزلة تتفاقم، ولا بد لي أن أنهى تجميع الشظايا وأكمل اللوحة
الفسيفساء..

2

في دوار الحب وضجيج الحرب وتشوش الأشياء يتحكم بي التباس عنيد
آخر يطاردني في الصحو والمنامات:
انا حفيذة زبيدة التميمية التي حلت ذاكرتها في رأسي وفاضت إليّ، أم
تراتي أنا زبيدة ذاتها التي عشت واقعة عشقها الخاطف مع ناجي الراشدي
زمن الوالي داوود باشا؟؟ من يؤكد لي؟؟ من بوسعه تقديم البراهين؟؟ لا
أدري، حياتي تقاذفتها رياح الحب والفقد وجموح المخيلة وارتباك الذاكرة
كمثل مدينتي المهشمة، عصفت بي وبها أعاصير الحروب والطواعين منذ
ما يزيد على مائة وثمانين سنة فتبددنا بين ضجيج الخيول وهدير الدبابات
وحادثات العشق ونعيق الغربان وكيد الرجال ونحس طوابع النساء..

كنت زبيدة التميمية وكان هو ناجي ابن علي الراشدي، ترجمان جريدة (جورنال عراق) التي أسسها الوالي داوود باشا، أحمل ذاكرة المرأتين حياة وزبيدة، وبينهما تموج ذكريات نساء أخر، تسيل أحداث حياتهن مني شلال خيوط ملونة سرعان ما تتحبك كنسيج الكتان وتلفني في طواياها، قصصهن طوفان يصعب التحكم فيه، مياه تغرقنا وتحرك مصانرنا كما تشاء أسرارها، الحكايات تنبض حين تشتبك بواقعة العشق وتضيء المناطق المعتمة في رأسي (سأروي فصول العشق في كراسات تاليات..)

كنت زبيدة العاشقة المعشوقة ابنة السابعة عشرة التي أبلغته سر النساء، ذلك الذي آل إلي من إرث العرافات ناقلات الحكمة في جلجلة الأنوثة، وصنني السر نقلا عن جدة جدات أبي أمينة خان الكردية الجميلة ومن جداتي اللاحقات: صفية العربية ذات العينين الشهلأوين الشاسعتين وآيتن التركمانية وأنوش الأرمنية، قرأته في تعويذة بشكل مرآة صغيرة من الفضة وجدتها في صندوق ثياب جدتي بين عقود من الليرات الرشادية وأقراط مرصعة بالياقوت وخواتم ذات طلاس وبين عطور مسك وذرور عنبر وزبوت شذية، سر صغير وبسيط أشبه ببداهة شرب الماء أو النوم: (إن فسدت روحك صار جسدك إلى عدم وقلبك إلى ألم وعشقك إلى ندم وعقلك إلى وهم)..

أخبرته ذلك ليلة ابتدرني بإعلان الهوى على سطح بيتنا في رصافة بغداد، أراني الآن بوضوح كما رأيت الكلمات في مرآة الفضة: كنت أرندي سروالا من حرير أخضر مطرز بخيوط الذهب وفوقه صدر أبيض مرقط بنجوم فضية وتحت الصدر قميص من موسلين أخضر وعلى رأسي عصائب أطلس حريري تتدلى منها ليرات ذهبية، كان الوقت صيفا، خرج أبي صحبة (الوالي داوود باشا) يسهران مع ضيوف من سمرقند وتفليس وتطريهم في أجواء بغداد الكدرة المغنية السمرقندية فاتنة الملوك والسلاطين (أفتاب خانم) تترنح بهم الزوارق وسط دجلة في الريح مع

عزف السنطور والعود وضيوف داود باشا يدخنون الأراكيل والأفيون
الفارسي، بعضهم يحتسي القهوة الشكرلي الاستانبولية وشاي الكوجرات
الأحمر من الهند أو شاي الليمون الأسود في القمرات المصنوعة من خشب
الخور والتوت ونسيج الستائر الشيرازي، القناديل مضاءة في قمم النخل،
وبغداد مكللة بنجوم حزينة تنذر بما يلوح وراء الليل أبعد من الغد قليلا،
كنت مشفقة من فرط إحساسي بنذر المصائب التي ستضرب بغداد على عهد
داود باشا وهي تلوح لي في فورة العناق وخرير اللذة المتدفق بيني وبين
ناجي الراشدي، والوصاف يخدمنا ويقدم لنا القهوة وحلوى (الشكرلما)
و(من السما) مع مشروب الزنجبيل والنعناع..

قال لي: أجل يا زبيدة، لولا الروح لكنا الآن شبه فراشات العث، عرضة
للزوال في اللحظة القادمة..

رفت روحه حولي وفاضت من مآقيه دمعة، تتم بصوت راعش -
روحك نادتي من وراء غللاتك، فتركت الدنيا كلها وأتيت إليك أقبلي روعي
المستجيرة من الدنيا بك..

هل أنا وحدي التي تتذكر ذلك؟؟ أم يشاركني ناجي في رؤى الماضي؟؟
هل يعرف حقيقة الأحداث التي تناوبتنا بين عشق وتخل وترحال طوال مائة
وثمانين عاما؟ أم أن ذاكرتي هي التي تجوب الأمكنة وتقطف ثمار الحكايات
من شجر الزمان؟؟

أذكر أنه كان ناجي الراشدي؟ أم أن ذلك من اجتراح ذاكرتي وانحراف
الرؤى؟؟

أتراه كان رجلا آخر ذلك الذي أحبني زمن داوود باشا بالإسم ذاته؟؟
أيتشابهون جميعا في جانحة العشق؟؟ هل يحدد وجود ناجي في حياتي الآن
من أكون؟ و هل ستعيني إعادة سرد الأحداث على بلوغ معنى ما أو
تنجيني من التباس الزمن والوقائع؟؟

فلا تقبل أولا كوني حياة البابلي ولست آسيا كنعان التي حملت إسمها في

جواز سفر مزور، علي أن أنشط ذاكرة حياة وأتبع أهواءها وأستسلم لها
وليكن مايكون..
حين حسمت أمري هدأت روحي وتوصلت إلى الإمساك بطرف من
يقين.

وأنا في سرداب البيت، يختض جسدي، أعجز عن التحكم فيه، أندثر ببطانيات ومعاطف وأرتجف - أشرب شايا ومغليات أعشاب، أهيء حساء ساخنا فلا تتوقف رجفة الهلع، من كابد رعب الحروب سيدرك ما أتحدث عنه، كنت أرتجف ببطء أول الأمر ثم تصطك أسناني وترتطم ركبتي بيعضهما، وبعدها تختض كل جارحة في جسمي، أهول كل حين للتبول، كليتي تعملان بجنون، أشعر بالجفاف وأحس أن جسدي يتفتت، أعمد إلى شرب المزيد من الماء- (خزنت في السرداب مانتي قنينة مياه معدنية) في لحظات القنوط المريعة تلك تشهيت الموت، قلت أموت وينتهي عذاب توقع الموت كل أونة، وكنت أخرج من البيت، أضيع نفسي في طرقات بغداد وأسواقها المهجورة وخاناتها العباسية وجوامعها الموصدة، أهييم بين الانقراض، فلا أهتدي لشيء ولا أتعرف لغير الفناء يسري في الجدران والشجر، أتمنى أن تنهار قواي من تعب وسط المدينة المذبوحة لأتلاشى فيها وتمتزج عناصرنا ففيها بدأت حياتي وبها انتهى ..

كنت أقول لنفسي: إن كان موتي سيفضي إلى ازدهار بصيص من أمل لينهض غد جميل من دموعي وعظامي، فلأمت ألف مرة بألف وجه ومصير، لكن هراء، موتي وموت الآلاف لن يكون مجديا، الحياة هي التي تجدي ..

في بغداد ماعدنا نملك براهين لإثبات من نكون حقيقة، فالأسماء ما عادت تدل على معنى أو أحد، كل الأنساب عرضة للطعن وكل الأعراق مرصودة لمكاند أعراق وطوائف، أسماؤنا وأوراقنا ووثائقنا ومصائرنا

تشابكت وتعقدت، أحرقوا بعضها في 1991، وزوروا البعض الآخر، زودوا آخرين بأسمائنا في محنة انتحال الهويات الان، وبقينا في التباس الحال، حملنا هويات مزورة بعدد مخاوفنا لنراوغ القتل من هذا الفريق أو ذاك، ففي الأعظمية حمل ابن خالي حسن هوية باسم عمر وانتحل عباس موظف البريد إسم عثمان وفي الكرادة كانت هويات زملائنا تتخذ اتجاهات مغايرة، فصارت أسماء تتخفى وراء إسم فاطمة وعثمان ارتدى قناع عبد الحسن، وماكان ذلك ليجدي نفعاً، فكنا نقع بين أيدي فريق آخر لا يعترف بأية هوية سوى أن تكون جثة محكوما عليها بقطع الرأس وإقامة حد الشرع، فكيف سأسأل عن عمي الشيخ قيدير؟؟ سيكون قد تنكر بعشرات الأسماء منذ اختفائه في متاهة البلاد وسيتعذر على من يعرفونه تفصي آثاره، ولا أدري إن كان اسمه مثار شبهة لدى الطوائف وهو كما أخبرني أبي -إسم حفيد النبي ابراهيم من ولده اسماعيل، فهل سيلقي زحل نحسه على إسم قيدير ومصير هـ؟؟

ساعدني حامد ابو الطيور في مد سلك يوصل الكهرياء من المولدة إلى السرداب عبر النافذة الصغيرة، و عندما يشتد القتال في الليل أضع شريط موسيقى في المسجل كي اغفل برهة عن الموت، انصت للقيثارات والعود والكمانات، انصت فلا يتوقف ارتجاف جوارحي، أنام على ضجة طبول وعويل وأصحو على صوت الريح وإذان الفجر..

أخرج من خبلي إلى الشارع، تموج في الشارع رائحة الدم وعبق الرصاص، أعود وأدخل مرعوبة من كثافة الموت، أكنس أغلفة الرصاص من ممر الحديقة وأشفق من لمس الرصاص التي تضمير موتاً، أشعل بعض الحطب في موقد حجري أقمناه في إحدى زوايا الحديقة، أغلي الماء للشاي، بعد برهة انسى ما أعترزم القيام به، أظفيء النار عن ابريق الشاي، فتلفح وجهي رائحة الرماد المالحه، أشهق وأبكي..

أخرج إلى الشارع، أرى رجلا يذبح خروفا وحوله صبيان وبنات ينتظرون أن يهبهم قطعة من اللحم، عند سور مكتبة الفراهيدي كان رجل آخر يقرفص على الرصيف ويفرش أمامه مجموعة من الرشاشات والرمانات الناسفة وأمشاط الرصاص، ويمسح بمنديل وسخ مواسير الرشاشات، تغطي نفسي لرؤية الدم كأنه دمي، متاهة الدم تطوق كل شيء وتصبغ الأرض والهواء..

لا أعرف إلى أين تتجه خطاي، مدينتي استحالت متاهة حين اختفت جميع العلامات والأسماء من طرقها، اتخذت الشوارع أسماء جديدة واختلطت الجهات، أزيلت الساعات العمودية من الساحات واستبدلت صور الحاكم المهزوم بصور رجال ملتحين بعمائم ونظرات جامدة وعباءات وحلت محل شعارات الحزب الواحد عبارات دينية وطائفية تبشر وتذر وترهب، غطت جميع جدران المدينة وجسورها وأعمدها اللافتات السود والخضر فلم يجد الناس الأمكنة التي اعتادوا التوجه إليها في صباحات العمل، ريح فاتكة عصفت بالمدينة و محت كل اسم وإشارة وغيرت أشكال المباني ومواقعها فتبدد الزمن وتمائلت ألوان البيوت إلى لون الرماد وحجبت النوافذ والشرفات بتمويهات نباتية ورايات قبائل وطواطم أعراق..

قام حطابون لا مرنيون بقطع أشجار السدر والتوت والزيفون والنخل المعمر من الحدائق، ولم يتبق في المدينة غير الغبار الذي تثيره الريح الجنوبية المثقلة برطوبة الخليج وغير روائح الحرائق التي تلتهم منذ أيام وليال مبانى العاصمة و مكباتها، غدت سماء المدينة سوادا موشحا بلطخات دموية وإتخذ الدخان أشكال تهاويل ووحوش وتنانين تفتد للهب من أفواهها وبغداد تتنفس هواء مسموما والناس تشرب من ماء الجحيم وتهرس تحت العقب الساحقة لجيش الغزاة..

ارتعشت تماثيل الشعراء وتزجرت عن قواعدها الرخامية، رأيت
المتنبي بعمامته وظيفسانه يهبط من عليانه متخليا عن هالة كبريانه و
يعدو في الأزقة منشدا:

لأي صروف الدهرفيه نعاتبُ وأي رزاياه بوتر نطالبُ

أبو نؤاس كان يترنح ثملا والدموع تسح على وجنتيه الضامرتين ما
بين فندق الميريديان والشيراتون اللذين استوطنت فيهما القوات
الأمريكية ووسائل الإعلام الأجنبية، جندي من المارينز أطلق الرصاص
من مكمته نحو الشاعر المترنح، وأبو نؤاس البرونزي يمضي قدما غير
أبه بالنار، يهبط إلى شاطيء دجلة صحبة شهريار الذي قام تمثاله من
جلسته الملكية في حدائق شارع أبي نؤاس تتقدمهما شهرزاد بغلالاتها
الدخانية و خلاخيل الذهب تصلصل مع خطوتها، شفتاه مطبقتان على
أصداء الكلام، منذ أيام لزمت الصمت وتوقفت عن ترديد الحكايا حين
طغا صوت الرصاص، رأيتهم ثلاثتهم يمضون- في زورق صغير وأبو
نؤاس يحرك المجذافين ليغيبوا مع انحدار دجلة، الشاعر الرصافي كان
يسير حزينا في شارع الرشيد، شاء أولا أن يحتسي شايا في مقهى اليف
كان يرتاده لكنه وجد مكانه دكانا لبيع رمانات المتفجرات والأسلحة
الخفيفة والملابس والرتب العسكرية، فتيان واطفال يجربون الأسلحة قبل
شرائها بإطلاق الرصاص على أهداف عشوائية أمام العابرين، بحث عن
مقهى آخر فوجده مرتعا لصبيان يشمون السيكوتين ويتبادلون حبوب
الهلوسة، محبطا راح يسأل عن محطة سيارات الفلوجة حين قرر الهرب
من الجحيم و العودة إلى بيته العتيق تاركا بغداد في قبضة الرماد

تلاشت الأزقة ذات الشرفات الخشبية المتقابلة وشناشيلها المعشقة
بزجاج ملون حيث كانت تنسج حكايات الحب في ليالي الشتاء وتطل من

طاقاتها المربعة وجوه حوريات العشق بصفانرهن الطويلة ونفحات المسك تفوح من أكام ثيابهن، تصلصل أساور الذهب وأقراطهن المثقلة بالياقوت واللؤلؤ عندما يتأودن أو يتنهذن، كان عشاقهن يتربصون في عتمة الزقاق منتظرين أن تفتح الحوريات الطاقات الصغيرة في الشناشيل ويرمين منديلا أو خاتما أو خصلة شعر ملفوفة بقطعة حرير أو رسالة مرمزة تحدد مواعيد وصال في حديقة أو بستان.. ولم تعد تسمع أغنيات أو تصدح موسيقى، اختلط الليل بالنهار، والوقت رمادي لا هو في ظلمة نيل ولا سطوع ظهيرة..

ما من نبوة لم تتحقق ومامن توقعات لم تحدث وكل ما أرجأته الكوارث للمستقبل أو إدخرته الأيام لبلاد أخرى وقع هنا وانتهى الأمر، قطعت جدران الكونكريت العملاقة أوصال بغداد، صارت متاهة نضيع في جنباتها، بدأ إنهيار اللغة و تهاوت أصداء الكلام مرتطمة بالجدران حين حرم حراس الفضائل من فوق المنابر تداول الشعر والروايات والقصص ووزعوا ملايين الكراريس المجانية التي تضم الأدعية والإبتهالات وأحكام التطهر وطرق النكاح الشرعية ونكاح الصغيرات وزواج المتعة وتزامن هذا مع تفجير المكتبات وحرق مخازن الكتب..

فقد الناس اللغة اليومية التي كانوا يتحايلون بها على تأويلات حراس الحاكم وحلت لديهم كلمات غريبة يتداولونها دون أن يعوا مدلولاتها الفقهية المطلسمة، كلمات هطلت من الفضائيات التي يهيمن عليها حراس الفضائل الزانفة..

نبئت أروى انكبايات للجدران والساعات والمرايا في السرداب وأنصت إلى صدى صوتي يتكرر مثلما تتكرر الصور في المرايا المتقابلة حتى لا تضيع حكاياتنا، رغم معرفتي بأن الحكايات ما وجدت الا لتخدير الألام أو

لنفسكين الخوف لدى الناس- لابد من وجود مستمعين أو حتى مستمع واحد ليثبت لي أنني حية وأن حكايتي تبلغ مسامع الآخرين وأني سألقى الأمل في قلوب من ينصتون الي وأبدد بعض وحشتي، أطياف أهلي كانت تدور حولي في السرداب وتصغي إلي، أسمع همهمات وآهات وبعض ضحكات تدحض بعض مخاوفي.

رويت حكايات متشابهة عن بغداد وعنا، حكايات تلتف كالأفاعي، حكايات مستطيلة ممتدة بلا نهايات عن تاريخ البلاد الحزين، حكايات لولبية كالدوامات عن قصص الحب والشهوات، إستغرقت في القص وكأني أهدد خوفا حتى داهمني النوم و وجدتني بعد وقت لا أعرف مداه مستلقية على إحدى الأرائك في سرداب البيت، وتذكرت أنني طفت خلال حلمي في المدينة وأن القصف كان شديدا وأن الصواريخ دكت مبان جديدة ورأيت البلاد كمرآة مهشمة تعكس شظاياها صورا شوهاء للجميع..

أفقت من بقايا حلمي، صعدت إلى سطح البيت ولم يكن الوقت واضحا لكني أبصرت بحرائق جديدة في جهات أخرى تصاعد أعمدة دخان وألسنة لهب تتطاول حتى السحب الجافة وارتعاشات النجوم.

أجساد البشر ينقضها الرصاص والخاطفون والفتاوى، سماء بغداد تصدعها مذنبات من صواريخ وقذائف فتدوب زرقة الفجر في النار ويحترق الغسق، المباني تهافت وتحولت إلى حطام من أرقام تتداولها الأخبار وملفات الأمم، المعنى صار أحجية، أرقام موتى وأراض محروقة وركاما أسود، الجداول نضبت ثم ملأها دموعا، ظهرت أنهار دم في البراري، وبقيت المدينة المخبوءة في أحلامنا سفينة تترنح في الرمال وتفرق بين أحزاننا، كنت كلما داهمني النوم، أكتب إسمها على راحة يدي وأقبضها و أنام كي لاتضيع في أحلامي، المدينة صارت كلمة صغيرة والكلمات لا تموت كما كنت أتخيل، ظننتها تبقى مستعرة كثيران

هل اتخذت إسمها تعويذة؟؟ وإلا فما الذي أبقاني حية والقتلة يحومون حولنا؟ الجنود الشقر والسود المقنعون بنظاراتهم القاتمة وخوذهم الفولاذ وأرديتهم المزودة بوسائل الدفاع الأليكترونية، كانوا يتدفقون مع المطر والعواصف الرملية، يهطلون على بغداد من النوافذ وأنابيب مكيفات الهواء والمدخن، مبرمجين كالروبوتات، جنود مدججون بالعدم، يتبعهم أو يتقاطع معهم رجال أشباح ملثمون آتون من غياهب الشرق يقطعون رؤوس الرجال والنساء على شاشات الفضائيات، الأشباح تجسدت كلها وتمكنت من احتلال المدينة وشرعت تطارد أشباح السلطة المهزومة التي انمسخت أرقاما على ورق اللعب وعلقت أطيافها على الجدران: وفوقها كلمة wanted مخطوطة باللون الأحمر..

من بقايا ضنك الحصار حيث بعث كل ما هو ثمين من متاع، ولكي أحتال على كآبتي كنت أرتدي ثيابا قديمة وأضفي عليها لمسات وزينات: حزاما أو شالا ملونا أو بروشا من فضة أو عقدا من عقيق كي أنسى ألوانها الباهتة وطرازها البالي، أغادر حُرسي وأغني لنفسي أمام المرايا أغنية سليمة مراد:

على شواطي دجلة مرُ يا منيتي وقت الفجر

اغاني الحب مثل أفكارنا سجيئة الحنين المفرط، مثل أسماننا سجيئة انسجلات والوثائق الزانفة، كانت الأغنية تذوب على يدي كقطرات ماء عذب، وأنا أقلبها بالإيقاع الخفي وأدعكها برمل شاطيء أبي نؤاس انساخن وقشور السمك المتقافز من دجلة وسليمة مراد تبكي وتقول لي:

كوني حنوناً على الأغنيات، الأغاني روح عالمنا، مات ناظم الغزالي حبيبي عندما تمزق الليل وانتحرت الألحان وهبت الظلمات على أغنياتي وحياتي، مات ألا تعلمين؟؟ وأنا مت بعده بقليل ودفنوني بثياب الحداد، قالت: أهذه المدينة المحطمة مدينتنا؟؟ أهذه بغداد؟؟ أم أنني ضللت السبيل إليها؟؟

همست لشبح سليمة باشا: بغداد تخلت عنا بقدر ما تخلينا عنها..
ردت بصوت راعش كتنهيدة: لأننا أقدمنا على خيانتها من ألف عام..
حامد الأخرس أبو الطيور سيخفتني بطريقة غامضة في عام 2007
بعد مغادرة راوية مع رجل مجهول تزوجته بصفقة ليخرج بها إلى الأردن- دون أن تخبر أحدا منا، توليت رعاية قبائل طيوره التي ضربها اليمم كنساء بغداد بعد أن رعبت راوية وهالة ومنار وفقدتهن تباعاً، طيور الحب الصغيرة النزقة مرضت بعد اختفائه، وكلما مات أحدها انتحرت الثاني من وحشة القلب، الببغاوات قاومت لكنها لم تتقبل غياب حامد، تنفت ريشها في غضبها وحزنها حتى ظهر جلدها الممزق ومن تحته عظامها، صارت أصواتها خشنة مجروحة، عيونها الحزينة ترسل نظرات ضارعة وتبحث عن وجه حامد، كيف تقاوم الطيور الموت؟ لماذا لا تحسن الطيور سوى لغة الحب؟؟ لا أحد يعرف إن كانت الطيور تحلم وتنجيها أحلامها من الفناء، فكرت انها تحلم فقد ظهرت في أحلامي، طيور النحام الوردية والطواويس تزاول كبرياءها وتسير بخطى بطيئة ثملة وتلوذ بظلال النخل أو تحت السقائف التي أرشها بالماء في قيظ الظهيرة وتطلق صرخاتها المبحوحة، وطيور القطا والحمام المدجن تختبئ في أبراج طينية أقامها حامد في الحديقة وعلى سطح البيت وعندما غادرت بغداد أنا الأخرى عهدت بالطيور إلى هشام الذي فرط بها وباع أفضلها وترك الباقي تنفق جوعاً أو تهاجر من حديقة حامد..

حامد كتب لي ورقة كالوصية:

(ست حياة..عزيزتنا، إذا غبت أو مت تكفلي برعاية طيوري، ستحبك الطيور وبوسعك كسب ودها، انت التي غمرت الجميع بحنانك وحلقت بنا في عالم من أحلام، لو عادت راوية ذات يوم أخبريها كم أحببتها، كانت راوية مبرر بقاني حيا بعد أن قطعوا لساني، قولي لها كنت لسانه وحلمه في مدينة ذبحت أحلامنا، أعرف أنها كانت تشمنز من رجل مقطوع اللسان، كانت تتمناني على غير ما أنا عليه من عوق، أحببتها وحدها من بين كل النساء،

كنت لك تعليمات عن تغذية الطيور في دفتر تجدينه على منضدة مع دفتر مذكراتي التي قد تعيدن كتابتها وتخبري الناس بقصة حامد الأخرس أبو الطيور وقصصنا كلنا ذات يوم)

4

عندما استيقظت ذلك الصباح أفرعني صوت رجل مجروح يناديني ويولول لدى باب حديقتنا، كان عادل شقيق لمي:
- ست حياة، ست حياة، أختي لمي ماتت، انتحرت، ست حياة تعالي أرجوك..

خرجت إليه كمخبولة:

- ماذا تقول؟ لا يمكن، كيف؟ لمي لن تفعلها، مستحيل..
- فعلتها، انتحرت لمي، أضرمت النار في ثيابها وانتهى كل شيء
تركت هذه الرسالة خذي إقرأي:
تهاويت، جلست على حافة الحوض الحجري في الحديقة وقرأت:

(إلى أعزائي جميعا)

الموت الذي نختاره أهون على أرواحنا من موت يقرره لنا القتل، بغداد دخلت منطقة الغروب التي ستطول، سأمضي معها في درب الغياب، ادفنوا آلة الكمان معي أو قدموها هدية لزملائي في الفرقة السمفونية، لم أشأ أن أحرقها معي، الفن بريء من جنوننا، أخبروا شروق لو عادت - إنني غفرت لها، لقد خسرت الإثنين: هي وبغداد، فما جدوى العيش في انتظار الموت المقدر؟؟ كم علي أن أنتظر ليقرر الموت مصيري؟؟ اخترت نهايتي بنفسي، لا تحكموا علي ولا تدينوني، شروق كانت كل شيء لي، لكنها لم تكن بمستوى خيارنا نحن المرأتين اللتين تحدثنا العالم وعاشتا معا، غادرتني إلى الدائمك لتبحث عن مصير آخر غير الذي قدر لنا معا، لا تفهموا الأمر كما تصوره نظرتكم الخاطئة للبشر، أردنا ان نثبت للناس قدرة النساء على العيش دون رجال في بلاد الحروب التي تلتهم أبناءها، أردنا أن ننشئ حياة متوازنة وحنونا ومحمية بالفن، موسيقى وشراكة بلا منة ولا خذلان، ثم تبين لي أن البشر ينطوون على الصدر بلا استثناء وتتكشف حقيقتهم في لحظة جموح أو ضعف، النساء والرجال هنا يديرون ماكنة الموت، أطلبوا لي الرحمة، صليت طوال الليل من أجل الجميع، وها أنا أودعكم وأغادر جحيم بغداد كملك احترق جناحاه، أرجو أن تحتفظ حياة برسائلي فهي التي سكتب عن الأقول الكبير، أفولنا لو قدرت لها النجاة..

ملاحظة: لتأخذ حياة آلة الكمان وتعطيها لقائد الفرقة السمفونية.

وداعا - لمي)

لم أنفذ وصية لمي، شنت أن أحتفظ بالكمان مع عود عمي قيذار وكنت أتأمل الكمان الذي عزفت عليه لمي طوال سنوات، أستنطقه عما لم ينجح الفن في تغييره من عالمنا المتوحش..
أبكي ثم أغتسل وأبدد الوقت في الماء مثل سمكة مهجورة في بركة

ضحلة، أصعد إلى السطح أو أنزل إلى السرداب أو أنام تحت عصف
الانفجارات..

مرغمة أخرج إلى عملي في صباح يوم ساخن وحين أعود في الظهيرة
أجد أبواب بيتي محطمة، جارنا الأخرس حامد ابو الطيور مبتور اللسان كان
ينتظر لدى بوابة الحديقة، كتب لي ورقة:

الأمريكان ومعهم قوات عراقية داهموا بيوتنا يبحثون عن أسلحة
ومسلحين، بما أن بيتك مقفل فقد حطموا الأبواب ببنادقهم واقتحموه، بقيت
أحرس البيت حتى عودتك..

يا إلهي ما كل هذا الدمار، كل ما في البيت جرى تحطيمه، الخزانات
والأثاث والتحف، كل شيء منثور كفاجعة متكاثرة، سرقوا بعض الحلي
والنقود القليلة التي أحتفظ بها في بيتي، و ماذا يهم؟؟ فلنذهب الأشياء إلى
الجحيم، ولكن ما الذي وجدوه في بيت حياة؟؟ ما الذي يريدونه من حياة؟؟

كتب لي حامد ورقة: ساذهب وأحضر من يصلح الأبواب قبل حلول
المساء وموعد منع التجوال..

حمدت الله انني عندما كنت أخرج إلى عملي أعيد خزانة المطبخ لتخفي
باب السرداب، فلم يكتشفوا سرداب الرؤى والأحلام، لم تمس أيديهم عالم
الأعماق واكتفوا بالزائل من أشياء حياتنا..

جارنا الأخرس حامد أبو الطيور مقطوع اللسان – ربما كان الرجل
الوحيد الذي بقي في شارعنا شارع الطاووس الأزرق او كما نسميه تهكما
شارع النساء، كان حارسنا ومدبر حاجاتنا، وكان هناك جارنا المهندس هشام
الذي هُجر مع والدته من بيته إلى حي في شرق بغداد وعاد بعد عامين، لم

يكن يعياً بأحد ولا يحاول معرفة شيء عن أحوالنا بل كان يتلصص على النساء في شارع النساء..

وسط الهلاك الكبير لا شيء يبقيني حية سوى ترنحي بين الرؤى والذكريات وأحلامي، حلم لقائي المرتجى بناجي وحلم عثوري على عمي الشيخ قيدير، وفي انتظار ذلك كنت أعمل في المؤسسة الإعلامية البغضية التي لا أملك عنها بديلاً لكسب عيشي وأنشغل بتدوين أحداث حياتنا، وناجي في بلاده يعمل على كتاب (بغداد) الذي طالما حلم به إقراراً بعشقه لمدينة أحلامنا المتهاوية، سقوطها لم يبده ذلك الحلم بل جعله ممكن التحقق ودفع ناجي للتشبث به فلم يتوقف عن بحوثه حول أشهر عشاقها في عصورها المختلفة ومرات سقوطها في التاريخ، قال إنه جمع آلاف الصفحات عن أخبارها وأهوال عذباتها منذ حرب الأمين والمأمون حتى سقوطها الأخير ونجدها، وقال أنه كان ينقب عن روحها فوجدها مكنونة في قلوب العاشقين. وقال إن العشاق الذين عاشوا في عصرها الذهبي وعصرها الفضي «عصرها البرونزي والحديدي وعصر الرماد كانوا يسلمون جواهرتها من عاشق لآخر فلا يتال منها الغزاة والمحاربون والقتلة الذين ينشغلون بالتهيب وتدمير المباني والقلاع والحصون ويردمون الأنهار ويدمرون النجسور ويحرقون بساتين النخيل، ويلبث سرها محفوظاً في قلوب العشاق..

تدته أن تكون الأخبار والقصص والأساطير التي جمعها من كراسات عمي الشيخ قيدير وإخوتي وقصص البنات كتاباً هو توأم كتابه عنها، وما سأكشفه عن بغداد في كراساتنا وما تضمنته طوالنا تحت نحس زحل و أفلاك الحروب وحظوظ الغرام - سيكون خاتم ارتباطنا وسفر مصيرنا، وقد يكون الكتابان بيتنا إن استحال لقائنا على أرض الأحياء..

الفصل الثاني

بيت البابلي

الكراسة 1 بيت البابلي

كم مرة سألت أبي عدنان رشيد البابلي :

- لماذا يسموننا بيت البابلي؟؟

وكم من مرة ضحك من فضولي الأثوي وربت على كتفي وابتسم، لا أذكر كم من المرات حدث ذلك، كان يبتسم ابتسامته العنبة وينظر إلى ويصمت برهة وينتظر ردة فعلي إزاء صمته فاقترب منه بخبث البنات ودلّ المغنجات:

- أبي أريد أن أعرف.. هيا.. هيا..

أحب إيماءات أبي، وأكره تردهه في سرد الحكايا، كان يقول:

-الأحداث الغابرة ماتت فلا داعي لإيقاظها..

ألا يعلم كم أحب الحكايات؟؟

يضحك وأضحك، يسيل العرق خطا رفيعا على عنقه الممتملي، يبذل باقة قميصه الأبيض، يمد يده إلى استكان الشاي البلوري المنقوش بماء الذهب فتسيل قطرة عرق من ذقنه على جاكيت بدلته الرمادية المكوية بشبابية، نغمة العرق تتسع قليلا مثل بقعة قاتمة على النسيج، تفوح رائحة ضيئة من عرقه وجلده، رائحة صابون (روجر اند غاليه) وعطر ما بعد الحلاقة من (بيير كاردان)، كان أنيقا ومهيبا، أستاذنا جامعيا وجنتلماتنا من زمن الستينيات (شتمني زميل لي في الكلية بأنني ابنة بورجوازي-يساري من عهد ولور)

فضحكت، بورجوازي ويساري؟؟ كيف يجتمع الأمران؟؟

-أبي نحن لسنا من بابل، لسنا من مدينة الحلة أساسا، أليس كذلك؟؟

يضحك هذه المرة ضحكته المديدة ويحرك يده بإيماءة: أن تمهلي ويصمت قليلا..

- بلى يا حياة، نحن من هنا، وماذا يعنيك إن كنا من نينوى أو من بابل أو من الكوفة أو من ديالى؟ أو البصرة، ماذا يهم؟؟

رأيت برقاً في عينيه وهو يستعيد في ذاكرته تاريخ الأسرة..
نظرت إليه بنفاد صبر:
- نعم أبي، ماذا يهم؟؟

-عشنا منذ أجيال في كل جهات العراق واستقر بنا المقام في بغداد منذ خمسة أجيال، جد جدي رشيد ابن الشيخ نعمان التميمي، كان تاجر قمح وغلل، يشتري القمح الجيد المعروف بالحنطة الكردية من سهل شهرزور في أربيل ومن سهل نينوى، ويبيعه لتجار بغداد وديالى والبصرة، وصل في تجارته إلى استانبول وبلغ صيته البندقية كتاجر نسيج، يصدر الموسلين الموصلية والحريير البغدادي الذي سماه الايطاليون (البلداكو) فبلداك اسم من أسماء بغداد، كان يتاجر بعباءات فرو الخراف التي يرتديها البدو في الجزيرة، أبوه من جزيرة الموصل وأمه من مصر، كتب في مذكراته ان أباه كان مزولجا، عشق فتاة من صعيد مصر حين سافر في تجارة إلى مصر والسودان وأتى بالعروس مع أحمال من العاج والزمرد وفيروز سيناء، تزوجها وأتى بها إلى العراق وأنجبت له بكره رشيد، أخوال رشيد كانوا يزورونه بين عام وعام، يتزودون بغلل الجبل من تين مجفف وجوز وصابون زيتون ولوز وزبيب وبرغل وسماق، ويعاودون زيارته بعد عامين، واحد منهم تزوج شقيقة الجد وعمه رشيد وصحبها إلى مصر، هو تزوج امرأة كردية جميلة اسمها أمينة خان، زاره أبناء أخواله للمرة الأخيرة قبل ان يترك أربيل وتجارته ويتجه جنوبا، سمع عن وجود مقام للنبي ابراهيم الخليل

قرب برس نمرود جنوب بابل من السنور (بيترو ديلا فالي) الرحالة والمنقب الإيطالي، وأقسم أن يجعل امرأته أمينة خان الجميلة المدللة تلد بكرها لدى مقام النبي إبراهيم ليتبارك به..

لم يرق الأمر لاهلها وهم من قبيلة كردية محافظة، حاولوا ثنيه عن الرحيل، أقنعهم انه رأى حلما ظهر له فيه النبي إبراهيم وبشره بالسلام فأذعنوا للأمر..

أخذها إلى هناك مع وصيفتين مدربتين وقهرماتة أذربايجانية ومؤونة من غلال الجبل تكفيهم عاما ويرافقهم حراس جبليون أشداء مسلحون بالبنادق والخناجر، تحركوا في قافلة كبيرة نحو مدينة الحلة ومن هناك إلى موقع (برس نمرود)،

كانت جدتنا أمينة في شهر حملها الثامن، استدعى الجد قابلة أرمنية اسمها آتوش أم آرمين التي تزوجها ابن عمه أحمد جد والد أمي فيما بعد، وأقام معها في بغداد، نصب خيمة أمام المقام الذي ولد فيه النبي إبراهيم ولم يكن غير بناء متداع من حجرتين تعلوهما قبة طينية صغيرة أقامت فوقها اللقالق عشا بدا كعمامة من قش، يشرف البناء على بقايا برج (برس نمرود) الذي ضربته الصواعق السماوية فاتصهرت حجارتها وبقيت كتل من جلاميد سوداء وأجر مفخور عليه كتابات مسمارية تتدرج على جوانب البرج، تشمخ بقايا البرج العظيم وسط دائرة هائلة من أرض رميية تحيطها بساتين النخيل والفواكه ووراءها في الأفق الغربي تقع تلال إبراهيم الخليل، وندت أمينة صبيا أسماها إبراهيم، استقر أبو إبراهيم في الحلة وعمل مع الإيطالي (بيترو ديلا فالي) مكتشف آثار بابل، كان بيترو يعرف السريانية مثل اللند الذي يتقن خمس لغات العربية والكردية والتركية والسريانية والفارسية، عمل معه في أول التنقيبات فسماه معارفه البابلي أبو إبراهيم لطول ما تحدث عن بابل، وضاعت كنيته الأولى (التميمي)، لم يكن منقبا ولا عارفا بتاريخ مابين النهرين بل كان يجلب العمال والأرزاق لفريق التنقيب الإيطالي ويأخذ (بيترو) في نزهات على الخيول بين المسيب ومدينة الكفل حيث مرقد النبي

حزقيال وبين برس نمرود وفي بعض الأيام كنا يسبحان معا في الفرات ويتعرف من أحاديث بيترو على تاريخ بابل حتى صار مرجعا للباحثين، زوجة الايطالي (ماريا ديلا فالي) كما ذكر الجد في مذكراته، كانت تزور (أمينة خان) وتتعرف إلى عادات النساء العراقيات في اللباس والطعام والتزين حتى انها اقتنت ثيابا كردية مرشوشة بنقود ذهبية صغيرة وثيابا بدوية مشغولة بالتطريز وحلياً من الفضة جهزتها لها أمينة وإحدى شقيقات الجد، واكتشف (بيترو ديلا فالي) أول نموذج للكتابة المسمارية وأخذه معه إلى أوروبا، كما وجد الواحا مختومة، وأختاما بابلية، الجد الكبير كتب هذا في مذكراته بعد رحيل (بيترو)، ونكر جدنا أنه عمل مع (كارستن نيبور الرحالة الألماني في القرن الثامن عشر)، و توارث جيل آخر العمل في بابل لكن والد جدي استقر في بغداد على عهد الوالي داوود باشا وعمل في ديوان الوالي حتى وفاته، أتعلمين أن مذكرات جدنا كانت موجودة عند عمك الشيخ قيदार؟؟

- هل أستطيع الحصول عليها؟؟

- سيعود ذات يوم، أعرفه، لايمكن أن يموت بعيدا عن بغداد.. وحسب ظني أنه أعطى المذكرات لأخيك هاني، تعلمين أن هاني وحش قراءة نهم وكنا يتباريان في اقتناء الكتب النادرة وكلاهما به مس' من دروشة وشغف بالغرانب والنساء..

أذكر هذا الحديث الذي دار بيني وبين أبي سنة 1987، قبل أن يموت شقيقاي مهند وماجد ويختفي هاني في عزلته، قتل مهند في منطقة دربندي خان وأعدم ماجد قبل ليلة غزو الكويت، هرب من المعسكر مع ثمانية من رفاقه رافضين المشاركة في الغزو، وشى بهم أحد الجنود فأعدموا، لم يترك لنا ماجد أي شيء لا ورقة ولا مذكرات ولا خلفا من نسل آل البابلي غاب كما تغيب النجوم وتختفي في هالة الشمس..

اعتقلوا أبي بعد إعدام أخي ماجد، أمضى عاما ثم أفرجوا عنه حين اكتشف طبيب السجن أنه مصاب بسرطان البروستات وسيقضى عاجلا، مع أنهم لم يكونوا مبالين بحيوات البشر، حدثني في شهور انهياره الأخيرة عن بعض ما لا أعرفه عن عائلتنا، قال:

هذا السرداب القابع تحت بيتنا كان مخبأ عمك أخي الشيخ قي دار حين لاحقوه بتهم تتعلق بالجمعية السرية التي أسسها، كان سردابنا منبعاً لأحلامه وفتوحاته الروحانية، وهو عاكف على تحقيق مخطوطات تتعلق بتاريخ بغداد ليتم مشروعاً بدأه منذ سنوات في جمع أخبارها خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين ومنهما ما بترجمة عدد من الكتب عن التركية والفارسية والهندية وكلها تتعلق بعمله الكبير عن مدينته ومتصوفاً، ترافقه آلة العود في جهده المضني، يعزف عليها مقاماته وأناشيد عشقه الروحانية والدينية، تخلص عن كل شيء عندما ينس من عودة زوجته الحسنة (فتنه) التي خطفها رجال يعملون في حماية أحد المسؤولين، وتفرغ لبغداد وحدها، وعندما أحس أن اختبائه تحت الأرض بات بلا معنى خرج يجوب البلاد لعله يعثر على خبر عن فتنة أو يفوز بمعلومة عن بغداد، ستقرأين أوراقه التي وجدتها بين المخطوطات، والتراجع في السرداب..

أقفلنا السرداب بعد أن اختفى عمك قبل عودته الأخيرة واستخدمناه لحفظ الذكريات، كان النوم فيه يأخذنا إلى أحلام ورؤى، أمضى عمك مواسم صيف عديدة فيه وسجل أحلامه وكوابيسه، وتخلص من

الكوابيس بتدوينها وتمتع بأحلام مدهشة كان يرويها لنا بعد كتابتها في دفاتره، لم ندخل السرداب ولم نأبه لأمره بعد أن غادره قي دار واختفى من بغداد فقد شغلنا أمور الدنيا وتقلب الأحوال..

أخبرت ناجي بأحوالنا واختفاءات أفراد أسرنا على نحو غريب، حدثته عن سرداب الرؤى الذي سحر عمي حين التقينا في (طنجة)، حدثته عن عمي قي دار وأبي وأخوتي وطلقي حازم المخصي، كنا نقف على شاطئ البحر والليل يذوب في الماء زرقة قاتمة وقد أنهكنا التجوال في شوارع طنجة وحاناتها ومقاهيها قبل أن نعود إلى الفندق، كنا نضل الطريق كل ليلة ونواصل ضلالتنا الممتع في الأزقة، أمامنا سفن تبحر في الضباب وأطياف جبال معلقة بأطراف السماء وجسدي يستيقظ على نيرة ناجي وصوته المتماوج باللهب، يمسك يدي كمن يمسك عصفورا راعشا ويقلبها بين يديه

ثم ينثم راحتها:

- انت أيضا انبثقت من بئر الأحلام ذلك، من سرداب الرؤى البغدادية كما تسمينه، أنت حلم لم أكن لأجرو على استحضاره من بغداد أبدا، كيف التقينا؟ إني لأعجب من أقدارنا وأنا الذي انتظرتك من أول حلم لمراهقتي، أخشى أن أفيق فلا أجذك، ماذا أفعل لأستبقيك في زمني قبل أن يستدرجك سرداب أحلامكم أو تختفين كما اختفى الآخرون في سراب بغداد؟!

قال أبي:

- أخبرنا عمك بأخر رويأ له وهو يغادرنا، قال ستمطر ذات ليلة مطرا لم تعهده من قبل ويجتاح بغداد طوفان عارم، وبعدها ستضرب بغداد باللهب، وتمسي جحيما، إذا حدث ذلك بعد رحيلي، إنزلوا إلى السرداب وادتمني به ولا تسألوا عني فإن لدي ما أقوم به)

وأنا اكرر طلب أخي قيदार: إنزلوا إلى السرداب يا حياة إذا حصل الأمر بعد رحيلي..

- هل سأجد أشياء عمي قيدار هناك؟؟

كل أشيائهم وروائحهم وأصداء أصواتهم هناك، لا تخافي هي أصوات أهلك، حتى صوتي ستجدينه هناك بعد رحيلي، ستؤنسك أصواتنا يا حياة الصمت مخيف في وحشة السراديب، إياك والاستسلام للصمت حتى وأنت وحدك ردي الكلمات وحاوري نفسك اطرقني على قَدح أو طبق، اخترعي ضجة ما، أبدا لا تدعي الصمت يهددك، انصتي لموسيقى تستحضرينها من قلبك، وإن عجزت عن استدعاء الكلمات والموسيقى لسبب ما قومي بالعد من مائة إلى واحد بالمقلوب لكن لا تدعي الصمت ينال منك وعندها ستنتصرين على الصمت..

بعد سنوات من هذا الحديث وفي سنة 1997، سأهجر بيت الزوجية بعد عودة حازم مخصيا من الإعتقال و إصراره على انفصالنا من خزي ما حدث له و سأعود إلى بيت والدي المهجور.

ليلة بدأ قصف بغداد زحزحت الخزانة الثقيلة في المطبخ بعون من جارنا حامد الأخرس أبو الطيور ونجحنا في فتح باب السرداب، هبطنا سلما من أربع عشرة درجة، أشعلنا شموعا، فتطايرت على وجهينا الحشرات، واجهتنا في القاعة خزائن حديدية، على رفوفها منات الكتب والمجلدات التي غلفت بالبلاستيك الشفاف فلم ينل منها الغبار ولا الحشرات في صيف بغداد الجهنمي، أفعمت روحي لذة غريبة: كل هذا لي، المخطوطات والكراسات والكتب، وجدنا في إحدى الزوايا طبقا للستلايت مغلفا بالجنفاص والبلاستيك (لم اعلم ان أبي كان يملك طبق ستلايت محظورا خبأه خوفا من بطش السلطة في تلك السنوات المريعة وأخفى الأمر حتى عن ابنته) وثمة صناديق ملأى بالمنبذات من أدوات وثياب عتيقة، وسخان ماء عاطل ودوارق زجاجية كبيرة كان عمي قيदार

يصنع فيها نبيذ سنته كل صيف من تمر نخلنا والتين المجفف والخميرة
وبعض الليمون والعسل، كان يقول لأبي عندما يرى استغرابه:
- المسلمون الأتقياء يتعاطون نبيذ التمر لا خمر العنب، فهو بلسم
روحاني وموقظ للفرح ومجدد للقوى إن كان تحت حد السكر متبعين
رأي أبي حنيفة في تأويل حد التحريم في الأنبذة المتخذة من التمر
والتين والزبيب والخمور المتخذة من العنب..

عششت الأرضة ودودة الخشب على قوائم المقاعد الموجودة في
السرداب، تهاوى أحدها حين لمسناه وفاحت رائحة العفن وانتابنا
عطاس وسعال، على منضدة واطنة كانت فوانيس صغيرة وفي زاوية
من القاعة ثمة برميلان فيهما نפט الكيروسين، أشعلنا الفوانيس ورأينا
عددا هائلا من الساعات و المرايا الغريبة بأطرها المزخرفة معلقة على
الجدران، أعدنا تشغيل الساعات، عشر، عشرون؟؟ ربما أكثر من ذلك
وعلى الجدار الأيسر كان عود عمي معلقا داخل غلافه القماشي الأسود،
وبعد أيام علقت كمان لمى إلى جانبه، وضعنا للساعات بطاريات وجدناها
في علبة تحوي كل ما يحتاجه المحاصرون في الأعماق من بطاريات
ومفكات ومصابيح يدوية وأقراص ادوية ومكعبات فوسفور لإشعال
المواقد وكمامات بدائية أذكر اننا صنعناها بأيدينا من طبقات نسيج
الشاش وحشونها بمسحوق الفحم في حرب 1991 حين توقعنا حربا
كيميائية، نظفنا المرايا فعادت صافية تعكس أضواء الفوانيس ووجهينا،
وتصادت في السرداب تكتكة الساعات ورنينها، بغتة وأنا أتفحص الكتب
وبعض الكراسيات صرخ حامد وأشار إلى إحدى المرايا: التفت إلى حيث
أشار فرأيتهم ينظرون إلينا من بين سحب الدخان وألسنة اللهب، كلهم
كانوا في قاع مرآة الرؤيا وبعداد تلوح من ورائهم بملامحها العباسية
ومآذنها ونخيلها ونهرها وسط الحريق: أبي وأمي وشقيقي ماجد ومهند
وزينة وعبد الله شقيق حامد وحيدر ابن خالتي ولمى، كل الموتى الذين

ابتلعتهم الحروب والمصائب، لاحت لي عينا جدتي الشهلوان تنظران
الي بعزم وكأنهما تشدان أزري ويدها تتضرعان بين سحب الدخان..
من فزع هرب حامد قافزا على السلم وهو يولول وانا أضحك منه
قلت: أرجوك أغلق الأبواب عند خروجك..

حياة حياة..

كانت همسات منكسرة تنهمر من الهواء، أو تتنبثق من شقوق المرايا المتشكلة شبه خرائط دقيقة على سطوح الزجاج..

تماسكت وجلست على الأريكة، تناهت إلي ضحكات مرحة، أحدهم قال:

- حياة لا تخاف، أعرفها، هي التي ستروي حكاياتنا للناس، حياة لساننا وصوتنا الباقي..

-اسكت يبدو أنها متعبة، دعها ترتاح، عانت الأهوال هذه الأيام، دعوها تنام، كم تبدو حزينة ووحيدة يا أسفي عليك يا حياة..

ارتجفت وفتحت عيني، قال الصوت:

انا أخوك مهند، تماسكي ونامي، هنا في الأعماق تكون الأشياء أكثر امنا ووضوحا، لا تخافي من شيء طالما أهلك يحيون في المرايا..

سمعت ضحكة لمت مع موسيقاها تحيط بأصواتهم وضحكاتهم وتعالى عزفها الشجي على الكمان، عبقث حولي أشداء الأكاسيا التي كانت لمت تعسفها، وحين يتأخر تفتح ازهارها في حديقتها كانت تقطف عناقيدها الذهبية من حديقتي وتملأ مزهرياتها بشموس عطرة، وترأت لي صورتها في المرأة وهي بثوبها الرومانسي الذي خاطته شروق من الموسلين المنثور بباقات زهور رقيقة وعناقيد أكاسيا وقالت لها:

نحن النساء مولعات بالرفة والجمال، هل تظنين أن رجلا ستعنيه أنوان انزهور أو رقة النسيج كما نفعل؟؟ أنظري إلى أثر الزهور فينا (كانت شروق تعمل في مركز بحوث زراعي) أنت الآن حقل ورود، حقل أنوثة فريد من نوعه، الرجال لايقدرّون فتنة الحقول وغواية الزهرة وعبير العشب..

فاحت رائحة الليل ونداوة المطر وبعض شذا الياسمين والأكاسيا من الكوة العالية والساعات تطحن الوقت وترشه نثارا في هواء السرداب.

-لا تخافي نحن معك- قال صوت كصوت أبي- هناك صندوق صغير
على المنضدة، افتحيه..

هل سمعت ذلك أم رأيت الصندوق وبلغتني الرسالة؟؟
فتحت الصندوق، وجدت ورقة مطوية نصفين وقرأت:

(.. كن وحيدا و لا تأمل برفقة أحد في هذه المدينة، كن في بغداد و لا
تأمن وسادتك والرداء، كن في الحب و لا تعول على وفاء الحبيب،
احترس وتربص بكل من عداك، ضاعف عنفك على من يليك، أرح كل
آخر، خذ موقعه حيا وارقد في قبره ميتا.. عندئذ ستكون جديرا بالعيش
في بغداد، ومن لا يعتد بهذه الوصايا عليه أن يهجر مدينة النقايس
والفناء..)

وعلى الوجه الثاني للورقة قرأت:

(موقف التيه لعبد الجبار النفري:

أوقفني في التيه فرأيت المحاج كلها تحت الأرض وقال لي ليس فوق
الأرض محجة، ورأيت الناس كلهم فوق الأرض والمحجات كلها فارشة
ورأيت من ينظر إلى السماء لا يبرح من فوق الأرض ومن ينظر إلى
الأرض ينزل إلى المحجة ويمشي فيها. وقال لي من لم يمش في المحجة
لم يهتد إلي. وقال لي قد عرفت مكاتي فلا تدل علي، فرأيت قد حجب كل
شيء وأوصل كل شيء، وقال لي في موقف البحر:

أوقفني في البحر فرأيت المراكب تغرق والألواح تسلم، ثم غرقت
الألواح، وقال لي لا يسلم من ركب، وقال لي خاطر من أنقى نفسه ولم
يركب. وقال لي هلك من ركب وما خاطر. وقال لي في المخاطرة جزء
من النجاة، وجاء الموج ورفع ما تحته وساح على الساحل.)

انفتحت في داخلي وبتأثير وحدتي في الأعماق- حياة الصمت
الشاسعة التي تنبثق منها التساؤلات، أهذه هي المحجة التي قال بها
النفري؟؟ أم هي الحياة الأبدية التي ترقد في أعماقها أرواحهم الهائمة؟؟
وهذه الورقة أتكون وصية عمي قي دار؟؟

آه لو كانت لدي الشجاعة فأنفصل عن ذاكرتي السائلة المشتبكة التي
تعذبني، لو كنت قادرة على تحجيم مشاعري إزاء الماضي وإزاءهم
جميعا حتى أستطيع المضي قدما، قلت لا بأس سأقاوم الذاكرة وأنتظر
خلاصني وأخاطر بما تبقى لي وأعتنق الحب في زمن الموتى، هي ذي
مجازفتي ياعماه، سامتثل لما تغويني به مخاطرتي وليس لوصاياك
المونسة يا عماء..

اختفت أشباحهم واسودت سطوح المرايا في العتمة، كانت يا الهي،
الحقيقة المرعبة، إنني وحدي في مواجهة الكارثة، ولكن لم هي مرعبة
هذه الليلة إلى هذا الحد؟ أين بسالتي؟ أين قوتك يا حياة؟؟ رعب أن
تواجهي الموت وحيدة يا حياة، هل ساموت وألحق بهم؟؟
- لا لن أستسلم للموت، في الأقل قبل أن أنهى كتابي و ألتقي ناجي
هنا أو في بلاد أخرى وأعرف شيئا عن عمي قي دار..

شممت رائحة أيامي الكنيبية من أناملي التي تقشر طلاء أظفارها
الوردي عندما كنت أنظف السرداب وأمسح سطوح المرايا، أدركت كم أن
حياتي باهتة في وحشة القلب، وكم كان خصاء حازم سببا لكشف زيف
الحب الذي إدعيناه طويلا أمام أهلنا ومعارفنا، كان حتى قبل ذلك شخصا
فانيا، وكنت أشم روائح الفناء من أنفاسه وأصابعه رغم شبابه، وحينما
كان يعانفتي يتسلل برد جليدي إلى جسدي وتموت الرغبة في أولها
وأحس بأنني أعانق جثة فانية فأهرب منه وأغلق باب غرفتي وأنفجر
بالبكاء، لعل ذلك يعود إلى ما تركته فيه ثلاث سنوات على جبهات الموت
في الحرب مع إيران، كل الذين عادوا من الموت كانوا موتى بشكل أو

بآخر، كنت أسمع همس النساء في المآتم والأفراح عن عطب الرجل
العاندين من الحرب وعجزهم، ولم أصدق حتى تزوجني حازم وأيقنت
لعنة الحرب لم تخطئ أحدا منهم..

مددت يدي إلى أحد الكتب في الرف الأعلى، هبت موجة من غبار،
كان كتابا متوسط الحجم مغلفا بجلد أصفر ولا يحمل عنوانا ولا اسم
مؤلف، فتحت الغلاف الداخلي فلم أجد شيئا سوى البياض المصفر
لأوراقه، عشر صفحات عشرون وثلاثون ومائة ولا كلمة وفي الصفحة
المائة وواحد وجدت كتابة بخط اليد، إنه خط عمي الشيخ قيदार الجميل
المنمق، هلّت دموعي حين لاح لي وجهه الشاحب وشعره الأبيض
الطويل بين الصفحات البيض، كان يظهر واضحا وتلتمع الدموع في
عينيه كما رأيته آخر مرة حين خطفت زوجته فتنة وأوحوا له أنها
هربت، يظهر وجهه المندى بالدمع ثم يتلاشى ويختفي في بياض
الورق..

كتب الشيخ قيदार مخطوطته بخط النسخ ودون العنوان بالخط
الكوفي، لون الحبر تحول إلى أزرق محمر بفعل الزمن، وعلى الحواشي
ثبت هوامش تصعب قراءتها بل إنها في الحقيقة تضفي غموضا على
ماكتب، جلست على الأريكة وأغمضت عيني، استغرقتني الصمت حتى
كدت أسمع نبض قلبي المتسارع وأشم رائحة عمي التي هي مزيج من
رائحة الحبر والورق وعطر المسك الذي يحبه ممزوجا برحيق القرنفل..
داهمني البرد والخوف، خشيت أن أقرأ ما يضاعف خوفي، لكني
صممت على المضي لعلمي أجد في ما كتبه الشيخ قيदार إجابات عن هذا
التشوش وارتباك الأشياء والمصائر، وقررت أن أروي كراساته مع ما
سأرويّه من حكاياتنا..

الكراسة 3

شارع الطاووس الأزرق

بيت البابلي في شارع 14 حي الداوودي ناحية المنصور، شارعنا يمتد بين سكة حديد قطار البصرة التي تفصله عن حي الجامعة، وبين شارع السفارات وخزان الماء، القطار كان غواية للسفر والترحال واقتفاء أثر اللحم في ضفولتي، صوت القطار كان يحملني بعيدا إلى بلدان وفراديس وبحيرات، صوته تحول في شبابي إلي نذير عندما كان يمر محملا بالدبابات والمدافع ومئات الوجوه لجنود يافعين تطل من النوافذ وعليها أمانر هلع وشارات رماد وهم يساقون للموت، خزان الماء صار اليوم نذيرا بالموت، إذ انتشرت شائعات- خلال قصف الطائرات الامريكية للمدن - أن الأمريكان سيضخون سموما في خزانات المياه ليبيدوا أكبر عدد من الناس بلا قتال..

لافتة معدنية صغيرة معلقة على عمود الكهرباء مكتوب عليها (شارع الطاووس الأزرق) علقها الصبيان قبل الحرب الأخيرة عندما رأوا طاووسا أزرق باهر الجمال يسير بخيلاء في حديقة (حامد أبو الطيور) وينشر مروحة ذيله مزهوا أمام حشد الطيور الأخرى..

ومنذ ظهر طاووس حامد في حي الداوودي وصار يرى في الشارع متبخرًا وعشرات العيون المرسومة على ريش ذيله الحريري تنظر إلينا، طلب مدرس الرسم من طلابه في المدرسة القريبة رسم الطاووس، نفذت أقلام التلوين الزرقاء من دكان حامد، سرق الأولاد أقلام ظلال العيون الزرقاء من أمهاتهم ولونوا صدر الطاووس، وأخبرهم مدرس العلوم أن الطاووس من عائلة التدرجات وشعبة الفقاريات ورتبة الدجاجيات فضحك الأولاد ومضوا يرسمون العيون العجيبة المحاطة برموش قاتمة

والمرسومة بالريش القزحي على ذيل الطاووس، رسموا فتزعة الطاووس
وسيقاتها الرقيقة، رسموا عيونها الساهمة الحزينة التي تحديق في الفراغ،
قال واحد منهم: الطاووس من صنف الداوديات فهو يعيش معنا في حي
الداودي..ضحك الأولاد وأغلقوا كتب العلوم حين همس واحد منهم: ريشة
الطاووس تنمو وتطول لو وضعناها في المصحف، في تلك الظهيرة سرق
الأولاد عشرات الريش من ذبول طاووس حامد وخبأوها في المصاحف
لينتظروا عاما فيعثروا على المعجزة..

في ايام القصف فتح الصغار المصاحف، فما وجدوا الريش الذي خبأوه،
قالت لهم الأمهات، هذا نذير لنا وطالع شؤم..
أيما ولينا وجوهنا فثمة موت متاح يهبه لنا المحتلون والمسلحون
الغريباء الذين أجتاحوا أحياءنا، الموت كان هبة الجميع لنا فلماذا تعجلت لى
الذهاب إلى حتفها؟؟

كان البيت غارقا في الظلمات، الكلاب ما عادت تنبح في الليل
والمسلحون بدشاديشهم القصيرة ولحاهم الشعثاء يتقافزون بين حدائق
بيوتنا ويطلقون نيرانهم على كل كائن حي في شارع الطاووس الأزرق فكنا
نجد جثث الضحايا و كلابا نافقة وقطط وحميرا، كانوا يقتلون كل ماله
علاقة بالحياة ويحرقون كل بيت لا يفتح أبوابه لهم ويدعون جنود المارينز
منعمين في أمان داخل أجواف الدبابات المحكمة..

ذات ظهيرة أطلق متشدد من المقاتلين العرب، النار على أحد طاووس
حامد وسقط الطائر في بركة من دماء، قال أحد الصبيان

- واحد من المسلحين أخبره ان اليزيديين (يقصدون طاووس ملك)
رئيس الملائكة فقرر قتل الطاووس، الحمد لله لم يقتلوا صاحب البيت حامد،
هؤلاء لا يعرفون في القتل رحمة..

كتب لي حامد على ورقة وهو ينتحب:

- إن كان هذا الجمال القتل شيطانا فإني عابد للجمال، كيف ينحدر البشر إلى هذا الحضيض؟؟ يقتلون الجمال لا لشيء إلا لأنه رمز للطهارة وتمجيد الخلق؟؟

قلت له: لا تبك، كلنا هذا الطاووس، كلهم أتون لإبادتنا..
نظر إلي ومسح دموعه ثم عاد يمسد جثة الطاووس القليل..

انسحبت الدبابات الأمريكية من شارعنا على نحو مفاجيء وأتاحت للمسلحين أن يسيطروا على المنطقة بكاملها ويفرضوا قانون الموت علينا، بعد ليلة واحدة من هيمنتهم على شارعنا، أحرقوا مكتبة الفراهيدي العامة ونهبوا مبنى نقابة الفنانين في شارع المنصور، حامد الأخرس أبو الطيور كان يراقب ما يجري في شارع الطاووس الأزرق، ويطوف كل مساء على أبوابنا يتيقن من أننا أحكمنا إغلاقها ويطلب منا أن نبقي مصباحا مضاء لكشف المتسللين إلى حدائق بيوتنا، فكنا نشغل مولدات الكهرباء من مائة بين البيوت وكان يحرسنا ويشغل لنا مولدات الكهرباء ويزودنا بالبنزين الذي يحصل عليه بطرق عجيبة من محطة وقود قريبة ويختفي في خرسه مع طيوره ولوعة موت الطاووس و عشقه الينس لراوية..

علمته الطيور تمييز أمزجة الناس من خفة النبرة أو كثافتها، من شدة الضغط على الحروف او اللججة، من جفاف الصوت وتكسر الكلمات، علمه الصداح والتغريد والنحيب والهمس و نهنهة الشوق وزرققة الصباح وأهازيج الليل فعرف كيف يميز نبرة الزيف أو الصدق في الصوت البشري، صار الأخرس خبيرا بالأصوات..

قبل ساعات من الحريق رأيي حامد أحداث حارس مكتبة الفراهيدي الملتحي صاحب الوسم القاتم على جبينه، كنت أقدم للحارس الخبز والشاي وبعض الطبخ أثناء القصف قبل أن تشح المؤونة في بيوتنا وتنهب مخازن الغذاء في أنحاء بغداد..

حارس المكتبة الكهل قال لي وأنا أعطيه رغيفين مع بعض البصل

الأخضر وقطعة من الجبن الأبيض:

- أموت هنا في المكتبة والله يابنتي، المكتبة أمانة عندي، ما أسمح لبشر يقترب من البناية، عيب أن أتركها، من أول الحرب ما رحنت شفت عائلتي، المكتبة مكان رزقي..

حامد أبو الطيور هز رأسه هازنا وهو المرتاب بكل شيء، فهمت أنه لا يصدق،

- ما الأمر؟؟ أتعرف عنه ما لا أعرف؟؟

خفض رأسه أن نعم..

وقام بإشارات فهمت منها أنه يشتبه بالرجل..

أشار لي أن اذهب، أين اذهب يا حامد؟ أين اذهب يا حامد؟؟

لحق بي واعطاني ورقة كتب فيها (لم اعد أتق بشيء في هذا البلاد بعد

ان جردني الإستبداد من لساني)

تلك الليلة ربما كانت ليلة الثالث والعشرين من نيسان 2003 وكنت وحدي في البيت، غادرت خالتي وابنتها هالة إلى بيتهم في حي المنتبي القريب وراوية إلى بيتها في الشارع المجاور، تلك الليلة أحرقوا المكتبة، جمعوا الكتب في الباحة الأمامية بين أشجار الشمشار الضخمة وحواجز الآس وشجيرات الورد ألقوا بالموسوعات والمعاجم والمصادر التاريخية من النوافذ العليا للمكتبة وكدسوا فوقها آلاف الكتب الأخرى ورشوا عليها البنزين وأشعلوها، هرعت نحو الحريق أولول وأصرخ: ليش، ليش، حرام، ماتفعلونه حرام..

، وقبل أن أبلغ المبنى المحترق، تلقيت رصاصة في ذراعي أطلقها واحد من فصيل الحرائق الذي انتشر أعضاؤه في أنحاء بغداد المستباحة، أم تراه من تلك الجماعة التي أرسلت لي خطاب التهديد بعد اختطاف صديقتنا

الفرنسية بريسكا؟؟ لم نعرف، لا أحد يعرف شيئا في بغداد، لكن حامد بارتيايه الدائم خمن أن من أطلق النار هو الحارس الكهل نفسه الذي كنت أقدم له الطعام كل يوم، ثم أكتشفنا أنه اختفى بعد الحريق ولم نعثر له على أثر..

لما لم يجدني حامد في البيت هرع إلى موقع الحريق فعثر علي وأنا في غيبوبة وقد نزفت دماء كثيرة، كنت أسمع أصوات الانفجارات والرصاص وأفيق برهة وأعود إلى غيبوبتي، التبس الأمر على النهابين الذي تولوا سرقة الحواسيب والخزانات والمكاتب وأجهزة التبريد والمدافع ونقلوها في سيارات كانت تنتظرهم، حسبوني مائة فلم يهتم بي أحد، كما التبس على المسلح الملتحي الذي ظنني جثة طازجة (نيكروفيلي شبق مهوس بالحدث)، انتهى مضاجعة جثة ملقاة في العتمة تحت أشجار التوت المتفحمة، متعة تكفيه مشقة البحث عن جثة جديدة في أماكن القصف الأخرى، كنت في غيبوبة منقطعة وقد وهن جسمي، تعذر علي الصراخ، بدأ يتحسس جسدي ويقلبه، رفع طرف قميصي المدمى وكشف عن بطني وصدري، أدركت ذلك حين لفحني الهواء الساخن وجسدي موغل في غيابه، أصابعه تتلمس نهدي وتهبط إلى سرتي وسروالي الجينز المنقوع بالدم، لفحت أنفاسه البخرة وجهي فأفقت، صرخت مثل مجنونة، خمشت وجهه، دفعته عني، ومسكت ساقه، أطلق شهقة رعب واختفى، عدت إلى غيبوبتي..

كان الموتى من أهلي وأبي وأمي وأخوتي يسحبونني إلى ممر مغبر يتوهج فيه ضوء يرتقالي وأنا أصرخ وهم يتصايحون بأصوات مشتبكة ضارعة:

- تعالي، تعالي، هيا غادري أرض الجنون،

- ابقِي وقاومي موتك..

- اذهبي بعيدا إن كنت تريدين النجاة..

صرخ حامد حين ميزني بين جثث أخرى، سحبني يرفق، أفقت لدى هبوب الصوت الأبكم وهو يصرخ، لمحت ما تبقى من لسانه المبتور، قطعة لحم وردية مشوهة بندوب على حوافها ثم عدت إلى الغياب، وجدنتني في بيتي مسجاة على أريكة، حولي منار وأختها دكتورة آمال وحامد، ذراعي ملفوفة بضماد، بكيت وتذكرت لسان حامد المبتور وهو يتلوى في فمه فأصابني الغثيان، إعدام الصوت أفضع من إعدام الجسد..

كان ينتحب ويهمهم ويضرب جبينه كأنه يقول: لا ترحلي وتتركينا..
قالت دكتورة آمال: الحمد لله خرجت الطلقة من ذراعك، الجرح سينتئم، أعطتني حقنة مضاد حيوي وأقرصا مهدنة..

بدا شارع الطاوس الأزرق من نافذة بيتنا مهجورا، بقايا الحريق تشير إلى مصيرنا فوسط أكوام الرماد والشجر المحترق وبقايا الكتب ومجلدات مجلة سومر الضخمة وملحمة كلكاش وكعوب الموسوعات المحترقة، كان قطيع أغنام يرعى في حدائق المكتبة، كنت أسمع نغمة النعاج وأرى بعرها بين بقايا الموسوعات والكتب، رجل يساوم الراعي على ثمن حمل صغير، تحول الحي الجميل وحديقة المكتبة إلى منطقة رعي للخراف وبيعها، الراعي قام بذبح خروف وعلقه على شجرة يوكتيبوس وباع لحمه للنساء، من أين يشتري اللحم؟؟ الجزائرون لا يفتحون محالهم، وكذا باعة الخضار، اكتفت النساء بطبخ الفاصوليا الجافة وما تبقى لديهن من أرز الحصة التموينية، وخبزن في التناير التي تعمل على الغاز، قشرن ثمار الفول الأخضر وأعددن اليخنة مع لحم الخروف، حدثت ذلك وأنا في سريري حين تناهت إلي روائح الطعام والخبز الساخن، صنعت لي راوية حساء من مكعبات مرق (ماجى) وبعض الشعيرية، حامد أحضر لجانة مذبوحة ووضعها أمام راوية وخرج، شوتها راوية في الحديقة وعمت رائحة

الشمواء حدائق الجوار.

لم أستطع تجرع الطعام، من النافذة أيضا رأيت النخل وشجر النارج
والورد ومتسلقات البكتونيا و قد كساها الرماد، هبّات الورق المحترق
حطت على العشب والنوافذ، صدع ابتلع الزمن والأصوات والذكريات، لم
يمر القطار النازل إلى البصرة على السكة المحاذية لحي الداودي منذ بدء
الحرب، مات صوت القطار ككل الأشياء حولنا باستثناء نشيد الروح..

الكراسة 4 بيت النساء

أشذاء الورد والياسمين وعبير طلع النخل يضوع من الحدائق
والمنتزهات المهجورة وبساتين الضواحي في مناطق الدورة والتاجي
والفحامة وسبع أبارك، موهت الأشذاء لبعض الوقت روائح الجثث
المتحللة الملقاة على الأرصفة ثم فضحت الشمس نتانة الموت، العصافير
تنتفض في حوض الماء، بيوض مرقطة تفقس عن فراخ بزغب ورعشة
في عش على شجرة التين، شمس أيار تصهر العشب الطري وتطلق
عبيره مع عقب الأرض الساخن، يصيبني الدوار لفرط هبوب الحياة
وسط جلجلة الموت، شهى ومالح عقب التراب، من أبعد المدييات أرى
عيني ناجي تذرفان عشقا وابتسامة شغف تترنح على فمه، أسمع نبرته
في همهمة الريح وأشم رائحته في طلع النخيل، صوته كامن في الهواء،
سحابة نجوم تمطر من نظرتة وهو يناديني: حياة..
انتبه لتكرار الصوت، بالجنوني إنه ببغاني (حسوني) يناديني.. حياة
حياة..

يدي تنبض بألم الحرق وجسدي يرتعش في وجع الجلد الذي علته
الفقاعات، أسمع انفجارا، ربما هو يوم آخر بعد عام أو اثنين أو ثلاثة،
من يدري؟؟ أيامنا تتشابه والموت يتفاقم فينا، سيارات إسعاف تطلق
صفاراتها، أغير ثيابي منذ الصباح متأهبة لأي طاريء، أخي هاني
زارني ليلا وغادر عند الفجر وأخبرني بأشياء عجيبة عن ابنه، ظهر
ساعتين في الليل واختفى، قال إنه سيعود ويصحح الأوضاع المربكة
التي نتجت عن اختفائه، قال أنتظر أن تتضح الأوضاع ويحل السلام.

ألم يدي المحروقة يسري في ذراعي، تحملي، قاومي، الحياة تستحق
رغم الخراب..

جدتي كانت تداوي جراح يدها - وهي تقطف الزعرور والورد
الجوري من الشجر الشائك في البستان - بلعابها مثل القطط، أو برماد
سيجارتها التي كانت تلفها بورق رقيق وتبغ مسحوق تحمله في كيس
مطرز كالرحالة المغامرين، الرماد نقي كانت تقول لنا - مطهر بالنار،
وكان جدي يتعمد جرح يده لتعلق راحته بلسانها..

- الرجال أطفال ماكرون.. -تقول جدتي-

- كان يجرح يده دونما حياء ويناديني لألحق الجرح فتسيل شهوته
من عينيه ويسحبني إلى السرير، الرجال أطفال جشعون..

تعلمت أمي درسها ونساء أخريات، يا للرجال من محظوظين حين
تحببهم النساء وتعلق جراحهم مثل القطط، تقول هذا وهي تنظر إلى
صورة جدي الذي كان ضابطا ممتطيا فرسه الشهباء، تتندى عيناها
بالدموع: مات في حركة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941، قتله الانكليز
في معارك الحبانية..

يدي اليسرى ينزّ منها مرهم الحروق الأصفر، من الذي قام
بمداواتها؟؟ راوية أم حامد ابو الطيور؟؟ أم منار؟؟ لا أذكر ذلك، انفجرت
العبوة الناسفة قرب البيت، احترقت سيارة الشرطة، شجرة الليلك تفحمت
أيضا ونبات الصبير تهاوى وشجيرات الآس اشتعلت، اللهب تعالق
بزخارف الباب الحديدي وطال شجرة النارج، شممت رائحة شواء لحم
في الدخان، شرطي القى بنفسه من نافذة السيارة المشتعلة و جلس
ينتحب على الرصيف، الجرحى من المارة يتراکضون ويتركون وراءهم
سطورا من الدم، أسرعت لأعطيه ماء، فتحت باب الحديقة الحديدي
فاحترقت يدي، هرعت راوية وهالة لما سمعتا صرختي، كان يوم جمعة،
إحداهما - لعل احداهما داوت الحرق والأخرى أعطت الرجل زجاجة

الماء، لم أعد أذكر فالأحداث تختلط علي في فوضى بغداد وأنهيار
ذاكرتي..

قال الرجل المنتحب: ماهر وعبد الأمير ماتا، الإثنان احترقا في
السيارة، يا ويلي يا بويا ماذا أقول لأهلهم، يا ويلي يا يُمَا..

وجهه كان رماديا مخددا بالسناج، الدموع تسح على عظمتي وجنتيه
الناحلتين وتنزل إلى شاربيه الخفيفين الراجفين..
- يا يُمَا يا يُمَا مات عبد الأمير وماهر.. عبد الأمير كان سيتزوج ليلة
الجمعة بعد يومين.. العريس احترق يا بويا..

الزواج صار ماتما وما تبقى من عبد الامير سوى الرماد، البلد كلها
تزرف إلى الرماد، ليست عروس عبد الأمير استثناء من حفل الرماد.
مر حامد الأخرس أبو الطيور أمامنا وهو يحمل قفصا فيه عصافير
ملونة ووقف قبالة الرجل المنتحب، وضع القفص أمامه..
نظر اليه الرجل كمن ينظر إلى مخبول..
أشار حامد ما يعني أنها لك..
- اتركني يا رجل، أنت بطران، أغرب عن وجهي أنت وطيورك..
راوية قالت لحامد:

عيوني حامد هذا ليس وقته، الناس لا ترى طيورك ولا تقدر
قيمتها، احتفظ بها ليوم افضل من هذا..
وضع القفص أمامها وغرق في لجج عينيها الشاسعتين..
- حامد ليس الآن، في يوم آخر، قد أحتاجها أطلبها منك..
هل ستطلبه يوما مع طيوره؟؟ هل ستتحكم بها الشفقة أم الحب
حينها؟؟

قال لنفسه: كم سأكون محظوظا، لو، لكن، يالي من رجل سيء الحظ،
ماذا فعل بي لساني؟؟

جلست هالة على حافة الحوض الحجرية في مرج حديقتي وبكت،
بكت العريس وحببيها الراحل أخي مهند..
ولكي يموه حامد فورة عشقه لراوية، عاد وقدم القفص بطيوره
الزقة لهالة المنتحبة ومضى دون أن يلتفت اليها..

راوية دخلت تعد الشاي، الرجل الباكي اختفى، شجرة الليلك تهاوت
كومة رماد، وهيكل السيارة المحترق تلاشى، لم يتبق شيء، هل حقا
حدث الانفجار واحترق شابان واختفى الثالث؟؟ من يعرف ومن بوسعه
تأكيد الحدث الذي يتكرر بين برهة وأخرى؟؟
هل أنت متأكدة هالة؟؟ وأنت راوية؟؟ لا واحدة منا تعرف، نحن
النساء الثلاث، لا نعرف سوى نغمة واحدة هذه اللحظة هي نغمة الألم
السوداء تتردد في أرواحنا..

تأتي راوية بالشاي من مطبخي، تيرق أقداح البلور الرقيق الموشح
بخطوط مذهبة تحت شمس الصباح كأنها تحتفل بالنجاة، نجاتنا وموت
الأخرين، كلما نجونا من الموت غمرنا فرح أناني شنيع: الميتون سوانا
ونحن أحياء ما نزال..
تقدم لنا راوية ما أحضرته من كعك أعدته أمها لعيد نوروز بوصفة
توابلها الغربية:

تذوقن هذا الكعك تسميه أمي كعك السعادة (تضحك)، كلي هالة تقول
أمي إنه جالب الحظ والسعادة، أمي لها وصفات عجيبة تسحق الهيل
وجوز الطيب والقرفة وقشر البرتقال والورد المجفف وبعض غبار الطلع
وتخلط المزيج مع الدقيق والسمن واللبن الرائب وشيء من دبس النخل
وماء الأعشاب السبعة، وصفة معقدة كالسعادة!! تقول أمي التوابل
تحرك القلوب وتجلي العقول الباردة فنلتقط السعادة بحواسنا المتنبهة..
أمر معقد كالسعادة ذاتها.. لا أصدقها لكني لعب اللعبة معها..

سيارة أمريكية مصفحة تمر أمامنا، عيون الجنود ترنو إلى النساء
المحتسيات شايا في الحديقة بعد الانفجار، فوهة مدفع صغير تطل من
فتحة المصفحة وتتجه إلينا مباشرة وتتوقف قبالة الباب..

راوية التي كانت تغطي شعرها الأشقر بوشاح حريري أزرق
وترتدي ثوبا من نسيج الجرسية السميك بلون البحر يبرز تقاطيع
جسدها الفاتن قالت:

والله إنه يتذكر أمه في (نيو اورليانز) أو (لويزيانا) ويتشهى قطعة
كعك هذا الجندي الأسود، تدرن يا بنات في لحظة ما يصبح القاتل
انسانا ضعيفا يتشهى مثلنا رائحة كعك البيت وحضن الأم وأكثر من ذلك
عناق الحبيبة، الإنسان هش ومسكين حين يكون قاتلا أو مقتولا، هل
أرمني له كعكة؟؟

ننهرها كلاتا: هل جننت؟

أقول لها:

يوما ما سيصير الأعداء بشرا مثلنا، وتمضي الحياة لكن العدو
لايزال عدوا ولم يتحول بعد إلى بشر سوي، طالما هو في سيارة مصفحة
وفوهة رشاشته تتجه إلينا.

تهب موجة من شذا الكافور وورد الجوري، تساقط شجرة الأكاسيا
زهورها الصفرة الشذية علينا إنه الربيع، جسدي يستجيب لزلزلة الأرض
وقيامة التراب، البلد يتصدع في الربيع أيضا ويعزز الرجال بأنياب
وبرائن وقلوب من صفيح، نتداول الحوار بالنار والقتل أو بالعشق والكيد
لمن يخالفنا، ليس ثمة من فسحة بين البياض والسواد، ثيابنا تستعير

الليل وبعض الغبار، حياتنا معلقة بين المصادفات وما زلنا نتشبث بالحياة..

تدور معارك وإطلاق نار بين المسلحين والقوات الأمريكية في محيط منطقة الداودي والمنصور حيث بيتنا وبيت راوية ومنار، أعددت طبقاً من الرز بالفول الأخضر وعشبة الشبث وبعض الكركم وسلطة اللبن والخيار والثوم..

قالت راوية: سيعود نديم، كان أقسم أن لا يعود إلا بسقوط النظام.. ننزوح ونرحل، لا أظننا نبقى هنا هو يحمل الجنسية البريطانية، هل العيش في لندن كالعيش في بغداد؟؟ لا أبدا.. سنعيش هناك حتما أنا احلم بالسفر إلى اي بلد أوروبي ونديم سيأخذني إلى حلمي..

أحاول مجارة توقعاتها وتهدئة انفعالاتها، ألوم نفسي لأنني أتواطأ مع أوهامها، أدفعها لتستغرق في العمل: حاولي أن ترسمي، عودي لاستثمار موهبتك المهملة، هيني معرضاً ويكون جاهزاً حين تهدأ الاوضاع ارسمي وبشي لواعجك في اللوحة والرسوم..

أتوقف عن تحريضها، الاتعلمين يا حياة البابلي أن طاقاتنا لا تنهض إلا على ذخيرة حية من الحب وتزدهر في توازن الروح؟
تتساءل هالة:

- لماذا قدر لنا ان نعيش الحرمان خلفاً لغيرتنا من نساء الدنيا؟؟
لا أجد جواباً لحيرتها..

أدع راوية هانمة ترتع في أملها المبهم، أريد أن أقول لها شيئا، دعيها يا حياة، اسكتي، دعي كل امرء لمصيره الذي ارتضاه..

تعود الطاقة الكهربائية إلى حيننا، لدينا ساعتان من العمل، تشغيل غسالة الملابس وتسخين الماء وكوي الثياب، تقول راوية: سننادي

هيلين لتصفف شعرنا وتنسق حواجبنا، نتجمل من أجل أحلامنا، قد يأتي أحد الليلة أو غدا من يدري؟؟ قد يأتي نديم أو خاطب مجهول تدفعه الحرب ليتزوج قبل اقتراب الموت..

تذهب وتأتي بهيلين الخجول التي تحيينا وتتلعثم، هيلين تعمل كمصففة شعر من بيتها وهي معلمة في روضة الاطفال القريبة، لم يسمح لها والدها أن تفتح صالونا للحلاقة، تحمل حقيبة معداتها وملاقط الشعر والمجفف والحلاوة تزيل بها زغب السيقان والأذرع -اقترب الصيف سنرتدي قمصانا وتنورات..

- المتشددون سيلاحقوننا لو ارتدينا صنادل مفتوحة او قمصانا ملونة وتنورات وبنطلونات..

تقول راوية: طاردني رجال ميليشيا ملتحون ورشوا على رأسي وثيابي طلاء أسود لأنني لم أكن أردي جوارب سميقة وجلبابا وغطاء رأس، أحاطوا بي لدى باب مديرية الفنون حيث أعمل وصاحوا بي: -عاهرة لابسة هدم مستهترات، عاهرة سنحرقك.. نقطع رأسك. وفي الحي لاحقها شبان ملثمون وضعوا علامة على باب بيتها وكتبوا:

- بيت عاهرات..

لماذا؟؟ لأنها تصبغ شعرها باللون الأشقر وترتدي بنطلونات وتذهب إلى عملها في سيارة أجرة مع ثلاثة موظفين من زملائها، وتدعوهم أحيانا لشرب الشاي مع أمها صباحا حين تقطع الطرق بعد الانفجارات وينتظرون ساعة أو اثنتين حتى يعاد فتح الشوارع المغلقة..

احتمت راوية ببيتنا، لم تذهب إلى العمل، قالت: هددوني بقطع رأسي ان لم اضع حجابا، يقطعون رأسي، تصوري، لايصمدون أمام شعر أنثى، يسيل لعابهم وشهوتهم، سيأتي نديم ويخلصني من هذا الطاعون.. تعرفين كل البنات معي وضمن الحجاب، انا الوحيدة التي صمدت..

بعد أيام وجدت راوية رسالة تهديد بالتهجير أو الموت فذهبت أمها

لبيت قريبتها خالتي سامية وجاءت راوية لتقيم معي لكنها لم تكن تنزل أبدا إلى السرداب، تقول:

-إنا إنسانة تحب السطوح والهواء والسير على الأرض ورائحة التراب والشمس، السرداب ينقبض قلبي وأفكر بأمور مروعة، أريد أن تتفرغ حواسي وعقلي لإنتظاره حسب..

صففت لنا هيلين شعورنا بتسريحات بارعة وفتفت حواجبنا وأزالت رغب سيقاننا وتحت آباطنا بالحلاوة، تزيننا بخواتم وعقود ومساحيق تجميل وتعطرنا وضحكنا حتى انهمرت الدموع من عيوننا..
قالت راوية:

- نرد الإعتبار لأنوثتنا.. لماذا تضحكن؟؟ ألا يحق لنا؟؟
أخذت راوية تصورنا بكامرتها الديقتال الصغيرة كمصور محترف، تصورنا كما نحن، تتلاعب بصورنا بواسطة الفوتو شوب على الكومبيوتر، تجعلنا نرتدي أغطية وجلابيب أو تجعلنا عجائز بتجاعيد، تسخر منا، من كل شيء، وتضحك:

- سيأتي نديم وأذهب معه بعيدا عن صديقاتي العوانس وأنسى هذه الأيام أنتعسة بينكن !!

- إخرسي -أنا مطلقة يا بنت، لست عانساً..
.. ما الفرق؟؟ لديك طليق مخصي في الذاكرة ورجل في بلد بعيد كأنه حلم لا أكثر، إذن انت بلا أحد، بلا رجل !!

تنتهي هيلين من عملها، تغادرنا مزيينات ملساوات السيقان معطرات مستعدات لأحلام نقدم فيها الأجساد الناعمة المحرومة على منبج أو هامنا، كل رجالنا محض صور في الذاكرة أو أطياف في حلم عشقي...
تعود هيلين مرعوبة:

- راوية تعالي اصحبيني حتى رأس الزقاق، الملمثون ظهوروا ثانية.
تهمس لي راوية:

- أتعلمين أخي محمود مغرم بهيلين..

- و ماذا في الأمر؟؟

- أهلها سيرفضون..

- وأنت وأمك؟؟

- أمي لاتعلم بالأمر، تعرفين أن محمود يقيم مع عمي المريض في شقته بشارع حيفا، لم يشأ اغضاب أمي، أخبر عمي و باح لي بلوعته قبل أيام عندما زارنا، هيلين نشأت معنا، درسنا في المدارس نفسها وعشنا في الحي نفسه وكأننا من عائلة واحدة، عشنا حياتنا كلها معا، كنا نحتفل معا في أعيادنا وأعيادهم، أخاف أن يتكدر حبهما الجميل، أخاف على أخي اذا رفض أهلها واعترضت أمي..

- ولم قد يرفض أهلها؟؟ هناك زيجات كثيرة مختلطة في عوائلنا..

- هيلين خانفة من غضب والدها، تقول الأوضاع اختلقت الآن

والدها كما تعلمين يحمل جرح نكبته بأهله في مجزرة قرية سوريا الشمالية، هذا ماتخشاه هيلين، مرارة ذكريات أبيها التي قد تدمر حياتها..

الكراسة 5 برسكا برنار

الرؤية معدومة في ضباب الموت ودخان الحرب، الوعي مرتبك في ارتعاش الجسد او حين رجة الانفجار، لاشي حقيقي سوى الفجر الذي ينهمر بغثة على المدينة، يترع جسدي بالنور قبل الشروق فأراه معي، أرانا مختبئين من رصاص القتلة في غيضة نخل، يحيطني بذراعيه فنتلاشى رعشة الرعب التي شلت أطرافي، يقبل عنقي ويدي وعندما تفيض شهوته، يكبحها احتراماً لألمي يهمس لي:
اهدأي، لن نموت الان، أنا معك، تماسكي، سننجو وأخذك من هنا..

لا شيء سوى النور الباهت الذي ترشه النجوم على بغداد، أفتح عيني فلا أجد، لا أجد أحداً، أذان الفجر يكثف أحزاني، رصاص، عويل، هدير دبابة، وصمت متوتر، أنظر إلى العالم من فرجة الشباك، الطريق موحش، يظهر فتیان ملثمون بالكوفيات، يخطون بصباغ أسود على الجدران شعارات مضادة للإحتلال وعند الظهيرة تمحى وتحل مكانها كتابات بطلاء أحمر عن تحرير العراق بيد قوات التحالف الصديقة، ملثمون يمرّون سراعاً بأسلحتهم الخفيفة وثيابهم القصيرة ولحاهم المشعثة، يطلقون نيرانهم على البيوت، علينا، على الصباح، ويستثنون الدبابة الأمريكية وجنود المارينز..
لا أحد سوانا نحن النساء انا وراوية ومنار وهالة وبريسكا الفرنسية نلوذ بسرداب بيتنا كل ليلة..

منذ يومين وبرسكا برنار الصحفية الفرنسية تقيم عندنا، ليس عندي
أو عند راوية أو منار بل في بيتنا، بيت النساء.

تريد بريسكا زيارة معهد الفنون الجميلة، أحدهم اخبرها عن المعهد،
تريد أيضا أن ترى مبنى المحطة العالمية، ما الذي تجده صحفية فرنسية
في المحطة المهجورة؟؟، تريدني ان أصحبها..

- أنا؟ لماذا أنا؟

قالت: لك علامة حظ على جبينك..

-أنا؟ يالهناي وغبطني، متى حظ طائر الحظ على جبيبي؟؟

بأخذنا عمار بسيارته التويوتا موديل 1984، سيارته الخاصة التي
نستأجرها ضمانا للأمان، أهله محاصرون موزعون مابين الفلوجة
والرمادي مع زوجته وأولاده الثلاثة، هو ممنوع من دخول المدينتين،
لايمك وثيقة من الجيش الأمريكي، ذهب مرتين ووقف في صف طويل
تحت الشمس على مشارف الفلوجة، انتظر خمس ساعات وعاد بضربة
شمس، رفضوا منحه بطاقة المرور إلى المدينة المحاصرة، قال أن رجال
القاعدة اختطفوا أخاه سلام، طالبوا بقدية كبيرة لا يملكونها ولما لم
يدفعوا لهم، قتلوا سلاما وألقوا جثته أمام باب أهله ومعه رسالة تفيد
بأنه متعاون مع الإحتلال، لأنه رفض منح سيارته التاكسي للمجاهدين،
سلبوه السيارة وقتلوه..

نسير في شارع دمشق، معهد الفنون الجميلة، المعهد مهجور،
التمائيل حطمت وشوهت اللوحات الجدارية وعن يميننا متنزه الزوراء
الذي أغلقوه قبل الحرب، احترقت بعض أشجار اليوكالبتوس والصفصاف
والأرجوان، بعضها قاوم الإهمال والظماً، المروج جفت وتحولت بعض
الشجيرات إلى لون ذهبي محروق، أتراها ماتت؟؟ ألوانها النورانية
تجمل الخراب الذي حاق بالمتنزه، جذوع أشجار التوت العتيقة كانت

رحيمة ومتينة ليتوارى وراءها عاشقان يتبادلان القبلات تحت المطر أو في غسق الخريف قبل أن يضبطهما شرطي أو عابر متشدد، مدرسة الموسيقى والباليه نهبت وحطمت الات البيانو وقاعات التدريب واحتل البناية حزب متشدد.

- أين يلتقي العشاق في بغداد؟

سألتني بريسكا...

- العشاق؟؟، يتخفون في الظلال أو العتمة أو يطالهم الموت.

كانت تريد كتابة تحقيقات عن شخصيات بغدادية استثنائية لم يستهلكها الإعلام، اتصلت بي صديقة مشتركة من باريس:

- حياة أنت بخير؟؟ الحمد لله..

ضحكت: وهل تتوقعين موتي بسهولة؟؟

إسمعي لدي صديقة فرنسية إسمها بريسكا سيدة شجاعة تعمل مراسلة لوكالة فرانس برس، بعد يومين ستكون في بغداد، أرجو أن تساعدني في مهمتها، تريد لقاء شخصيات لها أساطيرها الخاصة ومن عشاق بغداد هي عاشقة لبغداد أيضا ولطالما تمنت زيارة مدينتنا..

كم تمنيت أن أعرّ على عمي قي دار لا تدبر لها لقاء معه، عمي عرابنا وعاشق بغداد، لكن أين أجده؟؟ دون اتفاق صار عرابنا وملهمنا الذي استوعب كل ما يخلصنا وكثفه في روحه كخلاصة عطر، هو حاضر فينا ومعنا رغم استغراقه في الغياب شبه صدى لأغنية قديمة تتردد بطريقة استحواذية في خواطرننا، علم أحد الأصدقاء من مريديه أنه عاد إلى بغداد من رحلة الغياب و اعتكف في أحد أوابين حصن باب بغداد الوسطاني، اتخذه ملاذا يصعب وصول المتطفلين إليه، لم أكن متيقنة من هذه المعلومة التي نقلتها لي راوية، من يدري؟ قد يكون الأمر حقيقة وأنه عاد إلى مدينة عشقه وعذابه، خطر لي أن الباب الوسطاني قد

اختفى ذات حريق، فكيف سأعثر على الشيخ قيदार؟؟، الأمكنة تزول في بغداد بطريقة غامضة كما يحدث لأهلها كأنها تغوص في الزمن دون أن تترك أثرا..

نمضي أنا وبريسكا التي أثارت شقرتها وجمال وجهها الرجال العابرين - نسير باتجاه تقاطع دمشق، مبنى المحطة العالمية عن يسارنا، قبتها الزرقاء الشهيرة علاها الغبار، وساعتنا برجها توقفتنا منذ عشر سنوات، أمامنا مبنى المجلس الوطني القديم الذي أحرق ونهب؛ وانهارت بنايته، حثثنا الخطى نحو مجمع النقل في منطقة (العلوي)، لنستقل سيارات الأجرة العابرة إلى جانب الرصافة، وجهتنا الباب المعظم ومن هناك سنستقل سيارة أخرى إلى الباب الوسطاني في سور بغداد العباسي وراء المقبرة والطريق السريع لعلنا نعرث على عمي الشيخ قيदार إن كان قد عاد حقيقة..

صرخت بريسكا: حياة، انظري، إنهم يتجهون نحونا..

كانوا أربعة ملتئمين مسلحين تتجه نظراتهم من فوق اللثام إلينا، انحرفنا عن الطريق ولدنا بشجر الجهنميات واللاتنا على جانب المبنى المقوض، اقترب أحدهم منا وسحب بريسكا من ذراعها ووضعها في سيارة تاكسي كانت متوقفة في الزقاق الجانبي، بينما وجه رفاقه فوهات أسلحتهم نحوي، صرخت، صرخت امرأة كانت تقف على الرصيف.. أطلقوا الرصاص علينا لكننا نجونا حين انحرفت السيارة بهم إلى الشارع الرئيس أمام المحطة العالمية..

لماذا لم ياخذوني معها؟؟، اكانوا يرصدون تحركاتها منذ وصولها
بغداد؟؟ بريسكا كانت هدفهم، فرنسا تدفع فدى كبيرة مقابل المخطوفين،
إنهارت قواي فجلست عند السور المهدم أنتحب..
..ما جدوى ان يخطفوني؟؟ ما نفع امرأة لا يدفع أحد فديتها؟؟

بعد أسبوع من خطف بريسكا وصلت رسالة إلى احدى الصحف من
جماعة مجهولة:
حررنا الصحفية الفرنسية من قبضة خاطفيها ونريد التفاوض
بشأنها..

التفاوض مع من؟؟

جاءت مكالمة هاتفية إلى مكثبي في المؤسسة الإعلامية: أنت
صديقة بريسكا، نعرف، أبلغني من يهمله أمرها أن يدفعوا نصف مليون
دولار..

حاولت الإتصال بالصديقة المشتركة في باريس لتبلغ أهلها
ومؤسستها، وجدت رسالة على المجيب الألي:
ارجو ان تتركوا رسالة، أنا في بروكسل، أعود بعد أسبوع..
قام أحد معارفنا ببلاغ الفرنسيين، وردت مكالمة أخرى من
مجهولين:

فدية بريسكا مليون دولار، اشتريناها من محتجزها وهي بأمان،
بوسعكم سماع صوتها،
صوت بريسكا؟ كان حشرجة خافتة تتردد في الهاتف، تحدثت
بالإنكليزية: انا بخير، اتصلوا بالفرنسيين...

اختفت بريسكا وأعلنت جماعة مسلحة أنها المسؤولة عن الخطف
وبدأت تفاوض الفرنسيين عبر نواب في البرلمان العراقي، سيمر عام

قبل أن يطلقوا سراحها بعد دفع مليون دولار للمفاوضين الذين اشتروها من الخاطفين..

بعد أسبوع من خطف بريسكا وجدت رسالة على مكثبي في المؤسسة، مظروف أسمر كتبوا عليه إسمي بخط متقن، منذ متى كانوا هنا؟؟ لماذا لم يتنبه أحد لهم؟؟

كانت رصاصه جديدة لامعة ترفد في قاع المظروف، نقطة دم جافة على اسمي: إنذار بليغ بالموت، لم تكن الرسالة الوحيدة، تلقى الزملاء رسائل مماثلة، تكتشف الشرطة أنها من مافيا تبتز الصحفيين والإعلاميين بطلب فدى عالية ويديرها رجل تابع للقاعدة، مسؤول عن جمع التمويل للتنظيم، يقبضون على الرجل بمحض مصادفة، وهو يلقي برسائل مشابهة في مبنى صحيفة يومية..

أختنق في الجو القاسي، درجة الحرارة في بغداد 48 درجة مئوية في الظل، وجهي يتفصد بالعرق، لا كهرباء، ناجي في القاهرة، أهاتفه عبر هاتف الثريا، لا اتصالات في بغداد، سأموت وحدي دون أن يكون وجهه مرآة النهاية، لن يجدني، كان يعتزم القدوم إلى بغداد هذا الصيف، أتضرع إليه ان يرجيء الأمر حتى نرى حقيقة ما تؤول إليه أحوالنا..
كتبوا في الرسالة:

(الله أكبر والنصر للمجاهدين، انت ميتة، قبل قتلك سنغتصبك وندمرك، نمحو اسمك من الوجود انت عميلة الفرنسيين، قيرك موجود في مقبرة الكرخ، إذا شنت التحقق من الأمر اذهبي إلى هناك لتري قيرك..)

تفاجؤني خالتي أم هالة بزيارة عند طلوع النهار:

-الأمريكان اقتحموا البيت واعتقلوا هالة، كانوا يفتشون عن مسلحين وأسلحة في الحي ووجدوا رجلين مسلحين مختبئين وراء البيت اتهمونا بإيوانهما أخذوا هالة وتركوني..

- اي مسلحين؟؟ من هم؟؟

لاتعرف حياة لا نعرف، أحدهما سوداني والآخر جزائري كانا مطاردين، فقفزا من سور الجيران واختبأ في مخزن الوقود وراء البيت، هالة انتهت، ستموت يا حياة..

- ماذا نفعل؟؟

- أرجوك اتصلي بمن تعرفين، أتصلي بخالك..

لم يمض أسبوعان حتى اقتحم مسلحون مجهولون بيت خالتي، طلبوا من خالتي أن تؤويهم، كانوا خمسة رجال غرباء، سمعتهم يتحدثون لهجات خليجية ومغربية، هي لا تميز بين اللهجات، قالت لهم وهي تحاول التماسك حتى تلك اللحظة

- أنا امرأة مسنة ولا أحد معي، كيف تبقون في بيتي؟؟ ثم إن الحي محاصر، سيطاردكم الأمريكان، خذوا هذه مائتي دولار هي كل مالدي الآن ودعوني في حالي..

- هذا لا ينفع، نحن باقون هنا، وإذا نطقت سنفرغ رصاص بنادقنا في رأسك..

- سيحرقون البيت على رؤوسنا لو علموا بوجودكم، وابنتي معتقلة لديهم بسبب جماعتكم الذين اختبأوا في حديقتنا..

- بلا كثر كلام يا حرمة، هات مفاتيح البيت واغربي عنا، روعي عند أقاربك، ياللا، لاتضيعي وقتنا.

الفصل الثالث

مناهات

الكراسة 6

حامد ابو الطيور

قطعوا لسان حامد مدرس اللغة الانكليزية في ثانوية الأمين، عندما سجل أحد طلابه على جهاز تسجيل صغير قراءته للمشهد الثالث من الفصل الرابع لمسرحية مكبث، طلب إليه تلامذته أن يقرأ لهم ترجمة الفصل الرابع استثناء من طريقته في تدريس اللغة فاستجاب لطلبهم، اعتقلوه بعد يومين من قراءته الترجمة العربية لحوار مالكولم ابن الملك مكبث ومكدف أحد نبلاء اسكتلندا أمام الصف..

كان يقرأ لهم منتشيا بأداء دوري الرجلين ومعبرا بصوته الجمهوري الجميل الذي طالما تباهى به أمامنا وغنى لنا المواويل والزهيريات والدارميات وأغاني عبد الوهاب ومقامات محمد الكبنجي ويوسف عمر، كانت آخر مرة سمعنا فيها غناؤه في حفل زفاف أخي هاني.

قال لطلابه ذلك الصباح:

-استجابة لطلبكم سأقرأ حوار مكدف مع مالكولم باللغة العربية، لكي تفهموا المشهد ثم نعيد قراءته بالإنكليزية:

مكدف: لتنزف دما، إذن، أيّ بلدي المسكين، وليمدّ الطغيان جذوره مطمئنا إلى أن قوى الخير لن تجرؤ على التصدي له، وليظهر شروره بعد أن أضحي ذلك من حقه، وداعا ياسيدي ما كنت لأصبح ذلك الوغد الذي تظنني إياه ولو أعطيت ملك ذلك الطاغية مع كل ثروات الشرق..

مالكولم: لا تغضب، فما حديثي بالناجم عن خوف حقيقي منك، إنني لأحسب بلادنا تزرع تحت نير الرجل وتنتحب وتدمى، كما أحسب أن ثمة أناسا على استعداد لأن يناصروا حقي في العرش وقد عرضت على انكلترا الكريمة ان تمدني بالآلاف الرجال، ومع ذلك فإني حين أطا بقدمي رأس الطاغية، أو ارفعها على سيفي فستعرف بلادي المسكينة من الشرور أكثر مما عرفت في الماضي وستتعذب عذابا اكبر وترى ممن سيخلف الطاغية صنوفا شتى من الولايات..

حدث ذلك بعد شهر من مقتل أخيه عبد الله في أحداث 1991 ما بين الكوفة والنجف، عاد بعد اعتقاله بأسبوعين بلسان نازف ووجه مروّع، أخذوه من التوقيف إلى معسكر الرشيد أبقوه يوما تحت إرهاب الاحتمالات المتوقعة لمن يتهم بالإساءة للنظام والتحريض ضد الطغيان، لم يكن حامد معنيا بالسياسة قط كان منشغلا بتهينة بيت الزوجية بعد أن خطب فتاة جميلة من زميلاته في كلية اللغات، غادرت أمه البيت وأقامت عند أخت لها في الكوفة لتكون قريبة من قبر عبد الله في مقبرة السلام، تزور القبر كل أسبوع وتسقي شجيرات الآس بالماء وتوزع الصدقات على روحه.

طبيب تجميل معروف قطع لسانه، هذا ما أشيع في حينه، اشتهر الطبيب برسم الغربان التي تلتهم أدمغة البشر وعيونهم، رسم في أحد معارضه تفاح الشهوات وصنع منحوتات فخارية مستعيرا التفاح للتعبير عن مؤخرات أنثوية وأثداء وأعضاء ذكرية، رسم أجساد النساء التي تلتهمها ديدان التفاح وتسيل منها قطرات الرغبة السوداء، كان يرسم بشاعات ويحول الجمال إلى جيفة، بطن المرأة تحول بين يديه إلى كهف اسود تلتف فيه الأفاعي، رسم جدراننا متصدعة ورجالا مخبولين وأيد مبتورة وخيولا مقضومة الرؤوس..

بتر ربيع لسان حامد، قطع آذان عدد من الجنود الهاربين من الجيش أمام حامد قبل أن يحققه بالمخدر، أبقوه يومين وهو يعوي من هول الألم في المستشفى، ثم أطلقوه، مدرس اللغة الإنكليزية فصل من عمله وتلاشى وحل محله حامد الأخرس..

خلال سنوات خرسه صار من رواد (سوق الغزل) عند جامع الخلفاء العباسي في منطقة الشورجة حيث تباع الطيور والأفاعي والغزلان والقرود والكلاب والقطط السيامية والأرانب والسلاحف وأسماك الزينة، بدأ يقتني الحمام والبلابل والبيغاوات والقطا وطيور الحب والأوز العراقي و البجع واشترى بمبلغ كبير طواويس هندية رائعة الجمال وسريا من البط الملون (الخضيري) وأنشأ في حديقة البيت بركة للبط والإوز ولم يكتف بهذا بل دجن عددا من طيور النحام الفلامنغو- الكبيرة بحجم الخراف، كانت قد حطت ببغداد حين ضلت طريق هجرتها إلى المستنقعات يوم فاجأها القصف الأمريكي في 1998 على العراق ورأينا أسرابها الضائعة تترنج في الشوارع بسيقاتها الوردية الطويلة وأعناقها المنتصبية قرنفلية اللون، طاردها صبيان المجاعة وأشبعته الجياع الذين أقاموا مآدب شواء في الطرق، لبثت عشرات منها على مدى يومين تجوب شوارع أحياء الداوودي والمأمون والمنصور وحي الجامعة مثل أعجوبة وردية أتت في غير أوانها، بلبلت حواسها وبوصلاتها الغريزية بروق الانفجارات فحطت في بغداد متوهمة أنها بلغت أهوار الجنوب التي كانت تستقبلها من أزل الدهور في طريق هجرتها، ولما بلغت الأرض لم تجد البحيرات ولا الأهوار التي جففها الجيش - بل صبيانا جياعا قنصوا ضعافها..

استدرج حامد عددا منها إلى حديقته وتأقلمت لديه ولم تغادر في مواسم هجرتها، اعتاد أن يهدي بعضنا زوجا من طيور الحب أو ببغاء صغيرا أو حمامة بيضاء أو بلبلا غريدا أو مجموعة من طيور الفنكس الصغيرة الثرثارة أو يقدم مروحة من ريش طاووس لراوية التي كانت

تحدس شغفه بها وتغويه بغنجها وتصده حين يحاول المضي قدما في ولعه اليانسن بها.

ذات صباح طرق بابي حاملا قفصا من جريد النخل فيه طائر بجناحين أخضرين وذيل أزرق:

وكتب ورقة صغيرة: إلى أختي حياة، ببغاء يسليك..
وضع القفص أمامي واختفى..

حين سألته مرة عن سبب ولعه بالطيور كتب لي في دفتر صغير يحمله معه بديل صوت مسلوب:

(صحبة الطير خير من صحبة الناس، أصواتها تعوض خرسني، فقدت كل أعزائي وخذلتني امرأة أحببتها، لا أطيق الفقد من جديد، تعلمين أنني أبيع في دكاني ألعاب الأطفال والقرطاسية والحلوى والسجائر، أعيش أنا والطيور على هذا الرزق اليسير، تسموني حامد الأخرس أبو الطيور، أجل أنا حامد أبو الطيور ميتور اللسان.
- لكن الطيور تموت وهذا يحزنك أيضا..

كتب: تموت ميتة طبيعية في أجلها المحتوم لا بسلاح عدو من جنسها كما نفعل نحن البشر، أحيانا تهرب مني، تتذكر مواسم هجرتها والرحيل إلى الشمال أو الجنوب، تفر مني إلى أوروبا وأفريقيا في الصيف، لكنها تعود، أصدقائي وأقاربي هجروا العراق وماعادوا ابدا، الطيور غير البشر لا تخذل أحدا، ببراعتها ترمم نفوسنا، لا تعدنا بشئ، تتصرف وفق غريزة البقاء، بصدق هذه الغريزة، لا تخون ولا تكذب انها كما نراها، هي هكذا، سترين أن البيغاء يهتم بك ربما أكثر من البشر، سترين، يفترض بنا أن نكون بانفسنا ولكننا لا نكون إلا بسوانا، تلك معضلة الإنسان، لا تدوم حياته إلا بالرفقة والألفة والحب، أحاول أن أكون بنفسني، مجرد محاولة، وقد أفضل)

ما أن رأني البيغاء حتى صار يردد كلمات مبهمة هي تقليد لصوت حامد ودمدمته البكاء..

هجرته خطيبته بعد واقعة بتر اللسان وتزوجت ضابطا يعمل في حماية أحد الوزراء، رمت خاتم الخطبة والهدايا:

- أريد العيش مع رجل غير مشبوه، أنت شتمت الرئيس وأسأت للنظام، أهلي يرفضونك وأبي يشعر بالعار من فعلتك..
لم يقل شيئا ولم يرها بعد ذلك وكنتم حامد طعنتها ولاذ بطيور الفته وألفها..

يحلون لنا أحيانا ان نسمي شارعنا شارع النساء، فقد اختلفى تقريبا كل الرجال من حيننا وما بقي في بيوتنا غير ظلالهم وصورهم وبعض روائعهم التي تتلاشى بمرور الوقت، بقي حامد ابو الطيور وابن عمه الملتحي الذي ظهر فجأة في بيت حامد ومعه صبي أشقر في العاشرة ولا نعلم شيئا عن عمله ولم نعرف اسمه، ويندر ان يكلم أحدا من الجوار، ونحن لم نسأل لنلا نخرج حامد، قيل أنه كان هاربا من الجيش منذ التسعينيات وكان محكوما بالإعدام وعاد الآن بعد أن حل الحاكم العسكري الأمريكي الجيش العراقي، وقيل إنه كان شيوعيا وهرب ولجأ إلى هوندا وعاد مع سقوط بغداد في يوم العاصفة الغبارية الحمراء عندما تحول النهار إلى ليل من دخان أحمر وأشعلنا المصابيح والفوانيس عند الظهر كائننا تحت كسوف شمسي، وكنا نسمع هسيس الرمل على الزجاج في جنون الريح، وتحولت الأشجار إلى كتل حمراء تنث رملا، رأينا الرجل مع حامد مرات قليلة، قيل إنه يعمل مع إحدى الميليشيات المسلحة، غير أنني استبعدت ذلك فهو لا يخرج قط من البيت، لم يحاول أحد أن يعرف، كنا نعيش التباسات كثيرة ويصعب علينا فهم ما يجري ولم تعد تعيننا شؤون

الآخرين فقد تحولنا إلى جزر معزولة وأكتفى كل امرئ بكوارثه الشخصية.

أخي هاني مختفٍ بياغتني بزيارات خاطفة في الليل، وحامد تفرغ لعالم من ريش وأغاريد لا يرى سوى رقصة الطاووس، لا يسمع غير صداح البلابل ومناغاة طيور الحب وحساب مواسم هجراتها وعودتها..

كتب لي حامد: كيف كنت سأنسى الموت ومصيبتني؟؟ أتعرفين يا حياة، معنى أن يسلبوك الصوت والروح؟؟ الطيور سحبنتني إلى الحياة، الحياة مع الطيور لها طعم النجاة، فلا تخافوني، تجاوزت كوني بشرا: أنا طائر والله صرت طائرا عندما خذلني البشر ومن أحب..
حامد ابو الطيور كان يكتب لي على ورقة يدسها تحت باب بيتي:

- قولي للبنات لا يخفن، أقدارنا لم تحن بعد، أعرف ذلك من مهممات الطيور، الموت لا زال بعيدا عنا، هل تردن أن أحرص البيت ليلا؟؟ سأنام في الحديقة والله لأحميكن،
تقول راوية:

كيف تحب امرأة رجلا بلا لسان؟؟ كيف يقبلها ويداعبها بلا لسان؟
عندما لا أجد سواه سيكون لكل حادث حديث.. ربما اتزوجه إن لم أجد سواه، أريد زوجا مهما يكن..

كان قد لمس يدها وشعرها ذات مساء وهي ضحكت ولم تغضب، وشجعته ضحكتها أن يتمادى قليلا وينحني ليقبل يدها، مرة أخرى كان يلاحقها حتى بيتها ويقف ساعات أمامها تحت شجر اليوكالبتوس، رآته ذات ليلة هناك، وخرجت إليه دعتة لشرب الشاي معها ومع أمها، لم تكن أمها في البيت، قالت أنه عانقها وبكى، قالت أنها أحست بشيء ما

يرتعث في جسدها، نبت ممسكا بها بين ذراعيه وقبلها كمجنون قبل
وجها وعنقها وصدرها، دفعته عنها، قالت له وصوتها يتحشرج في لذة
العناق: لا تفعلها ثانية والله أخاصمك..

قالت كدت أموت بين يديه من فرط المتعة، أه، لو كان نديم يحبني
كما يحبني حامد، جسدي استجاب له وعقلي يرفضه، أريد نديم ومكانة
نديم وثناء نديم، ماذا أفعل بأخرس مفصول من عمله ومنبوذ..؟؟

عندما ألتقيه صباحا في طريقي إلى عملي أقول له:

- لست خائفة أبدا والبنات أيضا، كيف حال الطواويس والغرائق؟؟

يكتب لي في دفتره:

هم أهلي وأنس أيامي الوحيد، تركني ابن عمي هو الآخر وعاد إلي
هولندا لم يطب له المقام هنا، اعتاد نعيم الغرب وحرية العيش كما
يقول..

زوجته هولندية ولها ولدان من زواج سابق ويعيشان معه، غادر
لأنه خشي على ابنه من حياتنا المشوهة بالقتل والحاجة، كانت زوجته
تهاتفه يوميا، وتبدي خوفها على الولد وطلبت منه العودة....

البيبغاء (حسوني) يلازمني ويلاغيني ويتساءل بنبرة صبي فضولي:

ها؟؟ حياة ها؟؟

ويقهقه حين أقول له:

لاشيء حسوني، أنا حزينة، أتريد فستقة أم بذور عباد الشمس؟؟
يشرع في تقليد صوتي على نحو ساخر فأنفجر بالضحك.

لم أتم طيلة ليالي قتال الشوارع، خالتي سامية وابنتها هالة وراوية وأمها يترددن كل يوم علي بيتي ويغادرن قبل الظلام، منار ودكتورة آمال تقصدان بيت النساء كلما خرجتا إلى العمل أو عادتا منه، نتناول وجباتنا معا، تخصصت أم راوية في إعداد أشهى الاطباق من مكونات بسيطة كانت تبهرنا بمذاقاتها المدهشة، تقول راوية قد نفتح مطعما أنا ونديم حين يعود وتشرف أمي على الطباخين، مطعم تقليدي من نمط راق، سأكون المديرية ونديم صاحب رأس المال، سيعود من لندن، سيعود ونبدأ مشاريعنا الإستثمارية ونتزوج.. لديه أمل أن يعين سفيرا، درس العلوم السياسية في جامعة أكستر، وعده قريب له يعمل مع (بريمر) الحاكم العسكري الأمريكي أن يعين في وزارة الخارجية.

هل كانت تحلم؟؟ وهي التي لم تر نديما ولم تقابله حتى الآن؟؟ هل كانت تروي لنا أحلامها وأمنياتها؟

قالت في يوم آخر:

- إذا لم يأت، سأكون في حل من خطبته لي..

- ماذا تعنين؟؟

- ما أعنيه أنني ساعيش حياتي، هي حياة واحدة ومن الحمق أن

أبدها..

- أكنت تحبينه؟؟

- لم أعد اعرف، منذ أن قبلني حامد اضطربت أحوالي، تغيرت،

الزمن يغير أشياء كثيرة فينا، رغم ذلك أظنني لا أزال أحبه.

- تظنين؟؟

- أسكتي حياة، الحب أمر محير..الهجران والبعد يقتلان الحب..

كم مرة نعيش؟؟

بعد تسعة عشر يوماً من القصف أترك السرداب إلى الطرقات، أدع النساء الوحيدات يتدبرن أمر بيت النساء، يهينن الطعام ويشترين ما يمكن شراؤه من الدكاكين القريبة وأمضي ذاهلة في أحياء بغداد المهجورة، أكتشف ما حل ببغداد دون أن يوقفني احتمال موتي في الخطوة التالية..

أطير فوق بغداد كيامة حزينة، أطوف حول المنائر وبرج بغداد وأعبر دجلة في قارب إلى جانب الرصافة، أهبط من القارب قبالة المبنى التاريخي للمدرسة المستنصرية وأجتاز السوق الذي كان يبيع التحف والمسايح والسجاد وخواتم الفيروز والعقيق وصور الملوك والأوسمة والأسلحة الأثرية، ثم أعبر الأسواق المهجورة المنتنة مارة بسوق دانيال وسوق الصفاير إلى شارع الرشيد..

خلال مسيرة خبلي وسط الحرائق وأنا أتعثر بالجنث تهب في وجهي رياح محملة بالرماد، بغداد تحتضر أمامي، أسمع أنينها الدهري يتصاعد من أعماق دجلة، في تلك اللحظات المريعة تفجر في أحشائي ألم كثيف كالجنون، ماجت في رحمي أوجاع، كظمت صراخي وتهاويت بين أعمدة شارع الرشيد المحترق، رأيت بستان نخل وشجر يرتقال وجدول تتدفق وحولي جراء ذئب وسرب من الآوز العراقي وقرود بيضاء تتقاذف و تشاكس بعضها....

أفقت ووجدتني قرب مديرية الخزينة العامة التي نهبت كل

محتوياتها، كان هناك حطام سيارات محروقة وأكداس نفايات، أعمدة
رواق الشارع طالها سواد الحريق وماجت حولها غيوم سود، متسول
عجوز كان يجلس أمام الدكاكين المنهوبة ويبكي، جاء قرد وسحبه من
يده ومضى به جهة شارع (ابو نواس) واختفيا في عماء الحريق، جثث
المقاتلين المتطوعين العرب تناثرت تحت مقتربات جسر السنك والناجون
منهم كانوا في حالة هيسستيريا يولولون ويشتمون ويهدون أو ينوحون..
أعود إلى سرداب السراب وتغادرني النساء أحيانا إلى ليل بيوتهن،
أو يتوزعن بين غرف بيتي وأنزل إلى السرداب وحدي، أنام على الأريكة
وأندثر بأغطية ثقيلة فلا تتوقف رجفة أوصالي ولا هلوسات عقلي..

منتصف الليل أو منتصف الكابوس أحس بشيء يتحرك ويسبح
كسمكة في بطني، ما هذا الذي يتمطي في أحشائي؟؟ غول تسلل إلى
جوفي؟ حمل ما وعيت حدوته؟؟

أساعل في ارتياعي: متى حملت؟؟ من كان السبب؟؟ من أنا في هذه
ال لحظة المارقة؟؟ ومن أكون بعد هذا؟؟
لا تسعفني إشارة عن حملي المفترض، ويعذبني الإلتباس به وجهلي
بما أنا فيه..

لماذا يحدث لي كل هذا؟؟ وما هذا الشيء الذي يمزق جسدي؟؟ أيعقل
أن تحمل امرأة في غيبوبة وتواجه مصيرها بلا أدلة عن واقعة الحمل؟؟
لا أذكر من عشريني في ليل القتل وترك في أحشائي نطفة الهلاك، كل
ما أعرفه ان الألم بدأ عشية اكتمل دمار بغداد وغابت عن ناظري هياتها
وارتمت اشلاؤها ورؤوس بنيتها على مفارق الطرق، كنت أركض
والدماء تنزف من النخل والنوافذ والجدران والأعمدة وأشجار التوت
والجسور ونصب الحرية، أخوض في البرك القانية ورائحة الدم تعلق
بأطرافي وثيابي وتغثيني، رائحة مستبدة قديمة قدم الحياة، رائحة تاريخ
الهلح.. أبكي، أبكي وتبكي معي النوافذ والشرفات المنهارة وأعمدة
الكهرباء الميتة والأشجار المحروقة..

بغداد تحولت من هول النيران إلى هباعات ضوء وفراشات نار، رأيتها تتناثر وتتلامع فوق الأرصفة وقمم النخل وتتبدد في هواء الحريق شبه قصاصات ورق ذهبي وتتقاذفها الريح وتطشها على الأرصفة وأنا في سقطتي بين أعمدة شارع الرشيد وحولي ترقص عصابة من قروء، اخترقت بطني ومضة نار، شرارة التمتع أمامي و نفذت داخل جندي و استقرت في أحشائي، احترق جوفي، ارتجفت وصرخت، كان جسدي قد تفتح في اللهب كثمرة رمان، الومضة تلظت وأحرقنتني، التهمت لحمي وقرضت عظامي، اقترب مني شبح شفاف، كانن مجنح رقيق، رفرف حولي وهمس: أنت أمها، احمليها في أحشائك حتى أبدأ الوجود..

المدينة حلت في أحشائي، وتناهدت الي نبضات جنين غارق في مياهي وأنا أتلوى في ألمي وموجة تخبط في خاصرتي وكتلة تندفع نحو سرتي وتمزق جدران رحمي فاتزلق في غيبوبة الوجد القاسي، لا أفيق إلا وبغداد قد قطعت أوصالها وشقت أحشاؤها ومن أشلائها صنعوا أقاليم الجنون ومن عينها جرت انهار الدم والدموع مثل ربة الغمر المالح أمنا (تيا مات) السومرية..

تكدست في رأسي صرخات البنات وشهقات الموت و نعيق الغربان وصفارات الإنذار وأصداء انفجارات صواريخ كروز وتوما هوك وهدير طائرات الأباتشي فتحولت إلى مقبرة للأصوات والأصداء، الضجيج كان أحمر ازرق أسود، كان نحاسا وصهيرا ومياها فوارة تدوم في مجمعتي، أحاول إسكات الدوي والهدير أصرخ وأصم أذني بيدي، أضرب رأسي بالجدران أو أغطس رأسي في جدول ماء، أضع قطعاً من القطن في أذني، وأدفن رأسي في الدخان، إنما كان الهدير يتعالى والضجيج يتعاظم في رأسي ويهشم عظامي..

ست فريدة ومس بيل في شارع الرشيد

أمر أمام دار سينما مهجورة في شارع الرشيد كان يتخذها المثليون مأوى لهم، سينما الزوراء أو هي سينما الشعب كما صارت تسمى ثم تحولت من صالة لبيع الأحلام إلى دكاكين لبيع الأخشاب في أواخر التسعينيات، القنابل تتساقط على مبنى الإتصالات في محلة السنك فتحترق الهوائيات وأطباق المايكرويف والرنين المتقطر من الهوائف المعطلة والبرقيات التي لن تصل، غرقت في طوفان من الكلمات بكل اللغات، اللغة كانت تختنق في الحريق، كلمات الهلع تضرب كطبول في فضاء بغداد الفولاذي..

مسلحون ياتسون حفاة بملابس عسكرية ممزقة يصوبون نيرانهم الهزيلة نحو الطائرات فتصيب المآذن والقباب وأبراج الكنائس المهجورة والأديرة الحزينة وأسطح العمارات العتيقة وأشجار الصفصاف التي تترنج على ضفة دجلة تحت مبنى السفارة البريطانية في جهة الكرخ المقابلة، تتراءى لي (مس جرتود بيل) صتعة الملوك، تلك البريطانية التي حكمت الشرق من وراء غلالة الشغف والطموح الإمبراطوري والصلف، وصنعت دولة في بغداد على اتقاض حكم بني عثمان، أرى فرسها تسير خبيبا تحت فارسها النحيلة ونظرتها المتعجرفة، عقد المس بيل اللؤلؤي يعكس وهج النار، وغلالة التول تنسدل من أطراف قبعتها على وجهها النحيل مغلق القسمات، فوق جواد أشهب كلن يرافقها صديقها التاجر البغدادي الثري الحاج ناجي الذي وهبها قصرا من قصوره، كان يونس وحشتها في مدينة تقوم من ظلمات العصور ويلوذ بها وتلوذ به في أوقاتها العصبية، هذه المرأة العجيبة التي نصبت ملوكا ورؤساء

وزارات ووزراء وأهملت عشاقا ياتسين سحرتهم ففتنتها المتمنعة وعبثت بالتاريخ بحجة عضويتها للجمعية الجغرافية الملكية التي تهيء رجال المخابرات ونساءها وترسلهم إلى حيث تنهار امراطوريات عالم قديم فيفككتون بقلباها ويلصقونها بصمغ المعاهدات ويدجنونها بالانتداب، ويتقاسمون كنوزها وهم يقرعون الأنخاب..

اليوم هو 12 نيسان 2003، هل كان يوم خميس؟؟ لست أكيدة فقد احترقت تقاويم الزمان، كان العامة والجياح واللصوص المحترفون الذين فتحت لهم القوات الأمريكية مصاريع أبواب القصور الرناسية، قد دمروا كل شيء لم يتمكنوا من حملها، تضافر جشع تجار المآثورات مع شهوات المحرومين الذي عاشوا عقودا بين مياه المجاري وأكواخ الطين فهبوا يحملون كل ما تقع عليه أيديهم مدفوعين بتاريح موغل في الحرمان، لم يميزوا بعدها بين قصر حاكم ومكتبة ومتحف، في الليلة السابقة، تراعت لي المس بيل وهي على فرسها بين ساحة الميدان وساحة الباب المعظم، ورأت رجالا يسكبون النفط في الطوابق العليا للمكتبة الوطنية ودار الوثائق ويحرقون وثائق الدولة العثمانية والوثائق البريطانية، لم تعرف المس بيل أن واحدا من اللصوص المحترفين كان يبحث عن رسلها إلى الملك فيصل الأول حول المعاهدة البريطانية وحدود مملكة العراق، لم تعرف مس بيل ان رسلها والدها وأصدقاءها وجميع وثائق الإنتداب البريطاني لقيت المصير ذاته في ليلة حرق التاريخ..

كان اللصوص والنهابون في ذلك الصباح قد أنهوا تدمير المتحف العراقي الذي أسسته المس بيل، أشجار نخيل الواشنطنونيا العملاقة المعمرة كانت تنوح في شارع جمال عبدالناصر وهي تشهد افتتاح المتحف العريق، سرقوا التماثيل والأختام الاسطوانية والمسلات وحلي الملكات الغابرات وكسروا أواني النذور ودمرجوا رؤوس ملوك سومر وأشور فتهشمت على أرضية الرخام وتفتت هياكل إنسان الكهوف تحت أقدامهم..

ياالمفارقة: ماذا ستقولين يا مس بيل لحليفك الأميركي الذي دمر الحقب

والعصور والحضارات؟ هل كنت ستواجهين غارنر وتصفيين عجرفته ياخاتون بغداد؟؟ ماذا كنت ستفعلن وأنت ترين نهب متحفك الذي أسسته مقابل أن تستولي بريطانيا على نصف الآثار المكتشفة، ماذا ستقولين له وانت ترين مؤلفاتك في علوم اللغة والأسباب والرحلات والكشوف التاريخية قد أحرقت مع ما احترق من مكنتبات بغداد؟؟

غاب طيف المس بيل ولم تأبه لتساؤلاتي، بقيت الفرس الشهباء يتيمة تعدو من غير فارسيتها ما بين السفارة البريطانية وجسر الشهداء في شارع حيفا، كانت الخاتون كما يسميها البغداديون- مرهقة وقد عادت من سباحتها المسانية في نهر دجلة كعادتها كل يوم وفكرت بجميع الرجال الذين أحبوا وحركتهم كالدمى لخدمة التاج البريطاني، لم تحب غير المقدم دوتي وإيلي الذي بلدنا الحب وكان لسوء حظها متزوجا وخيب أملها حين رفض الارتباط بها حرصا على زوجته وأسرته، شاء الاحتفاظ بها حبيبة إلى جانب زوجته، التقاها مرارا في لندن، نزهات وسهرات ثم ذرائع لم تقنع امرأة خارقة ومتسلطة مثلها، قال المقدم دوتي: لا لجرترود التي لم تسمع غير كلمة نعم من جميع رجال عصرها، وعندما مات فتيلاً في معركة غاليبولي مع الأتراك، قالت: (لقد كانت صدمتي رهيبة وأحسست أن قلبي يتمزق..)

كانت قد أرسلت قبل يوم واحد من موتها ملاحظة إلى السير كورنواليس المندوب السامي (هل بوسعك الاعتناء بقلبي إذا حدث لي مكروه؟؟) نامت ليلة الثاني عشر من تموز 1926 وهي متوقعة من التهاب الرئتين وطلبت من خادمتها أن لا يزعجها أحد حتى الصباح وعندما أشرقت الشمس وجدت ميتة في فراشها كانت في الثامنة والخمسين حين قررت إنهاء حياتها الحافلة بما عجز عنه الرجال الفاتحون..

كتب الدكتور نللوب شهادة الوفاة (توفيت بسبب تناول كمية من الحبوب المهدنة)، إتحررت المس بيل في وحشة القلب وملل الروح من مغامراتها السياسية ويأسها من صنع الملوك والدول بينما روحها تقرضها الوحدة

وجسدها الناحل يذوب في مكابدة المرض وجذب الروح وخذلان العاشق..
فرسها الوحيدة تعدو مسرعة في بغداد غير آبهة بالنار والرصاص متجهة
إلى مقبرة الإنكليز في محلة الكرنيتينة لتقف عند قبر الخاتون مس بيل وتذرف
دموعا على الأشواك واللبلاب البري الذي يزحف على شاهدة قبرها..
فوضى ذلك اليوم جرفتني في الخبل، كنت أردي بنطلونا بلون سكري فاتح
ملطخا بالدم وسترة سوداء تمزقت لكماتها، المارة القلائل مدعورون يتسربون
حولي كالدخان ويختفون، وجموع ضاجة من الشباب تقيم إحتفالا مجنوننا
والآخرون المصدومون لدخول الأمريكان يهللون تارة ويصرخون ويتحولون
إلى طيور أو قطع من ظلام..

بحذاء أسود ممزق كنت أفقر بين الرماد والجمر وحطم المباني المنهارة،
النيران تفترس الليل و تلتهم السماوات، النجوم تتساقط في دجلة والرياح ترش
الموت في الطرقات، رأيت نساء ملفعات بالعباءات يركضن في الأزقة المظلمة
لهن لأجنحة وزعائف سمك وأصوات يمام كن يرددن مرثي نذب المدينة، واحدة
منهن صرخت وسط عمة الليل وتضرعت :

- الله يا الله لماذا نسيتنا؟؟

عاجلتها رصاصه قناص فتهاتوت كومة من رماد إذ تذكرها الموت..

.. القوات الأمريكية تقيم مهرجان النار وتحرق ذاكرة الدهور وأشجار النخل
على طريق مطار بغداد وتغير خرائط الأرض ولون السماء، وتقتلع أشجار
اليوكالبتوس وأجمات الدفلى في الطرق السريعة خشية القناصين فتعري
الشوارع من أنس الشجر وتختفي أشداء الكافور والطلع وتتشرد الحمامات
والعصافير، كنت تحت تأثير نوع من فقدان الوعي الجزئي، لعله من تأثير
سلاح استخدم في قصف بغداد أو لهول الرعب الذي كنت اعتيه في وحدتي
وأنا في السرداب مع أصوات أهلي من الموتى، أغادر السرداب وأعود إليه،
أسير على غير هدى ولا أدرك كيف أقطع المسافات إلى قلب بغداد في أول

شارع الرشيد، أعي بعض ما يدور، ولا أفقه الكثير مما يجري وتختلط أمامي الوقائع والتخيلات، أهدق بعينين مفتوحتين في محاولة استبقاء مدينتي برهة زائدة في نظرتي وهي تنهاوى وتختفي..

لم ينم أحد في تلك الليالي، لا اللصوص ولا المقاتلون اليائسون المخوعون بوهم انبعاث الإمبراطورية العربية الكبرى، ولا النساء اللاتي كن منهنكات بإعداد الخبز وتهنئة رعبهن بتوبيخ الصغار وشم النظام الذي أتى بالأمريكان وجلب المصائب وأخصى الرجال..

ربما من مزيج الرعب حاولت الهرب إلى خدر ونوم، اجتاحني نعاس وتهويمات، قاومت النوم وكنت أمشي بين الدبابات وزخات الرصاص، أبصرت امرأة تترنح في متهات المدينة المحترقة والذهب يأكل اطراف عباعتها، عيناها شاخصتان إلى السماء النخائية وفي يدها اليمنى فتوس ترتعش شعلته الشحيحة فلا تتير عمة وفي الأخرى مروحة من سعف النخل تنسم بها على وجهها المتفصد عرقا، تتمم بكلمات مبهمة وتهذي بأسماء رجال ومدن غابرة، ثم تترنم بموال جارح، اقتربت منها، تبينت انها تشبه مدرسة التاريخ في ثانوية بغداد، بل انها هي نفسها(الست فريدة) بكامل حسنها وعينها الشاسعتين العسلتين، سوى أنها بدت أنحف قليلا و علت قسماستها عمة فانضة، تلاشى سحر نيرتها التي ألهمت مراهقتنا ونحن نصغي إلى هسهسة نار الحروب تحرق أعمارنا وتفكك العالم وتسبى البنات وتترك بقع لم على كراسات الدرس، ترويهما لنا وتجعلنا نصدق تلفيقا رواة التاريخ، كم صدقتك ياست فريدة؟؟

ربما سمعتها تتاديني: انتظرت مجيئك حياة.. توقعت أن أراك هنا اليوم..
أقترب منها وأحاول انتزاع عباعتها التي طالت النار أطرافها ودخنت، أهدق في عينيها، رياه كأنها عميت، أقترب، لا تنتح عن طريقي، ترتطم بي، عمياء كانت، لم أمسك بغير رماد تبقى على أصابعي، تلاشت الست فريدة وعباعتها مع فتوسها ومروحة السعف وأغانيتها، لم يتبق منها غير الكلمات الأخيرة من الموال تتصادى في سمعي وتتردد حولي بصوتها الأسيان:

مابيدينا مابيدينا

مابيدينا..

القدر مثل النار مثل الريح.. ياخذنا ويودينا ويزلزلنا على كيفة.. مابيدينا..

مابيدينا

فارقنا القهر، رمشة عين، ليلة قدر، مادامت علينا

وبعد شهقة فرح، بعد هلهولة عرس وحدة، إنكفينا

وصرنا يافلان نتراشق بالجمر، نسكر بدمنا، مو بيدينا

وإحنا من كان الحلم أبعد، عطشنا الدهر كله، وصبرنا، وما انتهينا

وبعد ما ولت كوايبس الأمس وأصبح فجرنا بين ايدينا

ظلمة البلاد صارت..

وإبتلينا بضيم ما مر على الدنيا قبلنا ولا علينا

وقبل ما نبدي انتهينا، ما بيدينا..

كم من الوقت بقيت تحت هيمنة هذا الموالم الفاتك؟؟ لا أدري، وأنا أطوف

في تحاء بغداد العتيقة، هانمة بين جامع الخلاص وكنيسة الأرمن الأرثوذكس

في ساحة الطيران متعثرة بالركام بين الجسور وأزقة العباسيين يطاردني أنين

الأبواب المطلسة وصرخات البنات وأتخذ حياة الست فريدة مرودة موالها:

إحنا من كان الحلم أبعد، عطشنا الدهر كله، وصبرنا وما انتهينا

مابيدينا

وقبل ماتبدي انتهينا

مابيدينا..

وأنا في شارع الرشيد تذكرت للتو أنني عثرت على ورقة بين أوراق عمي قيदार تشير إلى مكان كان يلوذ به فيما مضى هو (البيت العراقي) الذي تملكه السيدة أمل ابنة الحاج ياسين الخضيرى وتدار فيه الندوات الثقافية وغالبا حول تاريخ بغداد وعمارته ومآثراتها وموسيقاها وأغاني أهلها وطرز ثيابهم وعاداتهم، كان لعمي معتكف في الطابق الثاني، غرفة تطل على دجلة وتمر أمام شرفتها قوارب الصيادين ويخوت المنتزهين وقوارب العشاق ودوريات الشرطة النهرية وكان يواصل العمل في كتابه عن بغداد، من تلك الإطلالة على نهر دجلة وشجره ونوارسه وحفيف أمواجه، ويكتب قصة عشقه لفتنة الضائعة، ثم أستطع الدخول إلى البيت الذي يقع تحت العمارة الثالثة قبل الأخيرة عند مقتربات جسر الجمهورية نهاية شارع الرشيد واتصاله بشارع (أبو نواس)..

كان نهابون يحملون سجادا وملابس تاريخية وأواني نحاس مطعمة بالمينا ولوحات خطت عليها آيات قرآنية بماء الذهب، وتحفا منحوتة ومنمنمات هندية، بعضهم كان يحمل أخشابا فككوها من شناسيل البيت القديم وسلالمه، أحدهم ينوء تحت ثقل نافورة من رخام كانت تحتل الحوش الواسع بين شجر الرمان و شجيرات الفل والجوري ونباتات البنفسج الزاحفة والجيرانيوم، كانوا يتنازعون صندوقا هنديا عتيقا مزينا بمسامير معدنية وحين رأوني تصوروا أنني من ملاك البيت أو أنني سأتنازعهم الغنائم، وجه أحدهم فوهة مسدسه نحوي: قفي وإلا أطلقت

عليك النار، تراجعت خطوات وكمنت وراء أعمدة الرواق ثم عدت باتجاه جسر السنك..

رجال مصعقون يولولون أو يجذفون ثم يتلاشون في سحب الدخان، جماعات ضاجة من شبان الضواحي والصبيان يرتدون ثياب التدريب والبيجامات والدشاديش توافدوا على قلب المدينة المباح برقصون ويغنون ويلوحون بقمصانهم وهم يحملون مشاعل من سعف نخل وخرق ثم يشرعون بتحطيم زجاج معهد الدراسات الموسيقية ويقتحمونه ويتخاطفون محتوياته، حطموا آلات الكمان الثمينة وآلات العود من صنع العواد البغدادي الشهير محمد فاضل الذي اقتنى منه أشهر الفنانين آلات عود ثمينة وعزف فريد الأطرش موسيقى الربيع على عود من صنعه، بعض الأعواد صنعها ابنه فائق ومنه اقتنت جامعة أوكسفورد عودا ليضاف إلى متحف الآلات الشرقية، مزق النهابون كراسات النوتات وأحرقوها، رموا تسجيلات المقام العراقي في دجلة وسرقوا الأشرطة الجديدة، ضربوا الطبول ونفخوا بالأبواق، حملوا الدفوف الصغيرة ورقصوا، وأحرقوا ماتبقى بمشاعلهم، جماعة ثانية هجمت على متحف الرسامين الرواد، انهمك بعضهم بتمزيق لوحات النساء العاريات وانشغل آخرون بتحطيم التماثيل والخزف وحمل الباقون مارق لهم من لوحات الرسامين الرواد إلى سيارة أجرة ومضوا بعيدا..

بعض الهاربين بشياهم العسكرية الممزقة يلوذون بالظلال ويرمون ملابسهم في النيران المتصاعدة من جوف أحد المباني، أو يلطخونها بالطين والوحل ويتخلصون منها كأنها الفضيحة، رأيتهم عراة عراة، حطم جندي الباب الحديدي المنزلق لمحل ملابس رجالية ببندقيته وأخذ يرمي القمصان والسراويل والبيجامات على صحبه العراة الذين هرعوا إلى الأزقة المهجورة بحثا عن خلاص..

تبول أحدهم على وسام النصر الذي منحه إياه القائد العام للقوات
المسنحة وألقاه في النار مع ثيابه المدماة، وأطلق ضحكة هيسيرية
ولطم جبينه بالجدار مرات حتى نفر الدم من بين عينيه..

-أخي امشي، البلد مو مال أبونا..

قال له أحد الجنود - إذا راح مستبد واحد راح يظهر ألف مستبد،
البلد راح راح، من خمسين سنة راح وما تقوم له قائمة، خل نشوف وين
تصل الأمور..

كان رجل آخر يصرخ بهم بصوت وحشي:

هذا بلدكم يا ناس، إذا انتهى، أنتم وأولادكم وأولاد أولادكم تضيعون
ما إلكم بلد ولا خلاص.. راح الظالم وسلمنا للوحوش..

-اسكت ماكو فائدة، لو تبكي وتصرخ ألف سنة ما يتغير شيء،
أمريكا وصلت ولن تغادر إلى أبد الأبدين..

صاح رجل بشاربين كثيرين وجسد ممتليء:

-لا تغلظ، أمريكا لن تبقى، الرئيس يخطط لهجوم كاسح وراح
تشوفون، انتظروا الليلة، راح يخليهم كعصف مأكول، والله يخليهم ما
يعرفون ليلهم من نهارهم ويردهم على أعقابهم خاسنين، عنده سلاح
سري يفنيهم عن آخرهم..

لو صح كلامك كان قاتل حتى الموت وجها لوجه، أو استعمل
سلاحه السري وأوقف كل شيء.. كافي مزایدات علينا وخداع لأنفسكم
روحوا انتحروا أشرف لكم..

تفرق الجمع بسرعة بعد أن سمعوا هدير دبابة أمريكية تقترب من
جسر السنك وتمر من الشارع الجانبي المؤدي إلى شارع الجمهورية
وتطلق نيرانها باتجاه المباني على نحو عشوائي..

كان المرتزقة المرافقون للدبابات يشيرون للصمص والفتيان أن
يفتحوا المكتبات والمحلات الكبرى التي تبيع أنواع البذور: بذور القمح
والخضار والبقول والزهور، بدأوا يدحرجون أوعية الصفيح الأسطوانية

المختومة ويقوم بعضهم بفتحها ونثر البذور في النار التي أشعلوها قبل قليل في اكداس الكتب على الرصيف حتى أفرغوا جميع المحلات من خزين البذور..

كنت أسمع انفجارات الصواريخ وكأنها تتشظى في أحشائي فأصرخ من هول الألم، أيقنت ساعتها أنني ميتة لا محالة في هذا الرعب الماحق، لكن الموت كان منهماكما بسواي ومنشغلا بالآلاف من الجنود الذين يفرون من المعسكرات ويلوذون بالبيوت المهجورة والمباني المنهارة قبل أن يجدوا سبلا للفرار من جحيم بغداد..

نسيني الموت مع الانفجارات التي تتصادى في أعماقي وتطشني على الجدران وأبواب المحلات الحديدية الموصدة وتثثرنى على الإسفلت أو تذيبني في الدم الذي أغرق كل شيء..

في تلك اللحظة تدافعت نحوي الروائح البكر لمدينتي: روائح غضة من آس وماء ورد وقرنفل، وروائح ننتنة من عرق وبيرة ورماد ودم طازج، روائح توابل السمك والدجاج المقلي والمخللات الشهية والفول والفلفل التي كانت فيما مضى تهب من تلك الزوايا الصغيرة بين المحلات التجارية العتيقة في شارع الرشيد حيث كان يقيم العمال المصريون ويعملون في محلة المربعة..

روائح ثقيلة من احتراق النفط الأسود في الخنادق الرطبة التي حفرت حول بغداد بأمر غبي من قادة الكارثة لتضلل رادار الطائرات المهاجمة حسب ظنهم، تساقط المنات مختنقين بدخان النفط الأسود وعجز الآلاف غيرهم عن الوصول للمستشفيات..

كنت ظامنة ولا من جرعة ماء ووجلة ورائي يفور بالجمر والجثث والأوسمة وأوشحة النصر والمنتحرين، ثلاثة جنود مذعورين كانوا يطلقون صرخات جنون من هول ما يرون اعلتوا سياج جسر السنك وألقوا بانفسهم في

دجلة وهم يرددون: الموت أشرف من ها العار..ضابط مثقل بالنجوم والأوسمة يقود سيارة عسكرية ويمضي مسرعا باتجاه شارع الجمهورية عبر مقتربات الجسر ومعه امرأة وشابان وطفلة وبضعة حقيب، أصابت إطلاقه أحد المسلحين خزان وقود سيارته فتفجرت واحترقت بمن فيها وفاحت رائحة شواء..

- اليك، هرب قائد آخر ابن زانية، فأجهزنا عليه..

..كم سنبقى؟ لن يطول بنا الوقت، الرجال أصحاب النجوم الذهبية يفرون إلى السماء، من أجل من نقاتل هنا كالأشباح وحيدين بلا سند ولا جيش ولم نذق ماء ولا خبزا منذ ثلاثة أيام؟؟..

لمحني أحدهم وصوب نحو ي رشاشته وأطلق النار فأخطأني وأنا أرتجف في مكمني وراء أحد أعمدة الرواق في شارع الرشيد، كانوا يطلقون النيران على كل هدف متحرك لا يميزون بين رجل وامرأة وقائد هارب وجندي مذعور، فوضى وجنون السقوط أفقدهم عقولهم فلبثوا يطلقون النار حتى نفلنا نخيرتهم، سمعت أحدهم يقول بصوت ياتس:

- إذا اقتربوا اقتلني قبل الجميع..هل تسمع؟؟

- وإذا انتهت النخيرة؟

-إخرس عليك أن تستبقي منها لهذا الأمر، لا تضيعها بلا معنى، تسمعني؟؟

- وأنا من سيفقتلني؟؟

- هم سينكفلون بمن يبقى بعدي أيها المخنث..

لم تفلح جولتي في الوصول إلى شيء عن عمي قنيدار لكنني صممت على مواصلة البحث مهما كلفني الأمر من مجازفات..

الكراسة رقم 8 مدينة الأجراس

مراراً وضعت في شوارع بغداد التي أمحت علاماتها وأنا أبحث عن بيت صديقتي هنادي عبد المسيح لأعزي بوفاة والدها، وجدتني مرات في شارع حيفا أو في حي الصالحية، ومرة في حي الكرادة، كنت أميز الأماكن من روائحها وبعض علاماتها الخفية، أهدق في الوجوه والأحرق الظلال حتى وجدتني في شارع واسع يقطعه جسر لعبور المشاة وعلى الجانب الآخر كنيسة يتدفق نحوها المصلون فالיום هو الأحد، السيدات المسنات كن يضعن مناديل رأس سوداء من الدانتيل أو التول والشابان متناقات جميلات وصبيان جوقة التراتيل بثياب بيض مزينة بلون أرجواني وذهبي يدخلون سراعاً من الباب الخشبي الكبير، وددت أن أدخل معهم لأنصت إلى التراتيل وموسيقى الأرغن وعندما هممت بصعود سلم جسر العبور وقع الانفجار ولم أعد أذكر شيئاً..

لعلني صرخت أو ناديت أحداً أو أطلقت استغاثة عندما وجدت نفسي في سرير مستشفى، يدي مربوطة بضمام دمدي، إلى جانبي عشرات الجرحى والمحتضرين يرقدون على الأسرة الملوخة بالدماء في حين رقد بعض المصابين على الأرض، ما عدت أرى شيئاً عندما هجمت جموع السلابين كقطع من الوحوش وبدأت عملية جنونية يديرها رجال مثلثون ونساء وصبيان لنهب المستشفى، ألقى النهابون بالجرحى والمحتضرين على الأرض الملوثة بالدماء وحملوا الأسرة الحديدية وتعاونوا على حمل أسطوانات الأوكسجين، ولم يكتفوا بهذا بل أخذوا المبال وعربات التضميد وقوارير الأدوية ولقائف القطن، فككروا

المراوح المعلقة فى سقوف الردهات بينما تكفل آخرون بحمل مكيفات الهواء وأجهزة أشعة اكس ونقالات الجرحى..

اهتمت نساء عصابة السلايين بانتزاع الستائر وإطارات الإعلانات والمصابيح وأنابيب الفلورسنت ومقابض الأبواب وتدافع الباقون وتزاحموا للفوز بجهاز حاسوب خالوه تلفزيونا مكتفين بحمل شاشته..

فى ذهولى رأيت مراسلين يصورون الحدث ورعب المرضى واشتباك ثلاثة أطباء شبان مع النهابين الذين أفلتوا وانطلقوا باتجاه الردهات الأخرى، فى حين بقى أربعة منهم يتفحصون ما تبقى فى الردهة التى أرقد فيها...

جذبنى أحدهم من ذراعى وألقانى على الأرض وحمل هو وصاحبه السرير، شلنى الرعب وارتعد جسدى وهو يلامس البلاط البارد..

أطلق الحراس بضع إطلاقات باتجاههم لكن شركاءهم بدأوا بإطلاق النيران من رشاشاتهم باتجاه ردهات المرضى..

لا أعلم كيف وائتنى الجراءة فركضت متحاملة على المى إلى الممر ودخلت غرفة الطبيب المناوب واختبأت تحت السرير فى حين كان النهابون قد أجهزوا على كل شيء.

كانت المصفحات الامريكية متوضعة بالقرب من المستشفى ولم تبد أى اهتمام بما يجرى بل أنها تحركت إلى منطقة أخرى عندما اشتد إطلاق النار فى المكان المستباح حسب ما كان يتردد من همس بين الأطباء المذعورين..

مات تسعة من المحتضرين الميؤوس من نجاتهم حين انشغل العدد القليل من الأطباء الناجين بإسعاف وتضميد الأطباء الثلاثة الذين أصابهم الشهابون ثم انصرفوا للاعتناء بمجموعة جديدة من جرحى الانفجار..

اغتنمت الهدوء الذى ساد بعد نحو ساعتين من الفوضى وانسلت من تحت السرير الذى أخفى جسدى الناحل وأنا أرتجف هلعاً، فى تلك اللحظة

دخل الطبيب فأبصر بي زاحفة على بلاط الغرفة وأنا اسحب اليد المصابة
التي ضمدها هو قبيل ساعات.

قال: مهلا، لا عليك، حسنا فعلت بالإختباء هنا، هل أوصلك إلى
الردهة؟

هل أستطيع مغادرة المستشفى؟

أين بيتك؟

ليس بعيدا من هنا.

قد لا تجدین سيارة أجرة والطرق غير آمنة..

سوف أذهب بإمكانى السير إلى بيتي..

المستشفى غير مسؤول عن خروجك..

كيف سأعرف الطريق إلى بيتي؟ لم يخطر لى أن الأمر يمثل هذه
الصعوبة حين خرجت ولم أعرف أين اتجه بدون العلامات والبيوت
المالوفة والأسماء والألوان فقد تفاقم إحماء الواجهات وتزعزعت
المشاهد القديمة ولم يتبق من عمود أو شجرة على الأرصفة المحروثة
المهشمة..

ناديت صبيا بدا في نحو التاسعة من عمره كان يسير مترنحا باتجاهي
وقد تلتخ قميصه بالدم..

أين نحن هل تعرف؟

لا أدري انا تانه مثلك لا أعرف أين بيتنا

ما الذي أصابك؟

من أنت؟؟

انا حياة وأنت ما اسمك؟؟

أنت معهم؟؟ أنت منهم.. لا لا، ستسلميني لهم....

حاول الصبي الهرب، أمسكت به:

تعال انا سأحميك، لا تخف يا صغيري،

مسحت دموعه بمندبلي، لبث ينشج وينظر الي في ارتياب ورعب،

-هل تقراً؟ هذه هويتي أترى صورتي؟؟

سرنا معا، إطمأن الصبي لي، أمسكت يده الصغيرة بيدي، قال أن

اسمه إبراهيم..

-أين كنت؟؟

- خطفوني قبل أيام من أمام بيتنا وخابروا أبي يريدون عشرة الآف

دولار، نحن فقراء، أبي معلم ابتدائي، ما عندنا فلوس، كلمت أبي وسمع

صوتي وبكى، حبسوني في شقة مع أولاد مخطوفين، قالوا لأبي سنقتل

ابنك عندك مهلة أسبوع إذا ما دفعت تتسلم جثة ابنك في كيس الزباله..

وكيف خرجت؟

- الإنفجار، وقعت البناية ومات اثنان من الخاطفين والباقون هربوا

وتركونا.

تعال معي سوف نجد بيتك.. أين كان بيتكم؟؟

قرب الجسر الجديد، المحطة القديمة لا لا وراء الكنيسة، عند

السوق..

اية محطة؟ وأي سوق؟؟

محطة القطار القديمة لا أدري ما إسمها، سوق سوق الملابس

انمستعملة..

تعال لنذهب معا هيا ستاتي معي حتى نعثر على بيتك..

أين نذهب؟؟

إلى أي مكان غير هذا قد يلاحقك الخاطفون..

سرت مع الصبي إلى قلب المتاهة كان الصباح قد انهمر ضوءا مكذرا

بالدخان وفكرت:

قد لا أعرث على بيتي ولا أستدل على شيء في بغداد التي غابت

علاماتها، أوقفت سيارة أجرة أوصلتنا إلى ساحة الفارس بين معرض

بغداد ومنتزه الزوراء، ومن هناك سرنا في شوارع حي المنصور لنصل إلى بيتي في حي الداودي..

حملت الصبي وداويت الجروح الطفيفة التي أصيب بها، غسلت ملابسه وأعطيته ببجامتي وبعض الطعام، لم يأكل الا القليل، كان لا يزال تحت وطأة الرعب، وعيناه تدمعان..

أجريت اتصالات عبر هاتف الثريا مع معارف وأصدقاء فتوصلنا بعد يومين إلى معرفة السبيل إلى أهله، كانوا أيقنوا من موت إبراهيم بعد أن توقفت اتصالات الخاطفين منذ ثلاث ليال..

حضرنا إلى بيتي ظهر ذلك اليوم حين أخبرتني راوية أنهم أفرجوا عن هالة من سجن أبي غريب وتريد رؤيتي وعلي أن التقيهم سرا في بيتها، أم هالة سربت معلومة أن هالة لم يفرج عنها وأن القوات الأمريكية تراجع عن قرار الإفراج، فعلت ذلك حين علمت بنواب أعمامها الذين ندبوا أحد أبنائهم لقتلها غسلًا للعار..

قبل أن يحضر أهل إبراهيم أمضيت ليلتين أروي الحكايات للولد: أخبرني أن والده المعلم كان يقرأ لهم كل ليلة قصة من كتب قديمة حتى ينام هو وأشقاؤه الثلاثة..

قال لي: ياخالتي، إحك لي حكاية ما سمعها أحد، حكايات أبي أعرفها كلها، وأعرف حكايات أمي أريد حكاية جديدة، هل عندك حكاية جديدة؟؟
- لدي جبل من الحكايات يا ولد، ألف حكاية تولد كل صباح، حكايات عجيبة يا إبراهيم، لكن لا تصدق كل ما يرويه الكبار، فلا أنا ولا أهلك ولا أي أحد يعرف أصل الحكاية وحقيقتها..

- ماهو أصل الحكاية وحقيقتها؟؟

-أنا أيضا لا أعرف، وعندما تكبر لا نتخدع وتبحث عنها عند أحد، قد تكون عندك ولا تدري هي كسطح الماء في دجلة تحركه الرياح وتشكل له أمواجا وألوانا في الضوء، فيختلف المنظر حسب موقعك منه:

فلو كنت واقفاً على الجسر سترى غير ما يراه الواقف في نافذة منزل على النهر، أو ما يراه شخص في قارب وسط الماء..

- مامعنى هذا؟؟

معناه أن لاتصدق إلا ما تحسه وتدركه أنت، الحقيقة وأصل الحكاية شيء لا يدركه أحد..
- إحك لي حكاية..

حكاياتي نوع من الخرافة عن التاريخ وأهل الخلافة والبرابرة وأهل الظرافة، خذ الحكاية وتصرف بها على هوك، صدقها أو اضحك منها أو إنسها، نحن نروي الحكايات لنستطيع تحمل الزمان وقد تعب البلد يا ولد من كثرة الحكايا، ولكن لا بد أن يسمع أحد حكاياتنا، أناس في البلاد الأخرى لا يصدقون ما جرى لنا، وعلينا أن نحاول روايتها مرارا حتى يتنبه لنا الآخرون.

- أنا أسمعك فهل أزعجك لطبي حكاية؟؟

- لا، بل أنا سعيدة بك يا ابراهيم، فلدي قصص كثيرة كانت تتجمع من أنين القصب في الأهوار والبطائح ومن هدير الريح في الوديان ومن أغاني الحب في الصيف وقطاف التمر في الخريف، وكنت أجمع الكلمات وأخفيها في صدري كأنه صندوق لا يفتح إلا بكلمة سر.

- ماهي كلمة السر؟ اعطيني كلمة سر لافتح صندوقك..

- سرىك يا ولد في بقاء البلد وسرتك نقطة اتصالك بالأبد..

هل هذه كلمة السر؟؟ وهل حكاياتك مليئة بالأسرار؟؟

- أبدا لأتھا قصص أناس نعرفهم وبلاد صرنا نجهلھا..

- قولي قصة واحدة لأنام، الله يخليك خالتي حياة..

(- كان ياما كان، في حاضر العصر والأوان، كنت يوما أحكي قصة لولد مثلك وما أن نطقت العبارة الأولى (كان ياما كان) حتى انفتح أمامي

مر طويل وجرفنتي ريح دوارة إلى قاعة لها قبة زجاج وتحت القبة كان آلاف النساء والرجال وكل يحمل كتابا وقد عم الصمت المكان، أشاروا لي بالكتب واقترّب مني رجل وهمس: لقد حكم علينا بالخرس وفي الكتب قصص وحكايا لا بد أن تروى وإلا اندثرت وماتت بموتنا هل تستطيعين تحمل المسؤولية؟؟ هل تحملين قصصنا إلى الناس خارج هذا المكان؟؟ في اللحظة التالية التف حولي خمسة أشخاص وما أن فتحو الكتب أمامي حتى فاضت الحكايات إلى رأسي وأدركني تعب ووهن وتقطعت أنفاسي وظنونا أنني ساموت عندما حملوني حكايات مصانرهم، ورأيتني أسير في بستان لأشجاره ثمر من الأسماء وعناقيد من الدموع وثمار من الآهات وأتاني صوت:

- اخرجي من هنا حتى لا تبدي القصص، خذي حكاياتنا وانترهها في العراء لعل الناس تسمع بعض ما وقع لنا..
أتعرف يا إبراهيم، حكاياتي ما هي إلا حبة حمص من جبل الحكايات التي حصلت لنا، لدينا الكثير مما لا يحكى وما لا يقال. والان اليك واحدة من الحكايات، أنصت إلي ولا تقاطعني..
- نعم، لن اقاطعك..

(كان هناك امبراطور يحكم بلادا فسيحة مبسوطه سهولها وعالية جبالها، تمتد من بحر لبحر ومن صحراء إلى جبل وفيها البسانتين والحدائق والخمانل والحقول والغلال والذهب والأموال، وفيها مدن قديمة وآثار عظيمة، وكان للإمبراطور جيش وأعوان، وحراس وفرسان وفي مدينته أبراج عظيمة بها أجراس هائلة كبيرة ترن رنينا ساحرا كلما مرت بها الريح ومن امتزاج رنين الأجراس تنطلق موسيقى جميلة تغرق المدينة بالأنغام، وكان علماء الأصوات والرياضيات في مدينة الأجراس قد صنعوا هذه الأجراس منذ عهد بعيد لتطلق موسيقى تميز مدينتهم، شكلت

الموسيقى طباع أهل المدينة فكاتوا مرحين يحبون الأعياد والرقص والغناء..

وكان أول ما قام به الامبراطور حين تسلم حكم البلاد، أن حرّم على الناس طرح الأسئلة وقال:

- سأضع إجابات لكل سؤال، فلا تتعبوا رؤوسكم بالتفكير في شيء..

وضع إجابات عديمة المعنى لكل سؤال يخطر على بال الناس وجعل الأجوبة نصوصا مقدسة نسخها الخطاطون بحروف بديعة وعلقت في كل الأحياء: في غرف الدرس وعلى مفارق الطرق والساحات والمحطات والأنفاق وكاتت تقام الإمتحانات للموظفين والطلاب ومن يعتزم الحصول على إجازة قيادة سيارة أو من يريد تقديم شكوى للشرطة، وبدأت فرق الطباليين والمنشدين تغنيها بصورة مدائح للإمبراطور، أو تقدم على المسارح أو تصنع عنها الأفلام، ثم أمر الامبراطور بتشييد مبنى كبير وسط عاصمته وكان البناء بشكل مكعب هائل يشبه ضريحا كبيرا استغرق بناؤه سنة كاملة وزينه النقاشون برفائق الذهب التي نقش عليها اسم الإمبراطور آلاف المرات، ورسموا على جوانب الضريح رموزا وعلامات سحرية، ورصعوا الأركان بالجواهر وأمروا الخطاط الشهير راسم البلداكي أن يخط بماء الذهب على باب الضريح حكمة الإمبراطور الشهيرة التي كانت تدرس في دور العلم كأول موضوع في بدء كل عام دراسي:

(السكوت مقدس والنطق مدنس، والرؤية إثم والشتم محظور والفكر كفر

والسؤال زوال والحلم خيانة)

وأمر الإمبراطور أن تدفن الأجراس التي انتزعت من قمم الأبراج في الضريح ويدفن معها ألف ألف صوت بشري، وألف ألف حلم وعندما تم له ذلك عم الصمت البلاد، وماغاد الناس يرون أحلاما وبدأت إذاعات الإمبراطورية تبث مقولاته وخطبه الطويلة، ولم يعد يسمع في بلدك غير صوته، وخرست أصوات المغنين والمغنيات، والمنادين والمؤذنين بعد أن

دفت الأجراس في ضريح الصمت وأصاب الخرس زمن الناس هاجرت
الطيور وهربت الثعالب والأبقار والذئاب والأرانب والغزلان من حدائق
الحيوان إلى البراري البعيدة، فقد أُرعبها أن تسمع طوال الليل
والنهارخطابات الإمبراطور التي محت كل الأصوات الأخرى وأُخرستها،
خلت المدينة من الحياة وتوقف الناس عن العمل وحل بهم الضجر والملل،
وذات يوم والبلاد حزينة في صمتها والناس غارقون في الأحزان وساد
البلاد الخمول وأغلقت الأسواق وسكتت الأبواق، فوجنت المدينة بامرأة
أخذت تغني في ساحتها الكبرى، قرب ضريح الصوت وعندما سمع الناس
غناءها فتحوا النوافذ ليتمتعوا بصوتها الساحر، ثم تدفق الرجال والنساء
والأطفال إلى الساحة وشرعوا يغنون معها حتى ضجت المدينة بالغناء
وعادت الطيور من البساتين القريبة وحطت على الشجر وصدحت
بأغاريدها، وتراكضت الغزلان في الطرقات المهجورة، وتعالق أنغام
الموسيقى من البيوت، وعندما علم الإمبراطور بالأمر وسمع ضجة الحياة
والغناء تعود إلى مدينته الخرساء صرخ كالمجنون:

كيف تجرؤ امرأة على عصياني؟؟ لا بد أنها مدفوعة من قبل أعدائي،
أيها الجند فرقوا الحشود واقبضوا على المجرمة التي خرقت صمت بلادي..
عندما رأت النساء والبنات رجال الامبراطور يتقدمون نحو الساحة
طوقن المغنية بأجسادهن وأخفينها عن أعين الجند فامسك الجنود بعشرات
منهن وهن يغنين:

(قامت مدينة الأجراس يا ناس البلاد يا ناس)

عندما وصلت إلى هذه النقطة من الحكاية، وجدت ابراهيم نانما..
فاطفأت النور ودرتته ونزلت إلى السرداب..

الفصل الرابع

غراب قابيل

الكراسة 9

كراسة بهيجة التميمي

رائحة الدم تثقل هواء بغداد وتعزز نتانته كل يوم، زلزلة تقلب المدينة فتتفجر ينابيع دم الضحايا وتغرق الأرض والذاكرات والسماء، كأن السماء تمطر دما، كأن الآبار تفيض دما، وفي دجلة تجتمع الجداول القانية من جهات بغداد، روانح الدم التي طغت على صيف بغداد أعادت لي ذكرى أمي الجميلة بهيجة التميمي التي كانت زهرة مجتمعتها في الستينيات والسبعينيات، تعمل في منظمة نسوية سرية وتدير قاعة للفنون وتصنع حليا من أسلاك النحاس وشذرات العقيق اليماني والفيروز الإيراني والزفير الكمبودي والزمرد الكولومبي وتبيعها في قاعتها الأنيقة لزياراتها المترفات حين لا يكون ثمة معرض تشكيلي في القاعة، أمي كانت تقول: لا رائحة تضاهي رائحة الدم في تحطيم إرادة البشر وإطلاق جنونهم، أعطتني دفترا صغيرا عندما تخرجت من الجامعة وقالت:

- أريد أن تفهمي كيف تسير الأمور في بلاد مضطربة، أستطيع أن أضع بين يديك الآن دفترتي لكن عديني أن لاتقرأيه الا بعد موتي.

قالت إن الدفتر يضم ملخصا عن واقعة اعتقالها في 1968، السنة التي كان يفترض فيها أن تتخرج من كلية الآداب، قالت لا أريد أن أربكك باحتمالات ما يحدث لنا في هذه البلاد، أو ما سيحدث حتما في القادم من سنوات الجنون..

كتبت في دفترها سردا لوقائع حدثت لها وهي طالبة في سنتها الأخيرة بكلية الآداب..

أقرأ ويخيل إلي أنني هي بهيجة التميمي، وأن ما وقع لها هو ما كابدته في سنواتي الماضية، تماهيت معها وأنا أشم رائحة الدم تحديق بي وتلوث حواسي وتعذبني..

كُتبت أُمي بهيجة التميمي:

(كلما شممت رائحة الدم، أستعيد يوم قبضوا علي متلبسة بتوزيع منشورات في منطقة الباب المعظم وأنا عائدة من كلية الآداب، كانوا ثلاثة رجال، وجهوا لكلمات أصابت وجهي بجراح وأدمت عيني ونزف أنفي وتخضب قميصي الأبيض بالدم، سحلوني على إسفلت ساحة الباب المعظم أمام مكتبة الأوقاف التي كنت أنتظر انطلاق مظاهرة طلابية قريبا، اعتقلوني قبل وصول المظاهرة والقوا بي في سيارة الشرطة، لم أشم غير رائحة الموت من الدماء النازفة، دمي الراحف كان يتدفق من أنفي ويدي وجراح وجهي وعيني اليسرى التي سدد لها أحد الرجال لكمة مروعة فأصابها بفص خاتمه العقيق، اختلط السواد بالدم وعميت لبرهة وصرخت: أعميت عيني أيها الوحش..

سدد لكمة أخرى إلى وجهي أصابت أحد أسناني فسقط في فمي وبدأت أبصق دما، تصاعد الألم من وجنتي الجريحة، شعرت بالسائل الدافئ يسيل على عنقي والرجل ذوالخاتم يردد مثل مهووس:

إخرسي، تحاولون قلب النظام؟؟ انتم؟؟ من انتم؟؟ عملاء مخنثون ونساء عاهرات !! امرأة تخرج في مظاهرة ماهي الا عاهرة..

من نحن؟ أكانوا يعدوننا من حزب يساري أو ماركسي يا للمفارقة!! نحن لم نكن من هؤلاء أو أولئك بل كان الجميع يطاردنا أو يحاولون جرننا إلى حظائرهم، وضعنا في معتقل بعد أن سارت السيارة ما يقرب من نصف ساعة من منطقة الباب المعظم ونحن معصوبي العيون.. بعد

حفل التعذيب الليلي والضرب وسكب الماء المملح على الجراح، اقترب
مني احدهم وربت على كتفي، أجفلت:

اعترفي إن أردت الحفاظ على شرفك، اعترفي وسنفرج عنك،
اعترفي أو نفعل بك ما فعلناه بناهدة و ساهرة وسهام، هل سمعت
صراخهن؟؟ لقد انتهى كل شيء حولناهن إلى عاهرات لمتعة الحرس
والجنود..

انصتي إلى صراخهن، ألا أسمعين؟
ولكن ماذا أعترف؟؟

من زودك بالمنشورات؟ من وراء التنظيم الجديد للحزب؟؟ من
مسؤولك المباشر؟؟ ما أهداف تنظيمكم؟؟ أتعرفين عدنان رشيد البابلي؟؟
وصلاح عبد الحسين؟؟ وعبد اللطيف الكردي؟؟ وادوار إيشو؟؟ و
أورهان قندججي؟؟

لا اعرف أحدا أنا لست منهم، ولا أعرف أي حزب..

كلكم تنكرون، سترين ما نفعل بك..

كنا مجموعة طلاب صغيرة نطلق على أنفسنا تندرا اسم
(الجيفاريون) نقلد ثائرننا الحالم (تشي) نرتدي القمصان العسكرية
والبيريهات السود ولا علاقة لنا بأي تنظيم، شغوفون بمثال و متمردون
على اليسار واليمين والأرض والسماء، كنا بلا بوصللة، جيفارا الوسيم
كان أيقونتنا، وكفاحه الرومانسي حلمنا، نصبناه ملهما لنا وأقسمنا أن
نترسم خطاه مثل كل الحالمين الطوباويين..

كان الماركسيون يسخرون منا، والبعثيون يلاحقوننا وينصبون
الكمانن للايقاع بنا، لم يدافع عنا حزب، ولم يدع براءتنا أحد، ولم يطأب
بالإفراج عنا لا اليساريون ولا الماركسيون ولا القوميون أو سواهم..

لا أدري كيف نجوت من اغتصابهم بعد أن فعلوا ما فعلوا بناهدة
وساهرة وسهام، محض مصادفة، لعل احدهم عرف أهلي أو كان من بني
تميم، يحدث هذا في بلادنا لو عرفوا أنني من عشيرتهم، أو كانت له إبن

أو أخت تشبهني..

بعد أسبوعين بدأت جراح وجهي تلتئم وخفّ الجرح الذي أصاب عيني اليسرى وجرح خدي الأيمن التأم وترك ندوباً، وفكرت أن الدموع كانت سبباً في التئامه، فلم أتوقف عن البكاء، فجراً سمعت عويلاً في زنزانة مجاورة: ناهدة انتحرت حين ظهرت عليها علامات الحمل، قطعت شريان رسغها بكسرة مرآة، وسهام تبكيها، همس لي حارس مسن وهو يلقي برغيف الخبز.

- وسهام؟ وساهرة؟؟

- لا أعرف..

علمت بعد عامين أن ضابطاً منهم استولى على ساهرة الجميلة وأخرجها من المعتقل وعاش معها وكان يقيم حفلات ماجنة لرفاقه في بيتها، سهام نقلت إلى سجن الكوت وأفرجوا عنها وهربت إلى الجبال.... اكتشفت أنني فقدت قدراً من قوة إبصاري بعيني اليسرى ولم تكن لدي مرآة لأعرف ما أصاب عيني حتى مغادرة المعتقل..

، جنّ أهلي أصابهم الخبل لغيابي وما كنت أعلم في أي الظلمات القوا بي، ظل أبي يجوب البلاد بحثاً عني، ما ترك سجناً ولا مركز شرطة ولا معتقلاً إلا وذهب إليه، أعرف أنه استعان بابن خالي العقيد في الجيش وقال لرئيس العشيرة:

بهيجة شرفكم كلكم، هي ليست ابنتي فقط، العشيرة كلها تحمل عارها إن حصل لها سوء أو اغتصبت، من يدري ماحدث لها الآن؟؟، تحركوا لإنقاذها..

أدري أنني حطمت قلبه أنا الأثيرة بين أبنائه، كان يعدني لأصبح أستاذة للأدب وشاعرة مرموقة تعوضه حب الشعر الذي هجره إلى دراسة القانون..

كنا حينها، نسكن في شارع (سلمان فائق) في منطقة العلوية، وكانت حمامات بيوتنا في معظمها ذات مواقد نفطية بشكل حوض يعلوه خزان كبير للماء وتوقد من خارج البيت في الحدائق الخلفية
اتخذ أبي تدابيرها وبدأ هو وأمي بحرق معظم محتويات المكتبة في موقد الحمام على مدى يومين لبثت النار متوهجة بوقود العقول التي حكم عليها بالحرق، كان يتوقع أن يدهموا بيتنا لترويح الأهل وابتزازهم...

لا أنا ولا أحد كان يعلم مكان احتجاجنا، لا أعرف كم من الزمن مر علي وأنا قابعة في عتمة الجنون، كانوا ينقلوننا من مبنى إلى آخر في سيارات مغلقة معصوبي العيون و يديرون حفلات التعذيب في زنازين صممت بشكل توابيت هزازة تحولنا إلى كائنات فاقدة الوعي أنهكها الدوار والغثيان وروائح البول والبراز، أو يلقون بنا في زنزانة حمراء وفيها صنوبر يقطر دما وأضواء حمراء تحطم الأعصاب على مدى أيام وليال، تنهار بعدها قوانا وعقولنا ونغدو مجرد موتى في لحظات احتضار..

ذات ليلة استبدلوا التابوت بغرفة سوداء تتردد فيها أصداء صرخات المعذبين بلا انقطاع، الغرفة الصفراء الرجراجة كانت أفظع غرف التعذيب، أصابتنى بالدوار والغثيان حتى تقيأت أحشائي عشرات المرات، وصوت قطرات الماء الرتيبة تفلق جمجمتي، لم أكف عن الصراخ، حين أعادوني إلى القبو الأول كنت قد تحولت الي شبح له رائحة مقبرة.

طعامنا طاسات حساء أخضر تطفو عليها حبات فاصوليا، خبز ممزوج بمسحوق رملي أو زجاجي، أصاب أفواهنا بجراح وقروح، الماء؟؟ لا ماء قيل لنا لا ماء اشربوا بولكم، لا ماء..ولكنهم كانوا يرشقوننا كل مساء بدلو ماء مثلج أو ماء مالح لتهتاج جراحن الملتهبة..

أرغموا أحد السجناء - حينما سمعناه يصرخ - على تناول برازه وأمره أن يعوي أو ينبج مثل كلب..

ذات يوم انفتح باب زنزانتى واصطحبتنى شرطية من القبو المظلم وقادتني عبر ممر طويل به ومضات ضوء وأنا أترنح من فرط هزالي وعماي، أفضى الممر إلى ممر آخر ينتهي بسلم، جاهدت لفرط انحطاط قواي من أجل صعود درجاته العشر أو الإثنتي عشرة.. انتهى السلم إلى فسحة مفروشة بالسجاد وباب خشبي واسع انفتح على غرفة فارغة مغارقة في أضواء النيون التي بهرت عيني فما عدت أبصر إلا عتمة مغيشة..

-انت بهيجة التميمي؟؟

قال رجل يجلس وراء مكتب فخم بصوت له نبرة أمرة، لم أميز شكله أول الأمر ثم بدا لي بعد زوال غشاوة انبهار البصر - رجلا أنيقا يضع رباطة عنق زرقاء ويرتدي بدلة بلون سكري وتخفي عينيه نظارة نصف مظلمة ويديه زهرة قرنفل صفراء:

أنت هي؟؟ أم أنك نسيت إسمك؟؟

أنا هي..كيف أنسى..

-ظننتك فقدت ذاكرتك، لأنك لم تعرفيني..

؟

- أهكذا تنسين معارفك؟؟

لزممت الصمت، لم أكن أعرف الرجل، ومن أين لي أن أعرفه؟؟
سنفرج عنك، لا تكونك بريئة أو أننا تراجعنا، إنما ليرى الآخرون ما حل بك، أنت رسالتنا إلى الجماعة..

-الم تجدوا سواي لهذه المهمة؟؟

- عليك أن تتعاوني معنا،

- أعيديني إلى زنزانتى.

نحن من يقرر أين تذهبين وليس أنت..

- لن أفيدكم في شيء، لا أعرف شيئا عن أي احد..
أين كنتم تجتمعون؟؟ أم تدعين فقدان الذاكرة، حتى أنك تظاهرت بعدم معرفتي..

-معدرة أنا لم أفقد ذاكرتي ولا أعرف من أنت..
-أنا أستاذك، دكتور سامي، أنسيتني بهيجة التميمي؟
-على حد علمي أن مكان أستاذي في الجامعة..
مرة أخرى أنذك لست من يحدد أمكنة ومواقع الأشخاص، لأنك لا تملكين أي حق أنت سجيننة وبلا حقوق..

- لست سجيننة أنا رهن اعتقال تعسفي، دون محاكمة..
- سنصدر عليك الحكم اليوم ليكون سجنك قانونيا يا ابنة أستاذي
الدكتور رفيق جودت التميمي، أكنت تعلمين إنني تلميذ والدك في كلية الحقوق؟؟

-ملازم ابتسام، سلموا السجيننة بهيجة الي سجن النساء..
سنضعك مع العاهرات لتمضي فترة سجنك هناك، عقوبة تليق بك
بهيجة التميمي..

وراء بوابة الردهة الاولى، كانت سجينات الجرائم الجنائية
والعاهرات والقوادات قد حشرن معا في هذه القاعة النتنة.
-أنت جديدة هنا؟ اين كنت؟؟ جريمة قتل، احتيال، دعارة؟؟ يبين
سياسة !! البنية يمكن خرسنة..

بعد أسابيع نادتني السجاننة:
-بهيجة التميمي تعالي معي..
في غرفة مدير السجن، لم أبصر الموجودين جيدا فقد بهر عيني
ضوء شمس الظهيرة الساطع في الساحة قبل دخول الغرفة نصف
المعتمة، ولكنني فوجنت بصوت أبي المتهدج:
-ابنتي.. بهيجة..

أجهش بالبكاء واقترب مني ليعانقتي حينها تبينت وجود الرجل الآخر
الجالس إلى جانب مدير السجن وهو قريب لنا من رجال الحزب الحاكم،
تراجعت خطوة إلى الوراء:

عن اي شيء تنازلتم لتطلقوا سراحي؟؟
هذا ليس وقته، ابنتي لقد تم توقيع أمر الإفراج عنك هيا ولا تضيعي
وقت السيد المدير..

سبعت صوت مدير السجن وهو يقول للرجل الآخر:
وكان السجن لم يؤديها، مارأيت سجينه بوقاحتها، احمدي ربك أنك
ثم تكلمي مدة الحكم كجماعتك.)

الكراسة 9

- مهند البابلي: موت عاشق

ما الذي يمنح الروح قدرتها على مجادلة الألم؟ أهو الحب؟ أم جرثومة الحياة العنيدة؟؟ أم هي الأحلام التي نستولدها من شحنات الأمل والحب؟ أم اتشغالي بالبحث عن عمي قي دار؟؟ ما الذي يدفعني للمضي قدما؟؟ العثور على بغداد أخرى؟؟ أم هي رحلتي نحو نفسي التي تجول بلا منطق ولا حذر في الأعماق؟؟

ألم الجرح يجعلني أرتجف وأكظم البكاء، وأرى شلالات من الضوء تتدفق في داخلي، الألم يتحول حين يكبح إلى مصدر للاستتارة، لا أحب ألمي ولكنني أتقبله وأدجنه وأحدد درجته فلا يغلبني ولا أبدي السخط عليه، أعتبره جزء من طريق الوصول وسوف أغادره ويغادرنني، وعلي أن أبدي اصطبارا وحكمة في تعاملي معه كما افعل مع الرجل الذي يحبني..

أخادع نفسي أحيانا وأقول أنا قوية، بينما يقطعق داخلي ويتهشم كزجاج نوافذنا كل ليلة، أضحك من قدرتي على تمثيل دور المرأة الشجاعة الذي أؤديه أمام الآخرين، أضحك من رضوخي لفكرة البسالة المقترضة التي يطالبنا بها الناس، لماذا لا أبدي هشاشتي الإنسانية؟؟ كم تمنيت أن أكون قوية إلى درجة إعلان ضعفي وهشاشتي..

أتأمل صورة أخي مهند، الصورة معلقة فوق نضد الكتب وتحتها مصباح منضدي ومنبه، غبار كثيف علق بزجاج الصورة وغشاها، أتأمل نظرتة الساهمة والتعبير الساخر على جانبي فمه، هل كان يحدس مصيره؟؟ وهل كنا على علم بمصائرنا؟؟ وأن كوننا من هذه البلاد يقودنا نحو المهالك؟؟

كان يضحك مني وأنا أبدي خوفاً عليه وعلى أمي وأخي ماجد وهاتي،
وأمي تخفتي وراء أسماننا وترعى أحلامنا، تستعيد كل ما فعلته للأبناء،
تذكر أجسادنا الصغيرة ولحمنا اللدن ورائحة الحليب تفوح من حلمتيها،
تدغدغ أكفنا الناعمة وتقص شعرنا وأظفارنا، تذكر تحالفها معنا ونحن
نشاكس الأب والآخرين وندعي البراءة، أبرياء كنا في حساباتها، كنا أطفالاً
نحيلين ولكن بلا سقم، تقول أنتم ضعاف لابد أن تأكلوا، تعد لنا الدعم من
حنانها وطعامها، تحضر أطباقاً دسمة من كل صنف نقلني لنا شرائح الدجاج
والبورك والكفتة، حين نعود من المدرسة ننفر من كل طبخ ونشتري
البسكويت والمثلجات والعلكة من الدكان القريب ونهرب إلى الحديقة، نلعب
ونتساجر ونعود منتحبين بجباه دمماة وسيقان مجروحة، نتذكر كل هذا
وهي تعانق أحدها وتتشمم عنقه: يا الله كم تمر السنوات؟؟ كم كبرت يا
حياة؟؟ البنات ينضجن بسرعة كثمار الصيف، تبدين كأخت لي..

بعد رحيل أبي داهمها مرض لم ينجح في تشخيصه طبيب، اختفى صوتها
وتحشرج، استسلمت للذهول، أكنت تجرب محو ذاكرتها؟؟ ماذا أفعل
لأعينها على النسيان؟؟ تحديق بوجهي ولا تنطق، تمسح دموعاً تفر من
عينها وتشيح بوجهها عني، ماذا أفعل لأخفف عنها؟؟ أطمعها لقيمات
صغيرة، ترفض ابتلاعها، آلامها تقلص ملامحها، تكز على أسناتها، تصرخ
ثم تهمد، تلزم الصمت وعيناها ترنوان إلى الطريق من نافذة غرفتها كأنها
تتوقع عودة أحد الراحلين..

ذات صباح نادتنني:

- حياة خذيني إلى البساتين، هذه الأيام موسم قطاف التمر، أريد أن أرى
ذلك مرة أخيرة قبل موتي..

استأجرنا سيارة، فضلت أن لا أقود سيارتي في الطريق إلى البساتين
على نهر دجلة، أعلمت أقارب والدتي بقدمنا، كان الوقت ضحى حين

وصلنا، استقبلونا لدى بوابة البستان الكبيرة، هرعت البنات نحونا وهن يتضحكن، قالت أُمي:

- خذوني إلى الكوخ على الشط.

وضعوا لها بساطا ملونا على أريكة من سعف النخل وجلست في الفسحة المشمسة بين النهر والبستان، قدمت لها البنات طبقا كبيرا فيه عشرة أصناف من التمر، قالت لهن: خذوا كل هذه التمور أنا لاحب سوى تمر الخضراوي..

قالت لها واحدة منهن: خالتي هذا خضراوي..

- بنتي تعلميني عالتمر؟ هذا تمر مكتوم، وهذا أصابع العروس هذا

تبرزل وهذا خستاي.. وروحا هاتوا لي تمر خضراوي..

ركضت البنات الأجيرات ممن يعملن موسميا في موسم القطاف وهن يحملن عذوق التمر ويلقن بها فوق بيدر العذوق الذهبية وكدس من العناقيد المحملة بالرطب، وكلما رمين مزيدا منها فاحت رائحة التمر وعذوبة الحلاوة المفرطة وسال دبس أصفر صاف على حواف الحصير الذي كدسوا التمور فوقه..

كان قاطفو التمر يغنون وهم في أعالي النخل ويلقون بالعذوق في سلال من الخوص يتلقفها عمال آخرون ويحملونها إلى الأكداس التي تحولت إلى تلال من ذهب تلتمع عبر ممرات البستان تحت أشجار البرتقال والليمون..

سمعنا غناء من طرف البستان، كانت أُمي تنصت والدموع تسح على

وجنتيها، قالت لي:

- حياة أتسمعين؟؟ هذا داود المغني، صوته حلو، لكنه كبر الآن، كان

أحسن صاعود نخل عندنا يغني مقامات وأبوذيات، هرب من زوجته وأولاده والتحق بالعجر، وبعد سنوات عاد إلى بيته..

ونحن في الكوخ سمعنا ضجة قادمة من جهة العمال الذين يجمعون تلال

التمر ويعبنون العناقيد في أقفاص ووسائل، صاح أحدهم:

- بدأت تمطر، أسرعوا، غطوا التمور بالحصر وأغطية البلاستيك قبل ان يتحول تمرنا خلا وخمرا..

قالت أمي: ولماذا تخافون عليه؟ اصنعوا الدبس، هل توقفتن عن صنع الدبس في بيوتكن؟؟

قالت لها إحدى النساء:

- بطلوا يصنعون التمر ويصنعون الدبس في البيوت..

قالت أمي: وما لذة موسم القطف بلا سهرات صنع الدبس وغلي التمر بقدر النحاس الكبيرة؟؟ راحت تلك الأيام، كنا نأتي للقرية فقط لنتفرج على صنع الدبس، يسهر الناس جميعا بخاصة البنات عشرات من البنات يعنين ويرقصن حتى الفجر في موسم صنع الدبس وأيام تقطير ماء الورد وكانت قصص الحب تبدأ في ليالي صنع الدبس خريف كل عام وعندما تتم خطبة العرائس يقيمون حفلات الزفاف في موسم قطف البرتقال منتصف الشتاء، يتدفأون بالحب، ماكانوا بحاجة لمداقيء، قد يشعلون حطباً في المواقد أو فحماً في المناقل لكنهم غالباً يكتفون بحرارة الحب، كم رغبت أن أشم عبير التمر الناضج ورائحة نبات السوس والحماض وقت قطف التمر لأتذكر قصص حب شهدتها في صباي هنا في البستان..

مدوا أماناً سماطاً عليه صحون رز ودجاج مقلي وأرغفة خبز ساخن وأقداح مبردة بلبن مخفف، لم تتذوق أمي شينا كانت تعص بذكريات صباها..

- حياة، لنرحل، تعبت..

وضعوا لنا في السيارة عناقيد تمر وزجاجات ماء ورد ودبس الرمان ولبئت أمي صامتة طوال الطريق إلى بغداد..

غادرتنا بعد موت أبي بعام واحد، أبي هشمته فاجعة إعدام ماجد سليله الذي يزهبه، كان يقول:

- ماجد يختلف عنكم جميعا، هو الشجاع الذي يجرؤ على ما لا نتوقع من مواقف..

بعد إعدامه زارنا ضابط من الجيش المهزوم وطلبنا بثمن الرصاصات التي قتلوا بها ماجد، تعرض أبي لمساءلات، أذلوه في الاستجواب: أنت والد الخائن، ربيت خاننا، المواطنة حرام عليكم، إنك كان جاسوسا، إنك، إنك، إنك، قال لهم:

ماذا بعد إعدامه؟، ماذا تريدون منا؟؟ ماذا تبقى لكم لتصادروه؟؟
اعتقلوه وهو في الخامسة و الستين، لم يحاكم، وما سمحوا لنا بزيارته، وعندما انهارت صحته اطلقوا سراحه، عاد محطما، اختفى الأستاذ الأنيق اليساري البورجوازي كما أسماه زميلي، تلاشى عدنان رشيد البابلي (التميمي)، نام ليلتها وفي الصباح وجدناه ميتا..

أتأمل صورة مهند، وجهه مضاع بألق العشق، يرتدي سترة جلدية سوداء اشتراها من محلات الجلود الأنيقة في حي الكرادة، كان يربط شعره الطويل بشریط أسود يثير به حفيظة والذي أو يضع بيديه أسود تزيينه نجمة ويدخن سيجارا، ويهمس لامي:

- ألا أشبه محبوبك جيفارا ست بهيجة؟؟
- لا أحد يشبه جيفارا.. أنت وسيم لكنك لست مثله، ذلك الرجل لا يشبهه أحد..

- لازلت تعشقين رجلا من خيال؟ ألا تثيرين غيرة أبي ست بهيجة؟؟
- أبوك يحبه أيضا، جيفارا هو الذي جمع بيننا..
- كيف؟ هل خطبك لوالدي قولي؟ هل أتى من بوليفيا أو كوبا لبغداد وحضر زفافك؟؟

- ألا تكف عن السخرية مهند؟؟
- أمي والله لا أسخر، لكن جيفارا راح، انتهت أسطوره ونسيه الناس..

- نم ينسوه، أنت لا تعرف شيئا كفى لا تتحدث عما لا تعرف، جيلكم لم يعرف سوى حروب يائسة..

- وهل هناك حروب تمنح الأمل؟

- أمي، جيلنا لا يعنيه من هو جيفارا أو لينين أو صلاح الدين ببساطة نحن لا ننظر إلى الوراء، نحيا حاضرا فقط ونخطط للغد، والله يا ست بهيجة يا أمي، الشباب يرتدون ثيابا عليها رموز الأمس، لأنها شيء دارج يعني على المودة فقط وليس لأنهم يتذكرون جيفارا..

- آه من زمنكم العجيب، جيل لا يملك أسسا يستند إليها،

- وآه منكم يا بقايا الحالمين باليوتوبيات الإشتراكية الخرافية، نحن

نستند إلى حقائق ومعطيات، نلتمسها في الحاضر وتأخذنا إلى الغد..

- في الأقل كان لدينا حلم أما انتم..

- أمي هذه عبارة مارتن لوثر كنج، لدي حلم، ولكن حلمه قتلته كما

تعلمين، حقا أمي نحن جيل بلا أحلام، وذلك أفضل لنا، لا نريد المزيد من الإحباط حين تنكسر أحلامنا كما حصل لكم.

- الأحلام لا تموت، تبقى حية في أعماقنا وبها نواصل الحياة وكل حلم

يتطلب تضحيات..

- تتوهمون، التجربة انهارت، وبقيتم تتشبثون بوهمكم عنها وتعلمون

جيذا أن ملايين الضحايا لم تنفع في شيء.. نريد أن نعيش حياتنا ولا نبدها في النضال كجيلكم المخدوع..

فور تخرجه من كلية اللغات استدعوه لخدمة الإحتياط وأرسلوا وحدته

إلى الشمال حيث تدور المعارك الشرسة في، ترك حبيبته هالة ابنة خالتي

في خيل الغرام ومضى مع القطيع المعد للذبح، أمي قالت له:

عند تسريحك بعد شهور نقيم حفل الخطوبة ساهيء كل شيء، لا

تحمل هم التكاليف..

هالة قالت: لن انتظر حتى يعود، دعينا خالتي نقيم حفل الخطوبة قبل التحاقه..

أمها خالتي سامية رفضت الأمر من أساسه: لن تتزوجي قبل ان نثار لأخيك حيدر، سأبقى في حداد حتى ننتقم له..

- أمي حيدر استشهد في النجف، قتل ومعه المنات أيام المواجهات بعد هزيمة الجيش في الكويت، ممن نثار؟؟

تعرفين من أعني.. القتلة.

- وماذا علينا أن نفعل؟؟

- الإنتقام..

أنا؟؟ أم أنت؟؟ كيف أمي؟؟ كيف نواجههم كيف أمي؟؟ هل أقوم

بانقلاب؟؟

-لا أحد يثار له سوانا ولن تتزوجي مهند، قبل أن يهنا فوادي بالثار..

- قبل أن أقتل أنا الأخرى، أمي هذا جنون، جنون..

لم يعد مهند، كان سيسرح بعد خمسة عشر يوما ويسافر مع هالة تهريبا عبر جبال كردستان وراء مدينة زاخو إلى تركيا، أبلقتي عزمه على الفرار من جحيم العراق وثار خالتنا..

زياد الذي أتى لنا بجثمان مهند - حضر عزاءه وحدثني عما دار بينهما قبل مصرعه بلبلة كان يقول لزياد:

لا أريد أن أموت في هذه الحرب القذرة، لو شنت الموت فسوف أموت بطريقتي..

بم تريد أن تموت؟ -

ربما بالحب، أموت عشقا..

يقول زياد تلك الليلة كنا منهكين تماما ويانسين، فمئذ شهور لم نتمتع بإجازات ولم يبد أنهم سيسرحوننا من الجيش، المعارك مستمرة والأرض

المحروقة تتسع و منات القرى الكردية تحولت إلى رماد وهرب بعض أهلها ومات الذين عجزوا عن الفرار..

أمرونا أن نستعد لهجوم كاسح ووضعونا في الإذار(ج)، كان ثلاثة من جنودنا وضابطا قد قتلوا بحراب البنادق في كمين قريب وهم من الوحدة التي تولت حرق القرى وقام أفرادها بجمع النساء والبنات الصغيرات من القرى التي أحرقت ليلا ووضعوهن في كرفانات داخل المعسكر ثم اغتصبوهن وقتلوهن، كيف عرفنا؟؟ تقولين كيف عرفتم؟؟

وجدنا ملابس البنات الداخلية الممزقة مدماة ومنتشرة في الكرفان، نحو أربعين قطعة لأربعين امرأة، والجثث ملقاة على السفح، لم يجرو أحد على دفنها، بل لم يكن هناك أحد ليقوم بالدفن، هرب الرجال والشباب إلى ما وراء الجبال، قال مهند ونحن أمام المشهد المريع لملابس البنات: أي وطن وحش وحقير هذا الذي يغتصب جيشه مواطناته؟؟

قلت له: ليس لهذا علاقة بالوطن، هؤلاء جنود توحشوا في عزلة الحرب..

أي وطن؟؟ كيف تفهم الوطن زياد؟؟ لا يشرفني وطن العار هذا، الوطن يريدني جثة ويمنحني وسام الخزي، هراء، ألا ترى ما فعلوا باسم وطنك هذا؟ أيعقل هذا؟؟ سأخذ هالة من كل هذا الموت ونهرب..

قال زياد أنه أمضى ليلته الأخيرة ينتحب قبل أن تمطرنا القذائف ورشاشات المقاتلين الأكراد بنيرانها..

كنا ننزلون ليلا من الجبال ويهاجمون معسكراتنا وكنا نهجم خلال النهار، انا نجوت بمعجزة كنت ذاهبا للتبول وراء الأشجار حين سقطت القذائف على الموضع..

عاد مهند من الجبل في نعش مدمى ملفوفا بعلم ممزق..
انهارت هالة، صحبناها إلى طبيب نفسي، أمها خالتي قالت: فضحتونا، ماذا ستقول الناس عنا؟؟ ابنتهم جنت من العشق؟؟ فضحتونا، ذهبنا إلى

شارع النضال قرب بارك السعدون المهجور، ووجدنا بناية مستشفى ابن رشد للنقامة النفسية، قرر الطبيب إدخالها المستشفى، خالتي ضربت رأسها وانتحبت:

- خسرتهم كلهم، حيدر أخوها راح، قتله القاتل الذي سلطه الله علينا، مهند راح، هالة انتت، يا رب رحمتك يا رب، لا لا، لن أبقيا مع المجانين، لا.. لن تبقى ابنتي هنا..

انصاع الطبيب لرغبة خالتي وكتب وصفة الأدوية وأعدناها إلى البيت..
..لزمت هالة الصمت ولبثت تحديق في الفراغ، ذوى جمالها حتى شف جسمها كطيف أو شبح، كانت ترص علب البسكويت على النضد الصغير قرب سريرها وتطمع القبط الصغيرة التي ولدتها أمهاتها في الحديقة ثم تنيمها في فراشها وتدلها..

مأخوذة وبطيئة ودون استجابات سريعة كنا نقود خطاها مستغرقة في الصمت ومستسلمة لذهولها تتحرك كدمية، مع القبط تستفيق من ذهولها وتغني لمهند أو تحاوره، بعد شهور من اليأس استعادت نفسها وتوازنت، لم اتخل عنها، كنت أرافقها في زيارتها للطبيب وأخرج معها في نزهاة، نذهب إلى مطعم الحمراء في المنصور ونتناول التشيس كيك والمثلجات، أو تجلس في كافيه صغيرة في غاليري الأورفلي مقابل نادي الفروسية أو نتسوق من محلات الملابس ومهند بيننا نتحدث عنه كأنه يشاركنا النزهة أو يستمع معنا إلى الأغاني أو يطلب فنجان قهوة ويطلق ضحكته الرنانة في الطرقات..

1

يجلس وحيدا، يقرأ في كتاب فارغ، يبكي في غرفة خالية، يأكل من طبق خاو..

. كل ما بقي وهم وهم

،هذا ماكان يردده أمامي، هل تصور أخي هاني يوما أن الموت يهادننا؟؟ ينسانا؟ يوجلنا؟؟ هل خيل إليه ان بوسعنا التحكم في المصائر؟؟ لا أدري كيف كان يفكر، كل ما أعرفه ان فقدان شقيقينا مهند وماجد دفعه ليختار طريقة للعيش لا يقرها أحد ويعتق أسلوبا غريبا للرد على الحروب، لم يضع هاني في اعتباره أن الموت صار واحدا منا، شقيقنا الزائر وظلنا الذي يلازمنا، يتفقدنا ويحنو على أوجاعنا لينقذنا من مكابدات العيش في بغداد، شبحة يختبيء وراء الباب، يغافلنا، يقف في الزوايا، يضحك من تدابيرنا، هل هزمننا؟؟

المعركة غير متكافئة، غير أن الحب لا يهزم، زينة حبيبته وزوجته لعام واحد لم تغادره إلا جسدا استهلكه النزف وحمى النفاس بعد ولادة سرمد ونحن تحت القصف في 1991، هنا يفوح عطرها ورائحة جسدها هنا خصلات شعرها الطويل الذي قصته هيلين قبل الولادة، هنا أدوات زينتها، هذا قلم الحمرة الذي لامس شفيتها في المستشفى قبل المخاض، ملابسها الداخلية وقمصان نومها التي يتشممها كلما نام منذ تسعة عشر عاما ويعانق قميصها الحريري ويتشوق عبير جلدها فيه، هي موصولة بدمه وأنفاسه، ولن تموت إلا بموته، لثغتها تتعثر على لسانه، صار

مثلها يلثغ بحرف الراء، نهذاها يترافقان في يده كل ليلة وهو يمك
بحمالات صدرها، ذراعها يلفه في عناق الفجر، قال لي وعينه
محتقتان:

- لانتزوي حتى لا تكرري مصيبي..

- أختك عاشت حيوات عدة، لا تخش عليها

- آه من جنون أختي..

هاني أنا عشت حياتي وحية زبيدة التميمية، لا تسخر مني أنا أو من
بالحلول، وان كنت ترتاب اقرأ حوادث بغداد في جريدة (جورنال
عراق)..

غادر المقبرة ومضى إلى البيت وهو يردد: هل تخليت عن زينة ايها
الوغد؟ هل جعلتها تحمل بابك لتقتلها؟؟ أنت بهذا قاتل حقا، أنت قاتل،
قاتل لا تختلف عن قتل أهلك..

يستعيدها من الموت كل ليلة، يستدرج ضحكها وحنانها ودفنها،
يفرش المفارش التي تحب، ويرش عطرها في السرير ويعانقها، وجهها
وجه العاشقة شاحب وخريفي، يلوح في الصورة الكبيرة التي شقنها
قبالة السرير، كانت أشد شحوبا وحرنا، صار يناجيه ويستشيرها
ويخاصمها ويلطفها ويشتهيها وينهرها أحيانا ويبكي بين نظرتها
والتماعه زجاج الصورة ويحدثها عن ابنهما المخبوء في غرفة سرية
كقديس مغيب..

لم يعترف بموتها، قال لي:

- الأطباء الذين تصوروا أن موت الجسد هو الموت لا يعرفون ما

أعرف، لن أصدق رغم أنني طبيب أسنان إلا أنني أقرب إلى الروحانيات

مني إلى رجل البراهين العلمية..

الموت غير هذا، فليسألوني، الموت ليس غياب الجسد، أبدا

..زينة لم تمت..

عندما أدخلناها مستشفى الهلال الأحمر للولادة في حي المنصور، كان مخاضها متعسرا قال الطبيب:
- ضغط دمها انخفض جدا والنزف لم يتوقف، الجنين في خطر
صرخ هاتي كمجنون:
- انقذوها هي، لا أريد سواها، لا أريد غير زينة، لا أريد أبناء أريدها
هي..

2

ورثت زينة الجمال الأشقر من عائلتها التركمانية، جدها أرشد سليم أوغلو من كركوك، تزوج حسناء من بلاد القفقاس، وأبوها عشق فتاة أتورية وتزوجها هي شميران الجميلة التي أسلمت حسب ما روى والد زينة واتخذت لها اسم (سميرة)..

غفر لها ذووها وزوجها وجرى الصلح في عيد نوروز الذي تصادف مع عيد الأضحى بعد أن ولدت التوأم زينة ويازار وأحضرت العائلتان الذبائح والهدايا واحتفلوا في بيوت العائلتين باتفاق والد شميران عوديشو ياقو ووالد زينة سليم أرشد سليم أوغلو، وأخذوا زينة ويازار إلى قلعة كركوك، قال أبوها: لا تذهب إلى مسجد أو كنيسة سنبارك المولودين في القلعة، هذه القلعة سرّة كركوك وتعوذتنا، يومها أسرّه سليم والد زينة:

- عمو عوديشو، تركت لشميران حرية العبادة، صحيح أنها رسميا مسلمة، لكن هذا لن يغير من الأمر شيئا، كلنا نعبد الرب الواحد فالدين صلة روحية بالله وليس طقوسا وتسميات..
- وهل سندعها تأتي للكنيسة؟؟

- هذا يتوقف عليها هي، لتفعل ما تريد..
في تلك اللحظة نهض عوديشو و عائق سليما وبكى..

- لن أقيم لها عزاء سأوقف كل شيء، لا أريد اشهار موتها
هي لم تمت.. زينة لم تمت..
سحبته جانبا وهمست له:

- هاتي أرجوك أن تراعي حزن أخيها يازار وبنات أعمامها..
تركني وعاد إلى صالة البيت حيث يجتمع المعزون:

- لا عزاء، أخرجوا من بيتي، إمرأتي لم تمت، لم تمت نحن الموتى،
انتم المنسيون في أضرحة مفتوحة، أطفنوا سجانركم وأوقفوا قاريء
الذكر، وأنت ايتها النادية عن لنا انشودة من عفيفة اسكندر أو فيروز،
هي كانت تحب فيروز، سأضع شريطا لفيروز..

امتعض المعزون وقالوا: صدمة فقدانها أصابته بالخبل..

- حياة أرجوك لا تتزوجي ولا تنجبي، أخاف عليك من علامة أسرتنا
المشؤومة..

احتضنته وبكيت، البلد كله تحت علامة شوم وزحل يدير كوارثه
بعاصفة من حروب..

عندما عاد هاني لزيارتي بعد سقوط بغداد نظر في عيني الحزينتين
وتمتم:

- قلت لك لا تتزوجي، تجاهلت النذر، وها أنت طليقة رجل مخصي...
- إنس الأمر، تجاوزت محنتي مع حازم، تعرف أختك لا أحد بوسعه
أن يدمرني وتعرف أنني لست الوحيدة هناك العشرات من النساء عاد
اليهن أزواج مخصيون بفضل ذلك الطبيب، أظنك تعرفه، كان فنانا أيضا،
وكان يخصي ويقطع الألسن ويصلم الإذنان، ويتلقى المكرمات والهدايا
من القيادة، سمعت أنه انتحر، قطع شريان رسغه ومات ترك رسالة
قصيرة نشرت على موقع الكتروني:

(أتحمل وحدي مسؤولية موتي لعلمي أستعيد شرف الطبيب الذي
حنثت بقسمه، ولعل أرواح الذين جنيت عليهم تتقبل توبتي..)
أنا إحدى ضحاياه، حين عرفت بانتحاره ضحكت: كان عليه أن يموت
أنف مرة ولن أعفر له..ولماذا نغفر له؟؟ ستلاحقه لعنتي إلى الأبد، حطم
حياتي وحيوات نساء كثيرات..
- بهاء لم ينتحر، كيف صدقت القصة؟؟ سافر سرا إلى أميركا بعون
من صديقه الصحفي الأمريكي وليام ليون هادسون، وكتب كتاب مذكرات
باع حقوقه لدور نشر أجنبية وقبض ملايين الدولارات، قامت له جهات
أمريكية معارض في نيويورك ولوس انجلس وواشنطن..
- كيف ذلك؟ الجميع تأكدوا من انتحاره..
- صديق له نشر الرسالة ليموه سفره واتفاقه مع جهات أمريكية إلا
تفهمين؟ القتلة يتحالفون..

3

حين: باح هاني بخطته لنا، قالت له خالتي سامية:
- هاني هل أفقدك موت زينة صوابك؟؟ مؤكداً أنك جننت.
- لا حل لدي سوى هذا أو أترك كل شيء وأهرب بعيداً ولن تروني..
- ما الذي تجنيه من هذا؟؟
- سأفقدته مثل أخوي مهند وماجد، سيقتل في حرب قادمة..
اف منك، ستجني عليه وعلى نفسك، ثم هل ستدفن نفسك في
الحياة؟؟ ألن تتزوج؟؟ لابد لك من زوجة مهما طال بك الزمن، ستحتاج
إلى امرأة تحنو عليك وتحنو عليها، هذه سنة الحياة..
- أرجوكم، دعوني جميعاً..

- هاني، مصائبنا لا بد أن تقرب بيننا، أنا أكبر من بقي من العائلة وأعتبر نفسي بمثابة أم لكم جميعا، لا بد أن نلملم جراحنا ونعيش..
- لكل منا طريقه.. أرجوك اتركيني..

أدرك أنها تلمح له بالزواج من هالة خطيبة أخي الراحل مهند..

سيبدو ثاره من الدنيا ضربا من الجنون، أليست حياتنا الغرابية في العراق ضرباً من الجنون..؟؟
- حياة ربما أنجح، وقد أفضل، أعرف أن التجربة ستكون صعبة، وقد أندم ولكن لا خيار أمامي، لا بد أن أفعل شيئا لأقف بوجه الحرب، انقذ واحدا قد يكون منقذا لآخرين..
لبثت خالتي في بيت هاني ترعى الرضيع وتعتني بالبيت على مدى شهر بعد رحيل زينة، كان هاني يختفي طوال النهار ويعود منها كما أخبرتني..

زارني وهو يحمل أوراقا ووثائق رسمية:

انظري: أنا الآن علاء عبد المجيد الحسن مهندس كهربائي، هذه كل الوثائق، لم أعد هاني البابلي طبيب الأسنان، بعث البيت واشترت آخر في حي تونس قرب مبنى مجلة (أفاق عربية) وفتحت محلا لبيع الأجهزة الكهربائية في سوق شعبي ووظفت فيه صديقي المصري أشرف الذي كان يعمل سكرتيرا في العيادة وهو أمين سري وحارسي، لا أحد يعرفني هناك، قد أختفي شهورا ولا ترينني، لا تقلقي، أنت شجاعة، لا تخبري أحدا أنت كاتمة سري، حتى خالتي لن ترشديها إلى عنواني، أحمد الله ان أمي وأبي توفيا بعد فقدان مهند..
- لا أظن الأمر سهلا ابدا..

- تدبرت كل شيء، أبلغت مستشفى الولادة بموت الطفل بعد خروجنا من المستشفى ببضعة أيام..

يعود أخي هاني أقرب إلى كائن مهدم، ذبلت نظرته وتهوى جسده، الجميع تغير، البلاد تغيرت والناس، وجه بغداد تغير أكثر وتصدع، كان صديقا لحامد عاشق الطيور ولبث حامد في حزن فقدان أخيه عبدالله وأخي هاني، ولم يجروا يوما على سوالي، كان يحدث وجود سر، لكنه لم يسأل..

حمل هاني الإسم والقناع ثمانية عشر عاما وأتى الآن ليستعيد ماضيه:

- منذ الأمس كتبت إسمي منات المرات، هاني هاني هاني هاني هاني هاني هاني..سودت أوراقا والقيتها على عشب الحديقة، ساح الحبر بالندى وامتزجت حروفي بالأرض..

وقف أمام قفص البيغاء الأزرق (حسوني) وهو يردد:

أنا هاني هاني هاني هاني هاني هيا قولي

أنا هاني هاني هاني هاني هاني هيا قولي

هاني هاني

هاني هاني

- وسرمد؟ هل فهم القصة؟؟

- كل يوم طوال ثمانية عشر عاما كنت أروي له قصصنا وأعلمه الحياة وما يجري، لم أعزله عن الأحداث لكنني عزلته عن البشر، حميته من الحضيض البشري، من الكراهية وفساد الروح، حميته من الحقد والأكاذيب وغسيل الأدمغة، حميته من انحرافات العقول، جعلته يتحرك في مدار نظيف، المشكلة الوحيدة أنني جعلت منه ملاكا من عالم غير عالمنا، لكنه ملاك استثنائي، جعلته يقرأ كل الكتب التي كانت ممنوعة

علينا، أريد له أن يحيا حياة لها عمق وامتدادات إنسانية مختلفة عن عالمنا المنهار، لم أكن أطعمه غير الخضار التي أزرعها في حديقتنا بلا كيميائيات، ربينا في الحديقة دواجن تعيش على الحبوب والعشب، وكان أشرف يصطاد لنا السمك من دجلة عند بساتين (التاجي) لم ير سرمد طعاما معلبا، كنت أشتري له صابون زيت الزيتون من بائع يأتي كل عام من بلدة (بعشيقة) في الجبل ويزودنا بالزيت والصابون والبرغل والسماق والعسل وكل غلال الجبل الطبيعية،

- هل قصدت أن تجعل منه حقلا لتجاربك؟؟ألست تظلمه ياهائي؟؟

- بل لأجعله أفضل منا جميعا..

- كيف سيواجه الناس والتفاصيل اليومية لحياتنا الصعبة؟

- علمته كل شيء، جعلت من نفسي أما ومعلما وابا وطيبا..

كل صباح كنت أجمع الأطباق المتسخة وبقايا الطعام والخبز التي تتكدس على منضدة الصالة وأسدل الستائر وأحمل ملابسنا المبعثرة إلى مائدة الغسيل وأدير المكتبة الضخمة التي تخفي باب الجناح السري وأخرج لشراء احتياجاتنا وأدعه يقرأ، أتدرين لقد أتقن اللغة الانكليزية أفضل مني عن طريق التسجيلات وإذاعة بي بي سي حتى بدأ يقرأ كتب عالم الفيزياء المعاق ستيفن هوكينغ بالانكليزية، هل تصدقين أنه قرأ جميع كتب هوكينغ وكتب عبارة ستيفن هوكينغ الشهيرة بخط جميل وعلقها أمامه على المكتبة:

(إذا استطعت أن تفهم كيف يعمل الكون، فستتمكن من السيطرة عليه

بطريقة ما)،

وفرت له آلاف الكتب والتسجيلات الموسيقية والأفلام، وأطلعته على تحولات البلوغ والرغبة، وزودته بكل جديد من أخبار العلم والنظريات العلمية لكنه كان مأخوذاً بـستيفن هوكينغ، كان يقرأ له وعنه وذات يوم بكى وهو يقول:

لو كان أحدنا معاقا مثل هوكينغ هل كنا سنشق طرفنا إلى كشوفه
الفيزيائية العظيمة؟؟، قلت له:

لا أظن فالوسط الذي نعيش فيه وسط سكنوي منشغل بماضيه
ومقلد وعاجز عن الإبتكار..

-وإذن يا أبي كيف سيتقبلون شابا مثلي؟؟ هل أنت متفائل بحدث
سيقع؟؟

- متفائل بك، يمكن أن تغير حياتك وحياة الكثيرين..
- كيف؟

سنعرف: عندما يقع أمر ما، سنعرف، أما الآن فلا شيء واضح
أمامي..

سرمد شاب استثنائي يا حياة، لديه اختراعات علمية غريبة لم أفهم
منها شيئا، لقد تجاوز كل التوقعات في تطوره العقلي، صنع آلة عجيبة
لتسريع نمو العقول تماثل إلى حد ما آلة تسريع الزمن، كاد يصعقني
عندما شرح لي الأمر، قال لي:

عندما نسرّع الزمن ينمو الدماغ وتتسارع عملية تكاثر خلايا
المخيلة وتزداد العصبونات بنسب هائلة، أتعرف أبي إن مايقوله علماء
الفيزياء عن تصادم الهيدروونات وإمكانية إنتاج ثقب اسود في نفق
أرضي أمر قريب التحقق، سمعت حديث أحدهم في إذاعة بي بي سي،
فكرتي عن تسريع نمو العقول تستند إلى نظرية مماثلة، سترى، غدا
سأجرب جهاز التسريع المبسط على نفسي، لا تخش علي، إنها تجربة
محدودة..

أذهلني إبنني الذي عزلته عن الوسط البشري ووفرت له كل ما
استطعت من كتب ومصادر وأدوات ونباتات ظل في جناحه، أخبرني أنه
أجرى تجربة على نبتة صغيرة فتضاعف نموها عشرات مرات..

صعقتني عبقرية الولد وشعرت بالزهو لأنني أنقذت إنسانا قد يحدث تحولا في حياة البشر على أرضنا..
غبطت نفسي على هذا الإبن وتأكدت أن عزل العباقرة عن الحياة البشرية ضرورة لدوام الحياة وتطورها..

نظريا هو يعرف كل شيء، لكنه شبيه نبات الظل، هش وغير صالح لمجابهة العنف وأحاييل البشر، عقله مبرمج على استيلاء النظريات الغريبة ويمكن أن يكون جسده عرضة للأذى بينما روحه وعقله يهيمن في فضاءات لا نعرفها..

- دربته على الكونغ فو والناي شي، في منتصف المسافة بين الموت والحياة كنت أقف كمحارب اسطوري وأصد عنه احتمالات الموت، أما اليوم فأقف في منتصف الموت بينه وبين الحياة..
-الوضع الآن اشد خطورة والاحتلال فجر يؤر الجنون، لا أعرف، كيف ستحل الاشكال، أحضره وتعالا لتعيشا معي فالأمور بدأت تتعقد بالنسبة لنا جميعا..

ليس بعد، انتظري قليلا..أتعلمين كم شعرت بالإمتنان لأنني بقيت حيا ولم أمت في ايام القصف التي سبقت سقوط بغداد، كانت جميع تضحياتي ستضيع سدى.. أشرف صديقي الوفي عاد إلى مصر خشي أن يتهم بما ليس فيه فكل عربي موضع ريبة بعد الإحتلال، هو الذي ساعدني في بناء القسم السري من البيت واشترينا مكتبة ضخمة لتخفي الجناح الذي خصصته لسرمد، كان مشروعا جنونيا حقا..

أخبرني هاني حينها أنه اتى بعمال بناء وأقام جدارا يفصل نصف مساحة البيت يخفي غرفة وحماما ومخزنا وغرفة جلوس واستخدم المكتبة الدوارة كحاجز يبدو كجزء من الجدار رغم أنه لم يكن يستقبل ضيوفا، وكان يزورني بين حين وحين أو نتفق على اللقاء في أحد الاسواق قرب بيته، لنلا يثير الشبهات حولي أو حوله، لكني لم أسلم من

مساعدة السلطة وتنظيمات الحزب الحاكم في حيننا وكلما أجروا جردا للسكان خلال الأزمات السياسية المتفاقمة كانوا يسألون عنه، استدعتني المنظمة الحزبية للاستجواب وحوصرت بالأسئلة، قلت لهم:

-هاني هجرنا ورحل خارج العراق، لا أدري أين مضى وتركني وحيدة بعد وفاة والدي أتمنى أن تعثروا عليه وتبلغوني ليهدأ قلبي وأعرف ما حل به..

ربما لم يصدقوا إدعائي لكنهم تركوني، نسوني لفترة، وعندما سقطت بغداد وظهرت الميليشيات والأحزاب المتشددة طرقت بابي رجلان ادعيا انهما من جهة تسمى نفسها (قوات التحرير)، ولرعيي كلمتهم من نافذة الطابق الثاني، قالوا انها يريدان المساعدة في موضوع البحث عن هاني، أخبرتهما أن هاني خارج العراق وقد يعود قريبا، كنت أتخبط في تفاصيل التصريح عن غيابه..

أعطاني هاني دفتر مذكراته: هنا بعض ما حدث لأخيك.. الرجال لا يصمدون إلى الأبد..

(لم تشأ خالتنا سامية أن تبقيني بلا عون، فقد فاجأتني بعد سنتين من اختبائي بأنها توصلت إلى معرفة عنواني بطرقها العجيبة، وهي التي تتدخل بكل ما لا يعنيهها من أمور حياتنا، أحضرت قروية من أقاربنا الأباعد لتخدمني..

لاتخش شيئا إنها لاتعرف سوى اللغة التركمانية لن تبوح بسرك لأحد..

كانت في نحو العشرين من عمرها، جميلة، بريئة ريانة، تنهي عملها كل مساء حسب ما وجهتها خالتي وتلوذ بغرفة خصصتها لها بعد أن تهيء لنا العشاء..

ذات يوم اجتاحني نوع من جنون الرغبة وأحسست أن جسدي يتصدع، وأنني ساموت إذا لم أنفس عن شهوتي وأمامي هذه الفتاة بأنوثتها البدائية وفتوتها، وهي ترمقني بين حين وحين بنوع من الخفر، أدخلتها الحمام وحممتها بيدي وفركت جسمها الفانر وفككت ضفائرها وغسلت شعرها، ألبستها ثياب زينة، بكت أول الأمر ثم لما رأت جنون نظرتي وشهوتي استيقظت أنوثتها، انصاعت لي وارتدت قميص نوم زينة ووقفت أصفف لها شعرها كما كانت تفعل زينة، وضعت لها الكحل ولونت شفتيها وألبستها عقد زينة الذهبي وأغرقتها بعطرها وأغمضت عيني واحتضنتها، كنت مخبولا تماما وأنا أقبلها وأتشم عنقها وصدرها، حملتها الي سريري وأرقدتها كدمية ميتة، توسلت الي، نهرتها وأعدتها إلى السرير وضاجعتها بعنف مثل ثور وكنت أبكي وأصرخ:

- زينة زينة..

كانت عذراء وكل ليلة كنت أنام معها وأصرخ زينة زينة، ونبكي كلانا....

وبعد ثلاثة اشهر أخبرتني بحملها، أخذتها إلى طبيب دفعته له مبلغا كبيرا وأجهضها..

ولبثت عندي ثلاث سنوات ثم ذات يوم أفقت صباحا ولم اجدها. تهاويت، أحسست بالضياح، لكن ما أن حل المساء حتى عادت ولم أعرف أين كانت، لكني وبختها وضربتها وبكت ثم تضرعت وقبلت يدي، في الصباح أوصلتها لبيت خالتي سامية وتركتها لدى الباب دون أن أقول شيئا..)

بعض الرجال بهائم و بعض النساء حمانم يا حياة..

اتصلت بخالتي وسألته عنها، أخبرتني أنهم زوجها لرجل مسن أرملة من أقاربها ولما أكتشف انها غير عذراء طلقها، اختفت من القرية، وقيل أنها القت بنفسها في نهر ديالى عند السد في منطقة جبال حمربن..

لم أصدق الحكاية وكان من الصعب علي تتبع آثارها بخاصة وأن مجموعات القاعدة تتخذ من محافظة ديالى وقراها مقرات لها، أبلغت أحد معارفي وكان يعمل مع قوات الشرطة وبحث الرجل عنها في القرى المحيطة بمنطقة الصدور، في السعدية وبيروانة وبلد روز، فعرف أن رجلا من مسلحي القاعدة اصطحبها بحجة الزواج بها، واستخدمها في عملية انتحارية قبل شهرين نفذتها في أحد أسواق مدينة المقدادية..)

معظم الرجال بهانم وكثير من النساء غنائم وغمائم..

عدت من قبرص عندما اتصل بي هاني وأخبرني عن اختطاف ابنه كان ينتظرني في بيته الجديد الذي استأجره في حي اليرموك..
وجدته مجنونا، كان ينظر الي مأخوذا ويبكي، عانقته وبكىنا..
- هل أبلغت عن فقده؟؟

- من أبلغ؟ والكل مشبوه في بغداد؟؟ من أبلغ؟؟ قد تبيعه عصابة إلى شرطة وتبيعه الشرطة إلى ميليشيا، من أبلغ؟؟ حميته تسعة عشر عاما
وها أنا أفقده في لحظة، ما جدوى كل ما فعلت؟؟
- كيف حدث الأمر؟؟

- كنا جالسين في الحديقة نشرب الشاي، دخلت أحضر بعض الكعك،
رن هاتف النقال، كانت خالتي سامية تهاتفني من سوريا لتطمئن علي،
عندما خرجت لم أجد أثرا لسرمد، جننت، خرجت إلى الشارع، ناديته،
صرخت وناديت بلا جدوى..

بعد شهرين وجدنا رسالة تحت باب الحديقة:

(إدفع مائة ألف دولار وإلا لن ترى ولدك.. سنتصل بك بعد يومين، إن
بلغت عنا سنرسل لك رأس ابنك)
دفع هاني لصاحب مكتب للعقارات مبلغا مضاعفا لبييع بيته الذي

اختفى فيه في حي تونس شمال بغداد، و باع حلي نجاة الذهبية وسيارته الجديدة ليفتدي الولد، جمع المبلغ وانتظر اتصال الخاطفين، بعد ثلاثة أيام رن هاتفه:

- هل أحضرت النقود؟؟

- نعم

- ستأتي إلى حي الجهاد ومعك حقيبة النقود، في الشارع الرئيسي، ننتظرك أمام الجامع، وحدك، لا تأتي بمراقبين.. الساعة السابعة مساء..

قلت له سأتي معك، سأقود سيارتي وعندما أعبر جسر العامرية إلى حي الجهاد واتعطف نحو حي الخارجية تنزل أنت وتمضي إليهم وحدك وانتظرك عند بيت أحد معارفنا هناك..

بعد ساعة، عاد هاني وسرمد، كان الولد نحيلاً أشبه بشبح، جريحا ومرعوبا، يده مربوطة بخرقة قذرة، وثيابه ممزقة..

- اللعنة على هذا العالم المتوحش، سأهرب به إلى أي جحيم خارج العراق، لا بد أن أنقذه من هذا الخراب، لا بد أن أوصله إلى بلد يهتم بعقريته، من الغد سوف أشتري لنا جوازات مزورة وأمضي به -
- أنت لديك جواز سفر..

- سرمد غير مسجل في سجلات الحكومة كما تعلمين هو الآن نيس مواطن ولا أي شيء ولا بد أن يطابق اسمه إسمي..

الكراسة 12 غراب قابيل

زواجي بحازم كان أشبه بمزحة أو كابوس من تلك الكوابيس التي تنتقل من رأس الحالم إلى الواقع فتزيده غرابة، التقينا في معرض فني مقام في غاليري (حوار) خلف أكاديمية الفنون في حي الوزيرية ذات مساء، حدث ذلك في 1990 كنا نتأمل لوحة لرسام سرياني عراقي، اللوحة كانت لجندي مغمض العينين شبه ميت أو هو ميت فعلا، تخرج من فجوة في جمجمته تحت الخوذة حمامة وتتعرش على كتفه الأيمن أوردة زرقاء بارزة، وفي يده اليسرى التي تحولت إلى عظام يمسك سلاحا..

قلت:

- لاتعجبني أعماله، إنها كوابيس تثير شهية المرء للموت، فنه هزيل ومفتعل..

- سمعت أن البعض يسميه رسام تأنيب الضمير..

- أتدري لماذا؟؟

- لا..أتعلمين أنت؟؟

- تخصص في مرحلة ما برسم الغراب الذي يلتهم رؤوس الرجال،

بحيننا ذلك إلى غراب قابيل وهابيل..

- أيحمل وزر قابيل؟؟

- يبدو أنه شريك قابيل في أمور لاعرفها..

- كيف حال أستاذنا والدك؟؟

- بخير..

- أبلغه تحياتي.. هل تقبلين دعوتي لشرب القهوة بعد المعرض؟
- لا بأس، لدي ربع ساعة فقط وبعدها أنصرف.
- أريد أن أطلب منك شيئا..
- قل، أطلب أنت صديق عزيز ولك مكانة خاصة عند والدي..
- وإذن هل أطمح أن تساعدني وتخبري الفتاة التي أعجبت بها بأنني أحبها وأعتزم التقدم لخطبتها؟؟
- سافعل، فقط أخبرني من تكون ومن الغد سوف أحدثها..
- أين هي؟؟ وهل أعرفها؟؟
- تعرفينها، هي تعمل معك..
- ليس في مؤسستنا غير سيدتين، المحاسبة سلوى ومسؤولة الأرشيف نهال، وكتاهما متزوجتان، أخشى أنك لا تعرف الفتاة جيدا أو لعلها لاتعمل معنا.
- بل أعرفها، أعرفها جيدا..
- لا تجعل الأمر أحجية، إن كنت أعرفها سوف أذهب إليها مباشرة لا تضيع وقتي، لدي مشاغلي أستاذ حازم..
- حياة، إنها أنت..
- صعقت، قال لي:
- أرجوك، لاتقولي شيئا الآن، سانتظر رذك في الوقت الذي تقررين.. رغم أنني متعجل ليجمعنا بيت واحد..
- لا أدرى كيف وافقت وكيف تزوجنا، بارك أبي الزواج أما أمي بهيجة التيمي فقد التزمت الصمت ولم تبد رأيا، وعندما سألتها قالت:
- حياة أنت ناضجة وتتحملين مسؤولية خيارك..
- بمعنى أنك غير راضية؟؟
- رضاي لا يؤخر ولا يقدم، فقط أود أن أعرف، كيف وافقت بهذه السرعة؟؟ أكنت تظنين انك لن تجدي فرصة أخرى مع أن الكثيرين تقدموا لك؟؟

- أبدأ، شيء ما لا أجيد تفسيره، أنا أيضا في حالة من الدهشة، ولن أراثي سأترجع..

ضحكت أومي وعانقتني وهمست لي:

- أرجو ان لا تلومي نفسك يا حياة طالما تملكين القناعة بما تفعلين.

مر الحدث كمثّل واقعة حدثت لامرأة غيري، كنت أمثّل دور امرأة أخرى، لم أحبه بقدر ما أحبني، عشنا بضع سنوات حياة رخيّة ساكنة، لم أكن اعرف جسده ولم أتعرف إلى جسدي معه، بقيت بيني وبين نفسي تلك الفتاة العذراء الخجول المتكتمة، كنا كائنين من كلمات، وحتى الحوارات التي كنا نتداولها قبل الزواج ماتت وضمرت، ليلة زفافي كانت مريعة، أضاء شموعا في الصالة، وأحضر شرابا وكؤوسا، ووضع موسيقى عاطفية وجلس ينتظرني، كنت أدور في أرجاء البيت وأتفرج على المرأة التي ستكون ربة هذا المكان، بدا البيت خاليا من الألفة وباردا، كان الأثاث جميلا ومتقنا واللوحات رائعة إنما لا تدل على ذوق محدد.

عرف أنني أحب زهرة الغاردينيا فاشتري أربع قوارير أنيقة بشجيرات الغاردينيا، أوراقها لامعة الخضرة كأنها دهنت بزيت والزهور بلون العاج وقد عطرت الصالة بأريجها، قطف واحدة من الزهور الغضة وقدمها لي.. اتصلت به أمه وإخوته مباركين، تحدث معهم باقتضاب وأغلق الهاتف، أومي لم تتصل، كانت حزينة عندما غادرت البيت، لم نقم حفل زفاف بل اجتمعت العائلتان في بيتنا، رأيت أومي بملامح كامدة وهي تنظر إلى حازم، كان نوع من خيبة الأمل في نظرتها..

قال: إذا لم يرق لك شيء في البيت يمكننا أن نغيره، تشتري سواه ثوب زفافي كان بلون أزرق فاتح جدا به طبقات من موسلين تكثف اللون وتجعله متموجا، للثوب كُمان لاصقان وفتحة كتف واسعة، قال حازم: انت كسرت تقليد ثياب العروس البيضاء ..

.. الا تدري؟ هذا قرار قديم، منذ طفولتي قلت لأمي لا أحب أن أكون

عروسا بيضاء كالغيم..

وقالت أُمي: لماذا؟

أجبتها بنزق: أحب السماء والماء وأكره الغيوم والحليب ودشاديش
الرجال البيضاء والشراشف الناصعة..

نظر إلى بنفاد صبر: تعالي اجلسي هنا.. أم تغيرين ثوبك؟؟

- سأغير ثوبي وأنا، أنا متعبة جدا لا تنتظرنني، نم أنت في الغرفة
الأخرى..

أغلقت الباب وبكيت طوال الليل، بعد أسبوع من الصمت كنا نتناول
وجباتنا ونتحدث بضع كلمات عن الآخرين ونتجنب الحديث عنا، طرق باب
غرفتي وقال بصوت يانس:

- حياة، قولي لماذا تزوجتني وأنت لا تحبينني؟

- لكني لا أكرهك، أحترمك لخصال كثيرة لديك يندر وجودها لدى الرجال،

وقد ينمو الحب بالتدريج.. أمهلني ولا تتعجل..

- هل سنبقى كغريبين في بيت واحد؟؟

- ماذا تقترح؟؟

- مايرضيك، لا أريد ان أرغمك على معاشرتي.

- دع الزمن يذيب الجليد..

- سانتظر لأني أحبك، أنا أعتبرت نفسي محظوظا لأني حظيت بامرأة

مثلك، أنت أئمن ما نلت في حياتي أنت حلم الكثير من الرجال..

فكرت: لماذا يحلم بي الكثير من الرجال؟ لأجد سببا واحدا غير مذهري

الذي لا ينم عن جوهرى..

- إذن لا تتعجل، انا أتق بقدره الزمن على تغييرنا..

خيل إلي أنني تعافيت من رفض جسدي له، تقبلت فكرة أن ننام معا كانت

ليلة قاسية، عندما قبلني لم يرق لي الأمر، لم أطق تماس جسدي مع الرجل، كنت مخيبة، ليس هذا ما حلمت به..
وعندما احتضنني كان جسدي متوترا وبدأت أبكي، أعطاني ماء وقرصا مهدئا..

لا أدري كيف حصل الأمر، كان خانفا من رفضي لكنه مضى في محاولته، كان رقيقا وحنونا، وكنت شبه غائبة عنه، وصرخت من الألم، قبلني وبكى وقال:

- اهدأي، اهدأي سيزول الألم، سألت قطرات دم على المفرش فهرعت إلى الحمام أغتسل لعل الألم يهدأ وهربت إلى الغرفة الأخرى، لم أجد أية متبعة في علاقتنا بل لم أصل إلى أية نشوة كالتي توصف في الكتب، كنت أقوم بدور امرأة أخرى وأخفي روحي فيما وراء القناع، وأتقبل الرجل كأنه زوج امرأة أخرى حلت في جسدي، كانت علاقة إشكالية لم أفهمها، ولم أستشر طبيبا أو أحدا في أمرها، كنت أغمض عيني وأتخيلني غريبة لا تشبه حياة، وكان هذا يعذبني، أترأه أدرك ذلك؟؟ لا أدري سوى أنه كان يتجنب الضغط علي عندما لا أجد في نفسي القدرة على تمثيل المتعة واتعلل بأعذار جديدة كل مرة..

قال لي: مهما حصل فاتا أحبك ولن أتخلي عنك حسبي أنك معي، إن كان بقاؤنا معا يرضيك سأمتثل لرغبتك..

روحي كانت تتفتح باتجاهات أخرى، كنت أتوهج لدى سماع الموسيقى أو رؤية الطبيعة أو عند هطول المطر، كنت أنتشي بأشياء كثيرة كروية لوحة جميلة أو رقصة أو مسرحية أو حضور حفل موسيقي، أنتفض ويغمرني الضوء والمرح ويتألق وجهي وتلتمع مقلتي وأغدو امرأة أخرى تماما، كان يشد على يدي مستبشرا ويتوقع أن أحتفظ بنشوتي حتى السرير، كم خيبته، ما أن يلمسني حتى أنطفيء وأدعي النعاس..

هل كنت سينة إلى هذا الحد لأضحى بحياتي من أجل أن أعيش في رفقة رجل طيب دون حب؟ الأتني وحيدة بعد أن فقدت أهلي جميعا؟؟ هل كنت

أقايض روعي مقابل أمان زائف؟؟ هل كنت امرأة من دخان وهذا اللحم
والدم والمشاعر منك امرأة أخرى؟؟

قلت نعم، لابد أن أتخفف من وطأة المثال الذي ربيت عليه، قلت نعم
سأبقى معه امرأة معطلة بثمن يبيع الروح، وماذا عن حق نفسي؟؟
وماذا عن جسدي؟؟ وماذا عن أمومة كنت أحلم بها؟؟ أكان رعي من
مجتمعي مبررا لهذا الخداع المتقن؟؟

أعترفت لنفسي انني كنت اتصرف بنذالة أنثى وليس بكرامة امرأة،
ناقشت هذا مرارا مع نفسي: ماذا لو انفصلنا؟؟ أين أذهب وسط غابة
الضواري؟؟

نظرت إلى نفسي من زاوية أحلامي المهدورة، أهذه أنت يا حياة؟؟
أهذا هو الرجل الذي كنت ترسمينه على الغيم والماء وتطرزين صورة
زفافك له على الوسائد وتصنعين له أجنحة من ذهب شفاف وتلونين عيونه
برغوة القهوة وتجعلينه يرتدي قمصانا زرقاء كالبحر وعباءات من النور.
كنت تخططين للزواج من رجل غير أرضي، رجل يظهر بغتة من غابة نخيل
أو يصعد من موجة أو يهبط بمنطاد، تمنيت أن يعشقك رجل من ماء ولهب،
لكنك تزوجت رجلا ككل الرجال حين ينست من انتظار المثال الذي صنعت
أوهامك، تزوجت رجلا له صوت كأصوات الآخرين ووجه يشبه آلاف
الوجوه وتاريخ منسوخ عن ملايين الرجال اللطفاء أكثر مما ينبغي والطيبين
الودودين كوعاظ أبويين..

كيف سأحرر نفسي من كل هذه الطيبة وهذا اللطف؟؟ كنت أخاف
أسبب له أذى لا يستحقه، لذا كنت أردي ثيابا بنفسجية كي تهدأ أعصابي،
وأعطر بزيت الخزامى كي أسترخي ويزول توترتي، وأصبغ جدران البيت
بلون الليلك كي تستقر نظرتي الزائغة، وأشتري أقداحا وكؤوسا من بنور
بنفسجي لإشرب عصير الرمان وعصير العنب الأرجواني وأنام، واعلق
لوحات مغمورة بشفق المساء الأرجواني، حتى قال لي يوما:

- حياة هل تحيين أن أزرع لك الحديقة بالسوسن البنفسجي وأشجار الليلك والبنفسج الأفريقي؟ هل يروق لك أن أعطي المصاييح بمظلات من قماش أرجواني؟؟ هل أشترى لك مفارش بنفسجية وأعطية مثلها؟؟ انطقي فقط لأجعلك سيدة البنفسج الوحيدة في بغداد..

تلك اللحظة بكيت كما لم أبك في حياتي، لماذا يا إلهي أعجز عن حب هذا الرجل الحنون الكريم؟؟ أكون مختلة العاطفة؟ أنا امرأة سوية؟؟ وإن طلبت الانفصال فكيف ساعيش مطلقة في مجتمع فككته الحروب وانتهته المجاعة؟ وتكاثر فيه كالفطر رجال بدشاديش قصيرة ولحي شعناء وجنود من بقايا جيش غزو الكويت كانوا يتسولون لقماتهم على مفارق الطرق بثياب ممزقة ويشحذون على أبوابنا دراهم تيسر لهم السفر إلى قراهم، كنا نتصدق عليهم بقمصان وأحذية وسراويل، وما نستطيع الاستغناء عنه من أشياء ونخشى أن تفتحم مجموعاتهم بيوتنا..

2

كان حازم مهتما بموضوع حقوق الانسان إضافة لعمله استاذا للعلوم السياسية ويعمل سرا مع جماعة تزود منظمة (هيومان رايتس) بمعلومات عن انتهاكات السلطة خلال التسعينيات، كان أبي يتعاون معه، وفي العطلة الصيفية حصل على موافقة للسفر وغادر إلى تونس لحضور ندوة تعقدتها منظمات دولية وعندما عاد اختطفوه على الحدود مع ثلاثة من زملائه عصبوا أعينهم وساقوهم إلى معتقل خارج العاصمة حسبما خمنوا من طول الطريق الذي أمضوه في السيارة الموصدة النوافذ، عرقوا وتبللت ثيابهم، أنزلوهم من السيارة واقتيدوا إلى مكان شموا فيه رائحة بساتين نخيل ويرتقال، كان الوقت عصرا في أحد أيام نيسان، فتحوا بابا ذا صرير ثقيل، وخمن أنه كان بابا حديديا هائلا، أدخلوهم غرفة مبردة، ارتعش حين التصق القميص بجسده، لم يفتحوا العصاب عن عيونهم، أمرهم صوت

رجل ساخر بلكنة ريفية أن يزحفوا كالكلاب أمامه:

- انتم مجرد كلاب، لكم حقوق الكلاب أيضا أم تطالبون بحقوق الإنسان أيها الجواسيس؟؟

ورمى لهم عظاما:

- خذوا الستم جانعين؟؟ هذه العظام لكم، من حقم ان تأكلوا أليس كذلك؟؟
أزحفوا، أمامي فربما نغفر لكم، قبلوا قدمي، هيا أيها الأساتذة، أم تستكفون؟؟

عندما لم يتحرك أي واحد منهم: صرخ بالحرس: خذوهم إلى التحويل..
التحويل؟؟ لم يدرك أحد منهم ماهية التحويل، يحولونهم إلى السجن؟؟ إلى الزنازين الإفرادية؟ إلى التعذيب؟؟ لم يفهموا ما عناه الصوت بالتحويل إلا عندما أدخلوهم غرفة هي مستشفى للطوارئ ملحقة بالمبنى، رفعوا العصائب عن عيونهم التي بهرها الضوء، ربطوهم إلى الأسرّة الحديدية البيضاء بسيور بلاستيكية، كان رجلان بثياب الاطباء يقفان هناك وممرض يحمل حقنا، أشار أحد الطبيبين - اللذين أخفيا وجهيهما وراء قناع العمليات للممرض أن يبدأ..

- خدرهم موضعا وانزع ملابسهم الداخلية..

الطبيب الذي كان يرسم الغريان وتأييب الضمير تقدم منهم، عرفه حازم، إنه هو، وخز باطن القدم، المخدر سرى في أسفل الجسم والساقين، بدأ باستئصال خصيتي حازم، ببراعة جزار استل الإتنين وألقاهما في إناء أبيض وخاط متبقى من الصفن، وجعل الآخرين يشهدون الفعل المروع حتى أتى دورهم..

وتركوهم تحت الحراسة، كانوا ينزفون أرواحهم مع دماتهم، حلول حازم الإبتحار لكنهم حالوا بينه وبين أن يختار موته، لا يدري لم حالوا بينه وبين الموت، في اليوم التالي قال له الطبيب:

- لست حرا في اختيار طريقة موتك، نحن من نقرر ذلك و متى وأين..
لم يعرف أحد أين إختفى الرجال الأربعة فكل مختلف في حكم الميت حتى

يعود بمعجزة..

في الحجز سمعوا حوارا بين حارسين عن قبو في القصر يحتفظون فيه بأعضاء الرجال المبتورة داخل زجاجات مليئة بسائل الفورمالين، مرقمة ومصفوفة حسب تواريخ الخصاء..

اطلقوا سراهم بعد ستة شهور من الحجز والاستجواب، قال لهم الصوت الذي ينبثق من مكبرات في زوايا غرفة التحقيق:

- أكنتم تفضلون الإعدام؟؟ هه؟ ام أن الخصاء أجدى لكم ولنا ليعتبر الاخرون؟؟

قال ابنه بكى أمام جلاده، بكى وهو يحس بخزي رجل محبوب..
قال: إن سنت أطلقك وتذهبين إلى الحياة فانت شابة وامرأة جميلة تشتهين الحياة.. وتشتهيك الحياة..

بكيت وعانقته وتشبثت به قبلته ومسدت عنقه ولثمت جبينه دفني عنه بنوع من الاشمزاز والحنق وهو يرتجف:
- أرفض شفقتك غادري البيت، لا أريد أن أراك..

كان ينتحب على نحو حيواني، ثم يقترب مني و يعانقتي ويبكي على كتفي كمن استفاق من كابوس مروع، ثم يتصلب جسده ويرتعش ويضربني ويبكي وبتهاوى محطما ويركع منتحبا عند قدمي.

بعد ساعة من صمته وهو جالس بعينين متورمتين ونظرات مفزعة، قام بغتة وصرخ بوجهي:

- أنت طالق، اذهبي إلى أي رجل ودعيني، اغربي عن وجهي، اذهبي إلى أي جحيم وازني كما تشائين، أكرهك، أكرهك، أكره الجنس البشري كله، أكره نفسي، أكره الأرض والسماء والنساء، أكره كل شيء، أنت طالق حياة الباطل أنت طالق، طالق، لا أحتمل رؤيتك زانية في بيتي..
- طيب، عندما تطلقتي لن أكون زانية يا حازم....

الفصل الخامس

كتاب الحب

يكتب لي ناجي رسائل مترادفة من القاهرة وطنجة والقيروان ونيو
دلهي وأديس أبابا:

(رأيتك الليلة في منامي، كانت تمطر حيث نقف، هبت على أعاصير
النشوة، في فوضى الحلم المائي كانت شفتاك تشعان كثرمتي عناب تحت
انهمار المطر، تخضلت رموشك وتقطر الماء من جدانك الطويلة على رقة
قميصك، ألوان زهوره التمعت وذابت حواشيه الحرير، التصق بنهديك،
فاشرأبت حلمتك الصغيرتان، برعما صبيبة لم يتفتحا بعد، أخذتك بين
ذراعي فاخفتيت لم يتبق منك غير عطر على ذراعي ومذاق قبلة حلوة
على فمي، كيف سأجدك مرة أخرى يا امرأة من ماء؟؟)

أكانت تمطر في بغداد تلك الليلة أم في طنجة أم القاهرة؟ أتراني كنت
وحدي في بغداد تحت مطر تشرين الشهوي وتراعت له امرأة ممطورة
حيث كان يحلم بنا؟؟

أيقنت أن رؤانا وأحلامنا كانت تتداخل بقوة الحب وتتضافر كحبل النجاة
وتنتشلنا من قاع الجحيم فنرى أحلاما مشتركة ومتشابكة كأحلام توأمين،
ونضحك من جنوننا..

في تشرين يكون للمطر مذاق التين ولذة التمر الذهبي ولذعة الرمان،
في تشرين يتسيد المطر أهواعنا ويخسر الفناء رهاناته على هزيمتنا، تحت
مطر تشرين يطيب لي أن أكشط الأحزان عن جلدي بماء السماء وأتلقى أول
مطرة خريف كنتقدمة مقدسة كما كانت تفعل جدتي العارفة أمينة، لكان العالم

يشرح اللحظة بالبكاء وأنا العابقة بالنار والهموم أقلت من محرقة بغداد
وتستغرقني مباحج المطر، أغمض عيني على الحزن في لذة البلبل فيسيح
ملحا مع الدموع، الماء ينسفح على جسدي وترتعش أطرافي، وأغيب
غيبوبة حلوة،، يمتليء خفائي بالماء، يتشبع نسيج ثيابي وتتضح المياه
عباراتي، أقول أشياء غريبة ولا تستقيم لي عبارة واحدة، ولماذا تستقيم
العبارة والعالم ملتف أفعواني؟ ولماذا تستقيم العبارة؟؟ أهذي وحدي وأمزج
المتعة بلغة من ماء..

المطر إنسل إلى عظامي ولحمي وأيقظ البراعم والضحك، دعابات
المطر تدغدغ عنقي وصدري فأضحك أضحك وحبات برّد تنسج لي عباءة
من رعشات وتتخلل شعري الجعد الطويل وتختفي بين النهدين وتذوب
تذوب على قلبي، أقضم حبة برّد، ما أذ تكسر الثلج تحت أسناني، وأضحك
ما أذ تكسره تحت قدمي على بلاطات الممر، أضحك أضحك وزجاج
النوافذ يقلد ضحكتي ونضحك من لذة الماء حتى يغمى على الليل والنوافذ
والعشب وشجر التين..

هنا يا ناجي كنت أهيم في بغداد تحت المطر وترأيت لي وأنا أندفق
في المدينة شبه نهر تائه وكنت تعبرني كزورق من ضفة لأخرى، فأهمس
لك:

- لا تمض أبعد في سورات الماء وجنوننا، خذ حذرک، فالماء غادر
كالنار..

- الماء علامتنا والرعد آيتنا، لا تخافي..

كنت أسند رأسي إلى كتفك فتجرفني سيول الماء، نبتل كلانا، غريقان
في المتاهة، نرتجف من فزع وبرد ونشوة، الجثث حولنا تتشبع بماء
السماء وتعرى ونحن نبذر الحب في أرض الموت، المحلات التجارية
المحروقة تذرّف دما أسود على الأرصفة، مطر في الباب الشرقي وشارع
السعدون وشارع طلعت حرب وحي المنصور، مطر مربع كالطوفان، أنت
وحدك أمامي تغطيك أعشاب الماء الطويلة كغريق لبث تحت الماء ألف

عام، انزع عنك أعشاب الماء وزنايق النيل والطحالب ورائحة النساء
اللائي أحببت قبلي ولم يبادلنك الحب، والقمر قرص أحمر في حنون
والباب الشرقي وطنجة والنجوم تتراكم فرعة في القصف والمطر، تحط
نجمة نجمة على خمائل الياسمين فتخطنها القنابل..

هل أمطرت ليلتها في باب اللوق أم في باب المعظم؟ في حي المدينة
على بحر طنجة أم في حي أم السماق في عمان أم في أثينا أم ليماسول؟؟
لا أحد يعرف لكني أدركت ساعتها أنها كانت تمطر في كل الجهات والبلدان
التي تقابلنا فيها و أن رجوم الطائرات كانت تصعقتنا هنا في السوارع
العزلاء وأن مطرا وبرقا امتزجا مع نيران القصف، وأنتي بعد أن شارقتك
كنت مع الست فريدة في شارع الرشيد..

قبل أعوام قلت لي في طنجة وقد عقدنا ميثاقنا تحت سماء الله وأشهدنا
رياح المحيط وصخور جبل طارق على عشقنا ستلدين لنا ولدا في يوم
ماطر ولا أدري أين سأكون أنا وأين ستكونين حين تشرع لنا الأقدار
بواباتها..

ظل من يأس كان يغلف نبرتك وكنت أهمس لك وكأنتي مالكة لروح
المصير: سأكون قد عثرت على عمي الشيخ قي دار عراب بغداد وسيد الغياب
وقمت بإعداد الكتاب وعندها ستعرف مكاني من علامات تظهر لك في
جفاف الفرات وصعود الخرافة وسوف تأتي إلي في بلد لا نعرفه كلالا.

ألمس عنقي الذي كنت تغمره بقبلات الشغف، وأستحضر ضحكاتنا
ورائحة جسدينا في رحاء الحب، من نافذة غرفتي في بغداد أتأمل المساء
المطوق بالنار وأرى رجلا مقطوع الذراع يسير مخبولا في شارعنا،
شارع الطاووس الأزرق أو شارع النساء الوحيدات، يجر وراءه خط دم
على الإسفلت، يصرخ وحيدا ويقترّب من بيتي إذ لمح نور الفانوس، يبدو
فتى في نحو الثامنة عشرة، مغموراً بالعمّة والدم، مبتور اليد كان
يصرخ:

- أهل الرحمة.. ساعدوني، أما من أحد يسعفني؟؟ يا ناس.. وينكم؟؟
أهل الرحمة والرحماء غابوا، ليس من أحد سواي في شارع النساء،
أخرج إليه مع قطن ولقافة شاش ومحلول ديتول:
تعال سأسعفك تعال..

تعال، اقترب، تعال لا تخف، لدي خبرة ثلاثة حروب..
كان يهذي وعيناه الزانغتان تدمعان:

- رأيتهم يتناثرون، القنبلة قتلت عشرين رجلا وامرأة، البنات تناثرن
الرجل تحول إلى دخان وطار، والله طار وسقط على سطح مطعم الحمراء،
الطفلة صارت قطعتين، جنون، جنون، لم يأت احد لحمل الجثث وإسعافنا،
الناس نخاف، أه الجثث بقيت هناك..

من أنفاسه أشم رائحة الموت، من ثيابه تسطع رائحة الجنون،
وموضة أمل واهنة تلوح في حدقتيه الممضلتين، شيء ما في أعماقه
يتشبث بالحياة:

أجانع أنت؟ أحضر لك ما تأكله؟؟

أريد ماء.. ماء فقط، الله يخليك ماء..

أحضر له زجاجة مياه معدنية ورغيف خبز وقطعة جبن أدعوه ليجلس
على أرجوحة في الحديقة..

- الانفجار في شارع 14 رمضان، دك منزلا بطابقين وقتل من المارة
الكثير.

كان الدم يسيل من جذمة ذراعه وأنا أمسحها بالمحلول المطهر وأضع
القطن وأربطها بالشاش وهو ينشج ويقول: ستجن أمي إن رأيتي بلا
ذراع، ستجن أمي أو تموت..

كاد يغمى علي وأنا أربط الذراع المبتورة وأجمع الأعصاب ورووس العضلات المتهتكة مع بعضها، غثت نفسي، هذه أول مرة أفعلها، تلوثت يدي بالدم وفاحت الرائحة..

قال: القنبلة أهدت حفرة كبيرة دفن فيها العشرات..

قال: سأذهب أبحث عن يدي بين الجثث..

قال: ليحكم الله منهم يا أختاه..

3

لم يكن الفصل خريفا لكن رسائل ناجي كانت تستدعي المطر والفصول، إنه الصيف، الصيف تيه الغراميات المحرمة، فصل العشق المتخفف من الحذر، في الصيف أنام كمعظم الناس في بغداد على سطح البيت تحت عباءة من نجوم وغمامة من حشرات فوسفورية مضيئة حتى لا أميز بينها وبين النجوم، سطوح بيوتنا ميدان لذة وحلم، سطوح مجلوة بضوء القمر وتأوهات اللذة، رذاذ ماء نرشه في الغسق على الأشجار فيطلق شميم التراب الشهوي وتطير الفراشات الصغيرة من خمائل الياسمين وداليات العنب، وأنصت لخفق قلبي ودمدمات الجسد..

من الطرف القصي لبغداد، من جهة مبهمة في الليل ينهمر علي غناء امرأة هو ليس بغناء، هو أي شيء آخر سوى الغناء، امرأة تتلظى في الشوق من ألف عام، نشيج جسد شمسي ولوعة أنثى قمرية، صوتها العباسي مختنق بالحنيب، نبرتها جرح ليلي، آهاتها تمط الوقت في ليل مكمل برماد الحب وعظام الموتى، ما هذا الغناء القاتل؟؟ أردد معها الكلمات وأرتجف في عويل الريح تحت نجوم تموز الراحشة....

نور القمر بارد يرسم تخوم الأشياء في نصف عتمة السطوح، الأجساد الهالكة في اللذة أو الذاهية في الموت تتشكل كنباتا رمادية متحركة فوق الأسرة، رجرجاة تحت الأغطية، أراها من تخريمات حافات السياج،

والمغنية تغني من أول الهوى حتى الليل الذي استوى على عرش الجنون.
أسمعها مع هدير الديابات وأرتجف، لصوت المغنية أذرع ووجسات تمتد
نحوي وتحاول احتضاني لتؤنس وحشتي، مغنية لا يعنيني من تكون، صوت
انمرأة هو جسدها وجسدها هو نورها وعتمتها، المغنية تغرقني في العتمة
وتزجني في ممرات النور فأبكي..

أتضح الصيف ثمار الكمثرى والرعب وتساقطت ثمار التفاح الكوفي من
الشجر مع كثير من الرؤوس التي قطعها النباحون الملتحون في الطرقات،
ظهيرة أحد أيام تموز القائظة اعترض المسلحون سيارة تنقل موظفات
البنك، مابين حي العامرية وحي الخضراء، أنزلوا البنات غير المحجبات،
أشهبوا سيوفهم، كبروا وبسملوا وقطعوا رؤوس أربعة منهن وألقوا بها
على الرصيف واختفوا، بعد أيام أنزلوا القصاص بفتيان يرتدون الشورتات
في طريقهم إلى مسبح الحي، قطعوا سيقانهم وتركوهم يصرخون في
العراء..

كان يفترض بي أن أموت قبل أن أشهد أو أسمع هذه الفظائع، ارتعبت
راوية، لزمت البيت، قالت هددوني سيقطعون رأسي ويلقونه أمام بيتي،
أرجوكن لا تغادرن البيوت، اتركن العمل، لا نريد أن نموت ميتة شنيعة
كهذه..

- لن نموت راوية قبل أن يظهر الحب كراماته في خرابنا..

الكراسة 14

طنجة -

تقابلنا في ملتقى ثقافي عقد في طنجة، مبهورا بالمغرب ومسحورا بطنجة والكاتب محمد شكري تضاعف انبهاره بي، ارتدنا المقاهي سرنا من حي القصبه إلى حي المدينة، وصلنا ميدان فرنسا وتوقفنا في شارع باستور وشربنا الشاي الأخضر في مقهى صغير يعج بالسائحين..

تشردنا كصديقين مارقين، التقينا سماسرة ولصوصا وبانعات هوى في البارات، ضللنا خطانا في الأزقة المتاهية وتهنا عن عنوان الفندق، طرقتنا بابا، فتاة سمراء نحيلة بشعر جعد ونظرة غانمة فتحت وقالت بعد أن تفحصتنا بنظرتها الكدرة :

نحن نستقبل الرجال فقط..

ضحكنا من بلاهتها وسخف الموقف:

نبحث عن فندقنا، ضيعنا الإتجاه..

طاب لنا ان ننتيه ونباغت بما لا نتوقعه أو ربما يتوقعه المرء في مدينة مثل طنجة، ومن حي القصبه باتجاه البحر وشارع لشبونة والميناء، الريح مثقلة برطوبة البحر، رائحة الماء الثقيلة تتصاعد من العمق اللازوردي، طلبنا سمكا مشويا وبعض الكوسكوس من مطعم سيدي العروسي وبحثنا عنم تبقى من حاشية محمد شكري، عثرنا على رجل هرم بدين يتزيا بثياب سائح مبهرجة، كان يعتاش على لقاء السواح الباحثين عن مجنون الورد، يطلب منك أجرا ما أن تسأله عن شكري:

كم تدفع لأخذك إلى بيت شكري؟

دلنا على اثنين آخرين، كانا في مقهى، دخان الحشيش مدوخ وبليد، رائحة الرجال والنساء المدوخين ثقيلة، وهم في ملكوت ناء، ضحكت إحداهن وغمزت لناجي، وجدنا الرجلين المخدرين، سردا حكايات منمطة عن الكاتب الراحل كنا قرأناها مرارا، كذابان - قلت لناجي - مدعيان إن عمريهما لا يتفقان مع زمن الحكايات..

اختلفت معه بشأن الحواريين الطفيليين الذين يتغذون على ظلال واهنة من شكري ويشيرون غبارا حول سيرته بولاء يستثمرونه، لم يعنه كمّ الزيف والمبالغات والآخبار الملققة في حكاياتهم بقدر ما كان متلهفا لمعرفة شذرات منسية من أعمال شكري وهو يدون ملاحظاته لكتابة دراسة عنه:

- قد يكون كتابا مهما إن غالبت كسلي وانتهيت من كتاب سقوط المدن..

ثم ينجزه - وما ذكره لي في رسائله التي ستشكل كتابا رائعا في مناجيات العشق - لا يرقى إليه كتاب صغير عن أعمال شكري، هكذا أعلنت له:

- انت تجيد كتابة الحب أكثر من أي شيء آخر..

- بل أجيد ماهو أهم: الحب نفسه..

عند انتهاء الملتقى قال لي بحسم الواثق وحدوس العاشق:

- انا موقن من أننا سنحرق كل السفن لنبقى معا إلى ما بعد

النهايات..

ضحكت من يقينه، قاومت فكرة الحب، لكنه غمرني بطوفان رسائله، بعد لقائنا في عمان، و بين مناورات القلب ومحاورات العقل ومحاذير الريبة بالرجال أتحت له آخر الأمر أن ينتشل روعي من جغرافيا البلاد المتصدعة، يغذيها بالرغبات وأحلام الحرية، يشحنها بالأهواء ويحققها

بنزق الغرام، أيقظني من سباتي وارتضيت العشق الذي لاحقني به، هو الذي لبث يتوقع ظهوري كنبوة في حياته..

(حياة)

ناشدت القلب: كن مدينة كي تؤول اليك الحياة، أمرت الجسد كن فضاء كي أنال نعمة عبورك فيه، أيتها المرأة السؤال، أنت الإجابات والتأويل والإحالة، يا بلاغة الخالق فيما خلق، لست أجمل النساء ولكنك الأروع بين أمازونات الحنان، أيتها المقاتلة على فرس الضياء، لست الأشد بسالة بين البشر ولكنك الأصدق جناتا، واهبة الزهو لعاشقك، ماحة الهدى لمن يحبك، هلا ترجلت في مدينتي؟؟ أما آن لظلك أن يحط في محطة أو ميناء؟؟ أما يجدر بي بعد عناء الدهور التضرع في رحاب بهانك؟؟

ممتن لك حياة البابلي، كنت أعلم انك ستبزعين بلا مقدمات وبلا وعود مسبقة، كنت أتوهمك في وجوه بعض النساء، إنما كنت أفقدك لحظة أمارس الحب معهن، كنت أخذ الجسد فتسلمني المتعة إلى اليأس، ليست هذه إمرأتي، ليس هذا رجائي فأستغرق في النشوات العابرة، تسحبني الهوة وأستسلم لها غوصا في عتمتي، كنت أتوقع ضوءك لأعرف من أكون وكيف يولد رجل آخر من ضلالي، بك حزت جوهرى واستعدت النفس من غروبها الوشيك..)

كتبت له

: كل ما في الكون مسير بطريقة غامضة يحكمها الإيمان والمصادفة، أنت أمنت بوجودي فأتيك في محض مصادفة..)

حين عدت لبغداد من طنجة واصلت كتم الحب كي لا يفوح من رانحتي، خنقت الرغبة فلا تنسدل من نبراتي، موهت نظرتي فلا تفتضح

أشواقى تحت المصابيح الواشية والعيون الراصدة أو يكتشفها المسلحون وهم يتحققون من هويتي لدى نقاط التفتيش في شوارع بغداد.. كنت موقنة أنني مفقودة في كل حال، بغداد تلتهم أناسها، وموتي مسألة وقت، ماهو الوقت؟؟ ماهو الموت؟؟ بل ماهي بغداد؟ غول؟ قدر؟ ثقب جبار أسود سينتهي بالتهام نفسه؟؟ البيت في حي الداودي وعملي في حي الكرادة، سيارة الأجرة تقلني كل صباح وسط الدخان وبين مناهة الجدران الكونكريتية التي تقطع أوصال بغداد أصحاب الموت كل صباح وأمازحه، أسخر منه ويسخر مني..

أستعين بجرعات من الصبر، مع هوس بالعمل، جسدي لا يتعب ولا يصيبه الكلال، النوم؟ أه النوم وحده يثبط عزيمتي، أذهب إلى عملي وأعود مطاردة مرعوبة، أعرف انهم يترصدون خطوتي وأنفاسي أينما إتجهت، الكل يترصد النساء: المارينز والمسلحون والمتشددون والميليشيات ورجال المؤسسة التي اعمل فيها.

الببغاء الجميل ينتظرنى، الببغاء يناديني، له صوت ولد في اول البلوغ، جاف ومجروح ومداهم:
يصرخ:

- حياة.. سلام، سلام..

في بغداد يتشابه الجميع ليختلفوا أكثر ويقتل أحدهم الآخر، لا قانون إلا قانون الأقباصي في الحب والموت، في الكراهية والنسيان، لو تخلت عن عملي في المؤسسة الصحفية أموت جوعا، أعمل كمراجعة للكتب قبل الطباعة، رئيس المؤسسة يزين مكتبه بثلاث سكرتيرات جميلات ورجال حماية مدججين بنظارات سود ومسدسات، مقر مافيا، ربما هي مافيا من طراز خاص، ضرورة القوات المغمس بالتنازل تشعرنى بقدر من الابتذال، أتقى الموت بالذل، لا بد من دفع ثمن لحياتي وحياة الآخرين، الجميع هنا يفعل الأمر ذاته، أبرر؟ ربما، ولكن لمن أبرر والكل يمضي في الطرق ذاتها؟؟ يريدونني على شاكلتهم، فأتظاهر طلبا للنجاة،

لا بد من أقتعة في بلاد الموت، شعب كامل يقيم في هوية القناع،
رئيس المؤسسة المتشبه بالحكام والأباطرة، مراوغ، بياع مواقف
وصياد نساء، لا نراه إلا وسيجاره الهافاني في فمه، يهبط من سيارته
المارسيديس صحبة فتاة جديدة كل يوم..
أرسل لي قبل أن أحسم أمري وأرحل إلى عمان بطاقة دعوة مع
ورقاء رفيقته الحالية لحضور حفل توقيع عقود مع شركات أجنبية:
ست حياة يبلغك الأستاذ تحياته ويسره أن تشرفي حفل توقيع العقود
الجديدة الذي سيحضره الجميع..
- هو يعرف قبل سواه أن حياة البابلي ليست من رواد السهرات، ولم
يكن هذا من متطلبات عملي في المؤسسة..
- سأبلغه اعتذارك ست حياة..

بعد ساعة رأيته يقف أمام مكتبي وسيجاره بين إصبعيه وعلى وجهه
تلك الإبتسامة الغامضة :
- نهارك سعيد ست حياة، من زمن لم أتشرف برويتك في مكتبي،
تعلمين أنت إنسانة عزيزة علينا..
- أنا لا أدخل مكتبك إلا إذا طلبتني لمناقشة أمر يتعلق بالكتب التي
أراجعها أو إذا حدثت مشكلة في العمل..
- ست حياة هل لي أن اعرف سبب رفضك حضور حفل المؤسسة؟؟
- هذا شأن شخصي جدا لا يتعلق بعملي وحدوده، وتعرف أنني لم
أحضر أية مناسبة تحتفلون بها من قبل..
- أهذا ولاؤك للمؤسسة التي تعملين فيها؟؟
- ولائي يحدده جهدي في عملي ودقة أدائي..
- لاينكر أحد جهدك، وللمؤسسات الكبرى متطلباتها المستجدة ست
حياة وأنت من موظفيها الكبار..
- لست غير موظفة بسيطة تراجع الكتب وتدققها قبل دفعها

للمطبعة..

أنت إسم معروف لا تتواضعي، ويشرفنا ان تكوني بين كبار المدعويين الليلة إلا إذا..

- إلا إذا؟؟

- كنت لاتقدرين مؤسستك وضيوفها..

- لا علاقة لهذا بالتقدير، أنا أقدر نفسي وأعرف أين أضعها..

- بمعنى أن مكانك ليس بيننا ست حياة؟؟

- أعتقد أننا توصلنا أخيراً لهذا، مكاني ليس هنا، اعتبرني مستقبلة..

- بل اعتبري نفسك مفصولة، سلمى ما بعهدتك لورقاء..

ورقاء تلك الفتاة البسيطة باهرة الجمال التي كانت عاملة في كاثيتريا المؤسسة بعد مقتل والدها حارس البناية في حادث انفجار وسرعان ما انضمت إلى فريق البنات الملحقات بمكتبه ولم يطل بها الوقت حتى صارت الخليفة العلنية ثم بدأ يستخدمها طعماً يقتص به عقود الإعلانات من الشركات الأمريكية وغيرها، يرسلها لهم مغلفة بأرقى الثياب والمجوهرات والعطور التي يشتريها لها من بيروت ودبي في رحلاتهما المشتركة، ثيابها لا تعني أحداً في مصيدة الغنم قدر إهتمامهم بساعات المتع التي توفرها لهم هي وصاحبات لها كانت تستدرجهن لحفلات مدير المؤسسة التي يحضرها ممثلو الشركات الأجنبية، بدأت تجني عمولات بالآف الدولارات، اشترت منزلاً فخماً وسيارة حديثة، وعندما تقدمت في كسب العقود الكبيرة تدفقت الملايين بين يديها وبدي صاحبها، كانت مفاتيح العقود السرية مع الشركات الأمريكية في يد ورقاء التي كشفت عن قدرات كبيرة في إستغلال جمالها، تحولت من عميلة صغيرة للإعلانات إلى وسيطة بين بعض كبار الشخصيات والشركات الأمريكية وارتفعت عمولاتها لعشرات الملايين، حينها خشي مدير المؤسسة - أمام غواية الملايين وصعود أسهم ورقاء - أن يفقد

هذه المرأة التي يمثل جمالها وقدراتها كنزا لم يكن ليحلم به، فاقترح عليها أن تتزوج ابنه، بعد الزواج تضامنت مصالح الإبن الذي يحمل تخويلا للتصرف بأموال والده - مع ورقاء فاتفق العروسان على تجريد الأب من ملايينه التي جنتها ورقاء بخدماتها الجنسية، ووجهها له الضربة التي قضت على مؤسسته وجرده من كل سلطة، تركا بغداد وعاشا ما بين بيروت ودبي، ورقاء بجمالها وملايينها غدت نجمة الحياة المخملية ولاعبة روليت مدمنة في كازينو لبنان وصاحبة صالون يحضره الفنانون والساسة وتروج فيه عقود الشركات متعددة الجنسيات..

صرت مطاردة من مافيا الأستاذ مدير المؤسسة والجماعات المسلحة التي اختطفت بريسكا، كانوا يلاحقوني أينما اتجهت، وفي انتظار أن ألتقي ناجي و تندبر أمر حياتنا في أيما أرض، بدا البقاء في بغداد مجازفة حمقاء والسفر اليه ضربا من مستحيل، تناوبته المعضلات فبيننا تواريخ يانسة من تجارب الهوى وركام من خيبات الزواج وبيننا كدر علاقات عربية وأقدارها التراجيدية، هو غير قادر على المجيء إلى بغداد، وبلاده لا تمنح تأشيرات للعراقيين، وليس بوسعنا أن نلتقي إلا في بلد ثالث، كيف ينشأ يقين بالعشق على هذه الصورة؟ لا أسأل، وإذا تساءلت لا أجد الجواب، كان حبنا قدرا بتدبير كأنه الخرافة، حب يقتضيني أن أعيد تشكيل علاقتي بنفسي والامكنة والبشر..
يهاتفني ناجي:

- حياة البابلي اقترحي شكلا لحياتنا، أرتضي أيما أمر ترينه..
- هو الحب وحده أفق حياتنا، كيفما ارتضيناه، أينما سنكون معا في بغداد لو أتيت الي أو في سواها إن استطعت الوصول اليك..
- سأتبعك حتى الجحيم..

- اذن ستكون في بغداد حتما لو تبعيني في يوم ما - فهي الصورة
المتحققة للجحيم..

الكراسة 15 رؤيا العشق

مرارا ظهر لي كالرؤيا قبل أن نلتقي في طنجة، ولم أعرف من يكون، لم أتبين ملامحه، الحلم خادع ومراوغ، كان يسير في مدينة حاشدة بالبشر، إزاء نهر عظيم، المدينة مدارية غبارية والهواء ساخن كرؤيا الحب، اسير في الاتجاه ذاته انما احتمي بظلال صف من اشجار البونسيانا المثقلة بزهور قرمزية، بغتة بدا لي قريبا جدا حتى لأكاد المس يده ووجهه وشعره، أكاد..

سرواله الجينز أسود مع قميص أصفر، الرؤيا ماء، واللون يسيل على الأفق على النخل على التلة الحجر، لم أتيقن من لون عينيه لم أميزه من مدى حلمي، فكرت لحظتها حسبي أنني لمحت هياته ووجهه في الأفق الماني، إنما كان المرأى مغبشا و شعره الجعد الطويل يكاد يلامس كتفيه يتطاير في الريح الساخنة، بدا مترنحا، هل كان ثملا؟؟ وحيدا وساهما يمضي في التيه، الحلم يمسي لازمة موسيقية تتردد في بعض الليالي وأراه ولكن هذه المرة في مراكش، كنا معا في ساحة جامع الفنا نتفرج على الحكواتيين والمهرجين والحواة، ثم أجدنا في الرباط مقهى على البحر أو عند السور القديم وسط السوق نشترى أوشحة صحراوية مصبوغة بالف لون وخفافا من الجلد وبعدها أفقده، وأجدني في حلم آخر في القاهرة، أهي القاهرة مرة أخرى؟؟ قال لي نعم، انه ينتظرني في مقهى الحرية في (باب اللوق) منذ ثلاثا وثلاثين عاما، لماذا ثلاثا وثلاثين؟؟، لم أعرف، لم يقل، جالس يحتسي قهوته ويديه كتاب (استانبول) لأورهان باموق، يدعوني لاحتساء الشاي ويحدثني عن نبوة

لقاننا التي راودته من أول الصبا....

أفئق من الرؤيا لأراني في بيتي ببغداد وهو معي، القصف يتواصل
والنيران تلتهم كل شيء..

تنهمر القرائن في لحظة الجنون وتتبدى الرؤيا كحقيقة: امرأة تفيق
من سبات الجسد، و الرجل مشبوك بتاريخها، هل كان يعلم؟ من أين له
ان يعلم والسبل بيننا محووة و الزمن خراب؟

ليس بيننا غير رياح العوالم المتقاتلة، ليس بيننا من حدود سوى
جغرافيا الدم التي يرسمون بها المدن العربية على وجه التاريخ الملقق..

اختلطت علي الأزمنة والتواريخ، لقاوننا الملتبس كان مفعما بغبار
الجنون، حسيا وصاعقا كم عاما مضى؟؟ لست متيقنة، لست متأكدة، و
ماذا يهم؟ ما الذي يعنيه الزمن لمن انقذف خارج أفلاك التقاويم؟؟ صعقت
عندما رأيته في بيت سمير بطرس..

أقام سمير بطرس مأدبة عشاء احتفاء بي حين وصلت عمان، لماذا؟
قال لي هنا أصدقاء يودون التعرف إلى ما حدث في بغداد خلال هذه
الحروب المؤبدة، أحد ضيوفي كاتب وباحث في انهيار الدول ومهتم
باللحظات الفاصلة في سقوط المدن..

لم يخطر لي أنه هو..

كنت مرتبكة ومستغرقة في همومي، أتحاشى الظهور في المحافل
اشفاقا من سرد سيرة كوارثنا، الغرباء لايعنيهم الأمر، أرجوكم كفوا عن
ترداد حكايات عذابنا..

- نريد ن نعرف، أنت شهدت ما جرى فلا تكتمي ما عرفت..

- ساكتيها ذات زمن..

من أجلي وأنا - صديقة زوجته الشاعرة لميا- دعا سمير حشدا من
أصدقائه ومعارفي ومطرب مقامات عراقي، وقدمني إلى الحاضرين
بطريقة احتفانية وهو يفتح ذراعيه مثل باشق محلق:

- الباحثة العراقية السيدة (حياة البايلى)..

الرجل - الذي كان يجلس منفردا وظهره نحونا في الزاوية البعيدة من غرفة الإستقبال - ما أن سمع إسمي حتى نهض و إتجه نحوي مسددا نظرة مستقيمة الي، كان هو، امتد بيننا مسرى لهب، إنه هو، ما الذي جمعنا هذه المرة؟ أهو قدرنا الذي ينسج مصيرنا؟؟ شعره الجعد كان أقصر قليلا وشارباه لم يشذبا، اشتعلت اللحظة، تداعى الزمن، غامت عيناى، غاضت الأضواء واختفت وجوه المدعوين، تلاشت أصواتهم وما عدت أسمع غير أنفاسي المتسارعة ولا أرى غير وجه الرجل المقبل علي، لم أبه بما فكر به سمير بطرس وضيوفه لحظتها، تقدم منى وعيناه مخضلتان بالدمع وإنحنى بتهديب ملكي وقال بصوت مرتفع ليسمع الجميع:

- سيدتي الجميلة أية مصادفة؟؟ هو القدر مرة أخرى يتدخل ليجمع بيننا، اكتشفت أن لي جدا عاش في العراق زمن الوالى داوود باشا، لعلك قريبتي ونحن من سلالته، وفي الحقيقة ذلك لا يعنيني كثيرا فأنت قريبة روعي بلا رابط دم أو نسب، أنتظرك منذ دهور، ترى ل ماذا تأخر لقاوننا كل هذه السنوات؟

صمتت، ألم نتحدث عن كل هذا من قبل؟؟
، مالذي يمكن أن يحدث لنا؟ وقد تحققت الرويا؟ أخشى النهايات القصوى، قلت لنفسي..

مد يده إلي، أصابعه كانت تهذي لهبا، راحة يده نضرة شبه بتلات زهرة منوليا، عبقت القاعة بشذا ياسمين وزعت لميا زهوره النجمية في صحون بلورية صغيرة على مناضد الزوايا..
سحبت يدي من يديه اللتين تشبثتا بأصابعي، خيل الي أنه سيبقى ممسكا بها حتى الأبد.

شممت بخورا رأيتنا معا نطوف بغداد يوم عيد، (أشعلت لميا مباخر وزعتها في القاعة) أخذني بخورها إلى عيد بغدادى، في العيد يرهقني الأسى، ما العيد؟؟ لم أكن معنية يوما بالعيد، لعله هو العيد..

سمعت ضرب طبول وفاحت من حولي رائحة الحناء، ونحن نطوف حول أضرحة الأولياء..

في العيد تتولد الفرحة من الروائح: التوابل المخلوطة الشهية لصنع (الكليجة) تسميها أمي الحوانج، لونها أصفر شمسي وعبيرها ساخن توقظنا أمي قبيل الفجر يقوم اخوتي الثلاثة هاني وماجد ومهند بتوزيع لحم عجل الأضحية على الجيران ويكون القصاب قد أنهى مهمته ورحل حاملا جلد العجل ورأسه وأطرافه، ينصرف أبي إلى إعداد الشواء على موقد الحطب، يرص السفافيد فوق سلك مشبك، بينما تعد أمي لحم الهبيط تطيبه بالملح والكارى وقليل من الكركم وتضع الإناء على جمر أعد منذ الليل في الفناء خلف البيت، تهيء الرز البخاري بالكشمش واللوز والزعفران والبصل المحمر، وتكون قد صنعت حلاوة الرز والمهلبيات، أشم الآن عبير الزعفران الساخن..

وجوه ريانة لنساء بعباءات حرير تخشخش خلاخيلهن الذهب في كل خطوة، يدخلن الحضرة القادرية لزيارة الشيخ عبدالقادر الكيلاني صباح العيد محملات بالعطايا وعشاقهن يتربصون بخطواتهن المتربثة وسط زحام العيد..

ثانية أجدني مع قريباتي وهن يظفن في أزقة الكاظمية العتيقة بين بيوت ذات شرفات وشناسيل، يوزعن هبات النذور والحلوى على المتسولين عند باب الدروازة وباب القبلة، بغتة رأيتته معي، دخلنا الصحن الكاظمي من باب المراد، أم تراءى لي ذلك؟؟
أيقظني من تخيلاتي:

-عندما أزر بغداد خذيني إلى حيث أجد مصادر عن الفيلسوف الطوسي أستوضح الحقيقة في سقوط بغداد ممن كان وزيراً لهولاًكو، ارشديني إلى مكتبة المخطوطات فأنا أعد كتاباً عن سقوط المدن وأريد إتمامه هذا الصيف بأهم فصوله عن بغداد..

تعاودني الرؤيا، رجال بأثواب طويلة وعباءات صوف نجفية رقيقة محلاة بتطاريز من أسلاك الذهب تتدلى على أكتافهم تحت الكوفيات يحيطون بشاب يضع عباة بيضاء، يطوفون به حول الضريح، عروس جاؤوا يباركون جهاز عرسها في مرقد الكاظمين، نساء مسنات يدعكن أساور ذهب العروس على شبك الضريح الفضي متبركات، وأخريات يحملن ربطات ثياب العرس فوق الرؤوس ويدرن حول ضريح الأمام موسى الكاظم، هناك جاءت هالة، أمسكت يدي ولم تفلتها، كانت تتابع طقوس التبرك لتكتب عنها، صحبت هالة حين كنا طالبتين في جامعة بغداد، يد هالة تشبثت بيدي حين لمس صدرها رجل أثاره جمالها، كادت تصرخ..

- اسكتي لانريد فضائح، سنكونين أنت المذنبه في آية حال، انت تثيرين شبق الرجال..

يتشبث بي ناجي كطفل ضال، كلنا ضالون، قلت في سري .. عتمت نظرتة واكتست ملامحه بما يشبه الألم، مرت موجة كدر على محياه، إبتسمت وأنا أستكشف نظرتة الغائمة، أتعرف تلك الرعشة الخفية على زاويتي فمه وشفثيه الشهوانيتين..

قادني إلى حيث كان يجلس
-هذه الأريكة المزدوجة لنا وحدنا ولن يراحمنا أحد..

تخرج وجهه وانقلبت المواقف وبدا مرتبكا مشوشا وارتشف ما
تبقى من النبيذ في كأسه بجرعة واحدة..
قدم لنا سمير بطرس المقبلات:
لن أخدمكم بعد، هذا بينكم جميعا خذوا ما تشاؤون وتذوقوا الأطايب
التي هيأناها انا ولميا، ولا تعتمدوا علي..

قدم لي ناجي نفسه في طنجة رجلا آتيا من غياهب التاريخ أو جنوح
الخرافة، قال لي ونحن نقف أمام البحر بعد تخليه عن لعبة القناع:
- أنا درويش هاتم وكاتب يدون حياة المهمشين والمدن الغاربة،
معني بسقوط المدن وزوال الدول وبغداد بخاصة، وخبير في العلاج
النفسي، أجمع خبرات العيش عن أناس مقموعين ومكبوتين وأرويهما في
يوميات عابرة للزمن، كنت أهيم في ضلالي باحثا عن روح ناجي
الضائعة، كنت بارعا في تبديد حاضري، ممعنا في الضلال، كانت بي
شهوة فاتكة لتدمير النفس والعالم الفاسد ليتحلل العالم، (عندما تدمر
نفسك يفنى جزء من عالمك وتسري الغنغرينا في جسد العالم، ولكن هل
ينتهي كل شيء؟) زواج فاشل وولد يعيش مع طليقتي..
أرعبتني عدميته، ما الذي كان سيفعله لو شهد ماشهدت من حروب
وفواجع؟؟

لمس كتفي فأجفلت..

معذرة لم أكن.. أعني .. أعتذر

- أبدأ، أنا التي تبدو نشازا في كل هذا، أنا لم أعتد أن يلمسني أحد..

- التواصل مع الناس يربكني..

- تخشين التواصل؟؟

يل أحاول التكيف معه، في بلادي نسينا هذا، صرنا نتواصل
بالسلاح والكرائية، بقطع الرؤوس أحيانا، نتواصل بخيوط من الخوف
والريبة، فتنقطع بنا السبل، انه لشيء ممتع ان يلمسك أحد..

- من أي أرض أتيت، أين كنت كل هذه السنوات؟؟
في الجحيم، أحرس بوابات الفرار..
يا لسعادة الجحيم بامرأة مثلك..

شهران اثنان كانا كافيين لتغيير أقدارنا، وأنا في عمان هاتفني من القاهرة:

- غدا أسافر إلى البرازيل بدعوة من جامعة ساوباولو، سأقدم محاضرة عن كتابة المهمشين..

- قد تفتنك البرازيل فتبقى، بلد لاتيني مدهش، أعيطك..

- لو ترافقيني، تسقط الفوارق بين الأمكنة والأزمنة، أما وحدي

فسأكون هامش الهامش هناك ما جدواي بدونك؟؟

نوع من جنوح المصادفات، من القاهرة إلى ساو باولو يخطف الطائرة إرهابيون، يتغير إتجاه الرحلة إلى اليونان التي ترفض هبوط طائرة مخطوفة في مطار (الفيثيروس فينيزيلوس) الدولي في أثينا فيتجه الطيار إلى مطار لارنكا في قبرص..

يهاتفني من المطار (الطائرة المخطوفة لا تزال تربض في مطار لارنكا، قيل إن عطا أصاب أحد محركاتها وقبضوا على الخاطفين، غيرت خططي لن أذهب إلى ساوباولو، اعتذرت من الجامعة، سيرسلون طائرة لإعادتنا، طلبت فيزا من المطار سوف أبقى هنا بضعة أيام، ..هو القدر غير وجهة رحلتي إلى أقرب البلاد إليك، هل تاتين؟ نكتشف الجزيرة معا؟ أنتظرك في نيقوسيا.

- أحاول وأبلغك.

- شارع مكارايوس في نيقوسيا، ثمة مقهى (أثينا) نلتقي بعد يومين

حاولي، أقهرني المستحيل.

حدثت صديقتي هنادي عبد المسيح عن الفكرة، تحمست للسفر مع زوجها وطفليها إلى قبرص وبيسر كأنه المعجزة حصلنا على تأشيرة خلال يوم واحد، حجزنا على الخطوط الملكية الاردنية ومن مطار لارنكا استأجرنا سيارة إلى ليماسول، الليل، وحشة طريق محاذ للبحر أنوار كشافات المطار الدولي ترش اضواءها على المرتفعات وتعمق الظلال وتضخم الأحراش على جانبي الطريق الضيق الموازي للبحر، نسانم الليل الساخنة تدوم في المنعطفات.. أمضيت ليلتي معهم في فندق (أبولونيا بيتش) وشرفتي تطل على المتوسط، لم أنم، كانت فترة مغامرتي المجنونة تزلزلي، وفي الصباح حملت حقيبة يد كبيرة بها حاجياتي وسرت في الشارع الموازي للبحر، أعمدة المصابيح منظمة بمسافات وبينها أشجار منسقة وعلى الأرصفة فيوض من زهور الجيرانيوم والبتونيا وقد علق زينات عيد الميلاد بين الأعمدة: عقود من لؤلؤ الضوء والألوان..

رائحة البحر تلفح الوجوه، استأجرت سيارة إلى نيقوسيا، الطريق جبلي فردوسي والقرى تضوع بشذى الصنوبر والزيتون، توقف السائق الذي يتحدث الإنكليزية عند محطة للوقود ونزلنا في الإستراحة، تناولت قدحا من القهوة السريعة وقطعة من الكعك اليوناني بالعسل.

الساعة الحادية عشرة كنت في المتنزه الكبير على حدود نيقوسيا اليونانية، المتنزه ممتد بمحاذاة الجدار الفاصل بين قسيمي نيقوسيا، ومن مقهى صغير عند مرصد للجيش التركي يطل جنود أتراك أعلى السور يحسسون المياه الغازية ويدخنون، أقف لدى البوابات الكبيرة تحجب عني اشجار الصنوبر ودواليب الهواء وأكشاك الباعة رؤية المشهد الكنيب للجانب التركي من المدينة..

شارع (مكاريوس)، المقهى الدافئ الذي يعزفون فيه موسيقى

البوزوكي، ويعلقون صور كازنتراكي ويبيعون كتبه ويعرضون لقطات مكررة من القرية الكريتية الصغيرة التي صوروا فيها فيلم زوربا. هل صدقت وهمي وأنا سنلتقي هنا؟؟ نعم فعلت ولم اعد إلى ليماسول حيث كانت تنتظرنني (هنادي) في فندق(ابولونيا بيتش)

نعم حدث أننا تقابلنا في الساعة الواحدة ظهرا، لبثنا صامتين لبرهة لا أدري مداها ثم انفجرنا بالضحك مثل مجنونين وتعاقتنا ونحن غير واثقين من وجودنا معا في هذه المدينة الممزقة بين ثقافتين شرقية وغربية، إسلامية وأرثوذكسية، هنا مدينة الحاضر والزمن يمضي بها إلى الغد على ايقاع قبلات العشاق والسيارات ذات المقود إلى اليسار وموسيقى البوزوكي والأزياء ذات الطراز اللندني ونكهات الشاي والقهوة، وهناك مدينة هرمة مدفوع ثمن خرابها من أصولية عسكرية، مبانيها آيلة للانهار، مقاهيها رثة وأناسها أفلتوا توا من كتيبة مشاة عثمانية مهزومة على مشارف ديار بكر أو القسطنطينية..

عندما طلب ناجي القهوة التركية اعتذرت النادلة بشيء من الإمتعاض المهذب:

.. لدينا قهوة يونانية تقليدية، نحن في قبرص اليونانية سيدي..

- فليكن الينا بالقهوة اليونانية التراديشنال..

عندما أحضرتها كانت هي القهوة التركية التي لبثت تتصدر مواندنا حتى بعد انهيار السلطنة وزوال دولة بني عثمان ونحن نصر على أنها قهوة تركية ..

همس لي ناجي:..

- التسميات علة من علل جمودنا، أحنى لليونان التي تخلصت من بقايا العثمانية..

تقدم عازف البوزوكي منا وعزف أغنية حب يونانية قبرصية:
(ديكسيرو بوسا إيسا ساغابو) لأدري كم أحبك !!

حجزنا غرفتين في فندق كليوباترا في شارع مكاريوس،
أخبرت هنادي انني سأبقى في نيقوسيا كانت هي وزوجها يسهران
في ناد ليلي ضاج بالموسيقى الصاخبة وسط ليماسول ولم تسمعني جيدا
وأنا أخبرها بوصول ناجي..

أمضينا العصر كله نتجول، زرنا غاليريات للفنون ومقاه وبارات،
جلسنا في الجو البارد على مصاطب الأرصفة قبالة شجرة عيد ميلاد
ضخمة، سرنا في أزقة ضيقة فقيرة يسكنها الأرمن من عمال وخبازين
وخباطات وحدادين.

- هل تبقى هنا وندع العالم لأهله؟؟

- لا حرية لنا في خيار مجنون كهذا، البلاد الغريبة لا تقبلنا بهذا

اليسر..

- هل نحن عاجزان إلى هذا الحد؟؟

- سيأتك جوابي في وقت آخر..

في الفندق، نشجنا، انتحبنا، تعانقنا حتى الهلاك وضعنا الحرية بين
أيدينا وداعبناها وغينا لها، على إيقاع التانكو من قناة (ميزو) رقصنا،
احتسينا أشربة متنوعة، لم نخدر لم نفقد سوى الخوف فاطلقنا نغني
ونرقص ونضرب الأرض بأقدامنا حتى تهاوينا والعرق يتفصد من
جسدينا، قلنا للحرية:

- نحن رعاياك يا سيدة..

ضحكت الحرية من صبيانيتها وأطبقت عينها وقالت:

- بوسعكم اصطحابي حيث تشاؤون، خذوني إلى بلادكم، لاتترددوا،

أريد ان أزور بلادا محرومة مني لأعرف قيمتي وجدواي..

قلنا لها: سيقتلونك ويقتلوننا..

ضحكت الحرية: ألهذا الحد؟؟

- يكرهونك، نحن نخاف عليك، إلا إذا..

- ماذا؟

- إلا إذا تنكرت ودخلت في زي لا يثير الريب وأبدلت إسمك.

- يا للسخرية، أتريداني أن أنتكر؟؟ أنا أنتكر؟؟

عندما رأينا غضبها منا ذوبناها في كأسينا واحتسينا رحيقا سحريا،
وحين أفقتنا من ذهولنا العشقي وجدناها قد تحولت إلى موسيقى، كانت
تتماوج في مقطوعة لشوبان، عاطفية وشبقية بلون اللهب..

في اليوم التالي أخبروا ناجي أن طائرة ستقل المسافرين المحررين
من الطائرة المخطوفة مساء الغد وعليه أن يكون في مطار لارنكا منذ
الساعة الرابعة عصرا..

اتصلت ببغداد لأطمئن على شقيقي هاني، هتف بصوت جريح:

- حياة راح سرمد، خطفوه، انتهيت، يا للسخرية، حياة،

حميته ثمانية عشر عاما لأسلمه لعصابة من القتلة؟؟ أحتاجك حياة،

أرجوك ألا يمكن أن تعودني، لا أحد لي غيرك، تعالي حياة..

- سأعود، لا عليك، لا تهمني مقابلة مفوضية اللاجئين، أنا قادمة

من الغد

الكراسة 17

يا صياد السمك

أفئق من نوم سباتي وأنا في السرداب، خالية الوفاض. الا من الحب،
أغتسل بشيء من الموسيقى، أقلب فكرتي الخاصة عن الحب، أن تحب
يعني أن تكون شجاعا لتنجو من كل عقدة وعقيدة ان تكون حرا كعاصفة
ومتدفقا كشلال، أن تحب يعني أن لا تلتفت إلى الوراء وتتقدم في
المجازفة، تنفذ روحك من التحلل في تفاهة التفاصيل اليومية، لاشيء
أقدر من الحب على تحويل الحصى إلى ماس وزمرد، الحب أن لا تتمسك
بشيء سوى الحلم..

لا أميز الوقت ولا المكان، يأتي العالم الي، أفتح عيني، أراني واقفة
أمام باب مشرع، إذن أين أنا؟؟ تتناهى إلى سمعي أصوات رصاص،
رشاشات تطلق زخات من الموت، هدير دبابات، ونباح كلاب وصرخات،
أطل من نافذة الممر وحولي أربعة أبواب: أين أنا؟ هو ذا دجلة وأنا في
شقة تبدو في الطابق الرابع والدبابات تعبر جسرا ومسلحون يتراكضون
بين الأزقة، أنظر من نافذة أخرى:

أرى نصبا من السيراميك في ساحة تفضي إلى الجسر، وإذن، أنا في
بغداد، هذا شارع حيفا، وذا جسر الشهداء ظلمات وظلمات وليس سوى
ومض الرصاص وبصيص فوانيس في بعض النوافذ، أمواج دجلة في
الليل تضرب المسناة الحجرية والقوارب المربوطة إلى مراس صغيرة
من الكونكريت، تضطرب القوارب في وحشة الماء، صوت ناء ملتبس
بين أنوثة ورجولة يردد بنبرة مجروحة لعلها تأتي من حي الصيادين في
الشوكة:

ياصيد السمك صيد لي بئنة
عجب أنت حضري وأنا بدوية
أريد أبكي على روعي وأنا حي
بعيني حليت الدنيا وأنا حي
لا أنا ميت بشوقك ولا حي

أيعقل أن يخرج أحد للصيد في هذا الوقت؟؟ ويعني أيضا؟؟
خمنت أن الصوت كان ينبعث من جهاز تسجيل من مكان ما
فالصيادون مستهذفون برصاص الأمريكان والمسلحين معا وما عادوا
يلقون شباكهم في الليل..

أحاول أن أتبين المكان أرى باب غرفة موارد، أقترّب، أشم عطرا
يمائل عطري، أرى امرأة ورجلا في السرير، المرأة تشبهني بفارق
شعرها الأحمر الطويل ونحولها، وهو؟ يا الهي، والرجل يشبهه توأم
ناجي، أهذه روياء؟؟ وأنا من أكون؟ وهذه المرأة التي تماثلني يا الهي،
جنون، جنون !!

- لماذا تأخرت كل هذا الزمان؟؟ قل لي لماذا لم تبحثني عني؟؟ ماذا
دهانا؟؟ ل ماذا لم أسع اليك من أول الدهر؟ لماذا تبدد عمرنا وتبددنا؟؟
الوسادة تددت من قيض دموع الرجل، بكيت معه وشاركته الإحساس
بالحيف: لماذا؟؟ وأنا لماذا أنا هنا؟؟

أفترج عليهما كأنهما في فلم يدور على شاشة ليل، أكاد أجن، المكان
ليس بيتي، إنما فيه أشياء أليفة اعرفها، روانح تثير الذاكرة، أكاد أجن..
يطمسان ذاكرة الحيف في فورة العناق، والمرأة تتلقى هبات عاشقها،
بهية أراها وضاعة الوجه تصير الآن في الحب، شعرها الأحمر الطويل
يشعل الوسائد..

يناديهما: آسيا، آسيا محبوبتي، قدري وعلامة المصير..
هي آسيا إذن وأنا حياة البابلي، فمن تكون شبيهتي آسيا؟؟
(بعد زمن سأعرف ان آسيا اسمي المستعار في جواز السفر الذي
أهرب به من الموت..)
أنفرج وأصير كليهما، أصير الرجل والمرأة معا، إتماهى بأثوثها
ورجولته..

يسحب خصلات شعرها، يتشممها، أشمها معه، يلفها على عنقه كمن
يحكم وثاق الملذات على جسده المتوفز في شبقة، كمن يوثق عهدا
بجزء من عناصرها، هوامش جسدها تنيره: الشعر والأصابع والرائحة،
يتشممها، يقبل أصابعها وشعرها، أكاد أختنق، شعرها يلتف على عنقي
أنا..

-أنا أسير عشقك، مجنونك، أنا لك كلي، أنت لي لن يسلبك أحد مني..
تضحك وتدعك صدره، يداه تمسدان نهديها الممتلئين، تحومان حول
بطنها وسرتها..

- معبودتي، مليكتي، قدري، معشوقتي، أهلي وناسي ومطهري،
حاميتي من نفسي ومن زللي بدني ومنتهاي أنت..
تتلاشى في إيقاع الكلام وتتناغم مع النبر الرخيم لصوته المتهدج،
يتوافق الجسد مع مثيله، المرأة تغيب وتشف لتنتهي إلى جنية نورانية،
يبدو من المستحيل عليه أن يعيد تشكيلها كجسد بلموس يُشم وبنثم
ويؤخذ..

أراهما، أكاد المس وأشم روائح جسديهما ورائحة الرصاص، أحس
الخطر يدب في الأعضاء كأنها أعضائي كأن الرصاص اخترق لحمي وهو
ينز في الهواء في صدع الليل، يدركني نعاس ما بعد الحب معهما..
الجو خائق تثقله رطوبة النهر وعرق الأجساد وأشذاء شجر اللبخ
وكافور اليوكالبتوس، يروح الرجل في شبه غيبوبة تجتاح جسده

وترخيه، تقبل المرأة جبينه وتسحب مفرشا مهدبا بمخرمات على جسده العازي..

حين تنتظم أنفاسه تنسل من جواره وترتدي رداءً فضفاضاً بطراز ياباني، نقوشه كلمات يابانية وأوراق صفصاف، تربطه بحزام حريري مجدول..

تحمل أقداح الشاي وصحون الحلوى إلى المطبخ وتتجاهلني، هل كانت تراني؟؟ تظل من النافذة إلى دجلة، أطل أنا أيضا فلا أعود أراهما، أجدني وحدي أمام المرايا في السرداب..

بغداد في الفجر برتقالة لهب أخرج من السرداب إلى شارع المنصور عن يميني نادي الفروسية وهيكल الجامع الكونكريتي البشع بقباب تتوالد من قباب فوق أرض النادي، المبنى الهجين الذي شرعوا بإقامته قبل الإحتلال ولم يقدر له أن ينجز أبدا..

أسير باتجاه معرض بغداد الدولي الذي تحول إلى ركام، من شارع دمشق أمضي نحو شارع جمال عبد الناصر إلى يساري صرح المتحف العراقي و إلى يميني مبنى بريد بغداد، ووزارة الإسكان، أسرع نحو الجسر، والزلزلة تهز الأرض، وبغداد برتقالة لهب، أفصصها وألتهم نار رحيقها، أغص بجمرها، أعدو طوال الليل في أزقة (الجعيفر) و(الشواكة) بين الصيادين ومتسولي (باب الشيخ) عند ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني وفي (الأعظمية) قرب جامع أبي حنيفة أعبّر جسر الأمانة إلى (الكاظمية) واتيّه في شارع (النواب) ثم أعدو باتجاه منطقة العظيمة وأعبّر الجسر الحديدي ثانية، لا أعلم كم من النهارات أمضيت في التيه وأنا أطوف في بغداد، أركض مابين جامع الخلامي وجامع الخلفاء في شارع الجمهورية وكنيسة العذراء، الكنيس اليهودي في الزقاق المجاور مغلق وفي الدبر عوائل من مسيحيي القرى الجبلية يعيشون في غرف وأروقة تحجبها ستائر وحصر، أجلس لدى بوابة

الكنيسة مبهورة الأنفاس، فتعطيني امرأة قدح ماء، الصغار يلعبون في
باحة الكنيسة ولا أجد وجهها أعرفه، ولا أجد أحدا من أهلي، أين ذهب
الجميع؟؟ نسيت أنهم ماتوا، لكن أخي هاني لم يموت..
وعمي الشيخ قيदार؟؟ لماذا يختفي رجال أسرتنا واحدا بعد
الأخر..؟؟

أين انتم؟ أركض كمخبولة وأدق مطارق الأبواب العتيقة المتطامنة
تحت الشناشيل، وأسأل النساء: هل رأيتم الشيخ قيदार؟؟

تفتح لي نساء مرعوبات أبواب بيوت غارقة في العتمة تهب منها
روائح ماء الورد وعبير قرنفل والبنات ناعسات لهن أذرع بضة وضافنر
مربوطة بجلاجل من ذهب وفضة، ينسمن بمراوح سعف لرجال نانمين
أضنتهم الحروب والقيظ واستنفدتهم المتع..
من رأى قيदार؟؟ قيदार لم يموت لكنه رهن غياب اختاره مرغما، لا أحد
يهتم بلوعتي، ما يهم الآخرين من اختفاء أهلي؟؟

مرضعات ناحلات يلوحن لطيور السنونو ويهددن الصغار بأغنيات
عن طائر السند وهند أو يرمنن أغاني لعشاقهن، أرى غبارا يسد الأفق
وسحبا تمطر بردا وعاصفة تقتلع صفصاف الضفاف وتصطفق أبواب
وتعول الريح في الأزقة، غدران من الدم تسيل من شارع حيفا إلى دجلة
تحت الجسر وتتعالى استغاثات نساء ورجال وسط حلقة الليل، أعدو
قرب مستشفى الكرامة حيث ضريح الحلاج، أعدو بين القبور وأشباح
الليل وأبلغ مقبرة الشيخ معروف الكرخي أتفحص الشواهد شاهدة
شاهدة وأذهب إلى مقبرة الصوفي الجنيد البغادي بحثا عن قبر لعمي
الشيخ قيदार، كان أوصى أن يدفن عند الجنيد أو قرب الشيخ معروف
الكرخي، لو مات هذه الأيام ستلقى جثته في الطرقات..

أعود من جولاتي، نوافذ بيتي مهشمة الزجاج والشظايا تملأ الأرض،
الغبار والسخام مكسد على الأثاث والصور..
كتب لي حامد: لاتحزني، طالما أنت بسلام.. حدث انفجار في شارعنا،
وتساقط زجاج بيوتنا، من الغد سأحضر عاملا لتركيب زجاج لبيتك أولا،
هل أساعدك في تنظيف البيت وجمع الشظايا؟
- لا عليك، انا متعبة سأدع كل شيء الآن وأنام..

أهبط إلى السرداب، أخذ ورقة وأكتب اسم بغداد في مربعات على
شكل أفاق وأحجيات، أوزع الحروف على الجهات وألقي الحجاب
صباحا في مياه دجلة، خبرت من جدتي أم قي دار سحر طلاسم الأسماء
التي تخفى عن العالمين، وأخبرتني انهم أخفوا اسمي الحقيقي وأعلنوا
لي اسما للتداول فنجوت من الموت طوال عصور، سألتها كيف؟؟
ومتي؟؟ حكى لي قصصا وحكايا عجيبة عن أحوال النساء كأنها أحوالي،
فرأيتني هاربة من (أور)، كانوا يوشكون على دفني حية مع الوصيفات
العازفات في مقبرة الملكات، لكنني نجوت في غفلة من الدفانين الذين
انشغلوا بدفن الملكة (بوابي) وصرخات الهلع تطاردني من الوصائف
الموؤودات مع قياثرهن وجنوكهن وكؤوس النذور، سحبني أحد الحراس
وسقاني جعة الشعير في حانة سموقان وراء معبد الاله القمر سين،
سكرنا معا، وفي الصباح وجدنتي معي في سرير الكاهنة، هربت وحين
أمسك بي جند سرجون الأكدي جزوا شعري وباعوني سبية في أوروك
مع حشد من السبائيا ووضعونا في معبد إينانا منذورات للعاشرين، وهناك
رأيت الفتى ناجياش فرسمت إنانا تعويذة العشق على جبھتينا، أخذنا
النحاس معا إلى مدينة لجش وسجن حبيبي ناجياش في بيت الألواح،
وباعني إلى الرابي كوديا ووضعني مع محظياته في قصره على الفرات
ولبثت عاما في حريم الرابي الذي أرسلني إلى بابل عندما سنم صمتي

وحزني على حبيبي المسجون في بيت الألواح، واشتراني رجل أكدي علمني النسخ على ألواح الطين بالأسافين وشغف بي شاب بابلي ثم أعتقتي حين قرأ قصيدة حب كتبها لمحبي ناجياش لكن نحاتا آشوريا خطفني وسجنني في مشغله بين مقالع الرخام وراء نينوى وراح ينحت تماثيل الهات على مثالي، ويبيعها للمعابد في خرسباد وأربيلو ونمرود ونينوى، وضعوا تماثيلي في أروقة العبادة حتى استوفيت مصوري حين عشقتني كاهن فرعوني من منف زار بلاد آشور في بحثه عن منجمين وسأل عن المرأة التي صيغت لها هذه التماثيل وعرض على النحات أن يصحبه إلى بلاط أحيرام ملك صور الذي يقدر النحاتين وصناع التماثيل والنواويس الحجرية ليكون نحات القصر مقابل أن يعتقتي، أخذني وعبر معي الأزمنة إلى عصور بني العباس قبض علينا جند هارون وبيع ناجياش إلى والي حران أما أنا فقد اشتتراني تاجر عطور فارسي حتى وصلت إلى (ابونواس) الذي صحبني إلى أرباض الأديرة عند نهر (الزندورد) ونسبني هناك بعد أن دام سكره ثلاث ليال وعاد لي مستغفرا لكني هربت منه لاستفيق في طوفان دجلة وجانحة طاعون قضت على ثلاثة أرباع سكان بغداد، في عصر داود باشا ثم رأيت فلول الجيش العثماني تشعل حريقا في مخازن نפט القوات البريطانية وهي تتسحب إلى ما كان دولة بني عثمان الأقلة، أصحو على طوفان آخر اجتاح المدينة وحاكم استبد بالناس أطاح به غزاة دمروا ما نسيه المستبد، أفيق الآن فأجد الفناء مكتملا وأنا في السرداب أدون قصتي وقصة المدينة..

غفوت قليلا فسمعت صوتا يناديني: ستي زبيدة خاتم، ستي، أعددت لك الفطور وملابسك، الحوذي نعمان ينتظر ليقلك مع سيدي والدك إلى المدرسة المستنصرية قبل مرور موكب داود باشا..

الفصل السادس

كتاب زبيدة

أنباته أول ما التقينا يوم أعاد داود باشا احتلال بغداد أن الجسد يبقى
بنولا والروح هي التي تفتض وتغتصب، علمته معرفة الحب التي آلت
إلي من جداتي الحكيمات: لا تفرط بروحك يافتي، ليس اللحم والدم ما
يخترق بل الروح والفؤاد، أخبرته ذلك ليلة انفجر عشقتنا الجامح على
سطح بيتنا..

جمع الأخبار عني من الوصائف والسقائين وتبعني صبيحة أربعاء
بعد ترجلي من عربة يجرها جوادان أمام الحمام العمومي في يوم
النساء، مأخوذاً بعبير المسك والعنبر الذي يتمواج في غمامة حول
عباتي التي من حرير أطلس سماوي معشق بخيوط الذهب، وتعهد أن
يريني قميصه الأحمر رمز عزوبيته، كنت أخرج للتسلي وروية
صاحباتي في الحمام، المكان الوحيد الذي تخرج إليه النساء، هناك التقى
خديجة ابنة تيمور آغا والأرمنيات الجميلات مريم وأمينة وآزادوهي،
وجارتي اليهودية خزنة بنت يامين، كانت الوصيصة وراني تحمل سلة من
أسل مبطنة بالساتان، فيها صابون حلبي وطاسة فضة وأمشاط عاج
وكحل هندي واسبيداج كركوكي وقبقاب موصلبي بسيورمحبوكة من
أسلاك الذهب ومراهم من طقشند وخطور من سمرقند، تعثرت الوصيصة
قرب جامع الحيدرخانة وانطشت لوازم الحمام فهرع يساعدها وأنا انظر
من وراء خمار الحرير الأبيض، رأيتة يحتفظ بأحد أمشاطي، يتشمم
عطره ويدسه في جيب قميصه، مرات أخر تعمد مقابلتي في الطرق
المتربة المرشوشة بالماء لكنه لم يقترب أكثر ولم يبتعد كان يتشكل شبه

ظل لخطوتي، فإذا لمح نظرتي إنحنى لمروري ووجهه مضرج بحمرة الشغف، أكاد اسمع انفاسه المبهورة كمثل من يرتقي جبلا، لقيته يوم صحبني أبي إلى موضع المدرسة المستنصرية التي بدأ الوالي بتعميرها بعد تدمير تيمورلنك لها ونهب مخطوطاتها،
أبي قال لداود باشا:

- أرجو من حضرة الوزير سيدي أصف الزمان داود باشا أن يسمح لإبنتنا زبيدة رؤية المدرسة فهي ترجو ان تعرف عن خراب بغداد وعمرانها..

- لك ما تريد حضرة معتمدنا إسماعيل أفندي التيمي، في الغد لن يكون عمل ولا بناؤون فأصبح كريمتكم زبيدة خانم إلى المستنصرية..
هناك كان رحالة انكليزي يحمل كراسة ويسجل ما يشرحه له ناجي الراشدي ترجمان جريدة (جورنال عراق) رأيته وارتعش فؤادي وغامت عياني، ألقى التحية على والدي وتجنب النظر الي وابتعد عنا مع الرحالة الانكليزي وصعدا إلى الطابق الثاني، كان يرطن بلسان الإنكليز،، قال أبي:

- زبيدة، عمك عبد الغفور يراك خيرا من أبنائه الصبيان في العلم والتعلم يقول لو كانت زبيدة في بلاد أخرى لجعلوها تعلم النساء، إذا نجح داود باشا في إقناع الباب العالي بفتح مدرسة للبنات ستكونين أول معلمة فيها..

- وهل ستوافق أن أكون معلمة وأخرج للعمل؟؟

- سنرى في حينه يا زبيدة..

كدرني رده، فهو ينقل لي رأي عمي لكنه مذعور من فكرة عملي، عززت روعي نظرة ناجي الراشدي ودعم عمي لطموحي في التعلم فواصلت قراءة المخطوطات التي يزودني بها عمي عن تاريخ بغداد وأحوالها، كنت أوصل الليل والنهار في مطالعة الكتب ودواوين الشعر وخيال ناجي يلازمي وتتردد كلماته وهو يترجم للرحالة الغريب عن

المستنصرية وساعتها العجيبة ومعتكفات طلاب العلم فيها - لبث صوته في مسمعي وأرعرش قلبي وفاض انفعالي وهجا على جسدي..
زرت عمي الشاعر عبد الغفور التميمي في غرفة مكتبته الفواحة بعبير خشب الصندل الذي صنعوا منه منضدته المحفورة وكرسيه وهو جالس أمام مكتبته المتخذة من خشب الساج، في زاوية من الغرفة كان ديوان وثير بأغطية حرير مطرزة يمضي عليه قيلولته بعيدا عن ضجة البيت وثرثرة النساء والوصائف..

- ابنتنا زبيدة إقرأي الطوسي أولا فهو شاهد عيان على ما وقع ثم إقرأي الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي لتعرفي ما نقله الناجون من أهل بغداد، أحضرت لك زيادة في العلم تاريخ مختصر الدول لمار غريغوريوس ابن العبري. ولكن يا زبيدة لم تريدين معرفة أخبار سقوط بغداد؟؟

- أريد أن أتعرف إلى فن المناورة والمكاند لأحسن العيش في هذه الدنيا.

- لكنك امرأة وستكونين في حماية رجل دائما، اليوم والدك وفيما بعد زوجك..

- وإن فقدت الأب و لم أوفق مع زوج؟؟ ألا يحق لي أن أحظى ببعض دهاء لمواجهة قدرتي؟؟

- لن تكوني وحدك..

- قد أكون، من يضمن ذلك؟؟

- زبيدة أنت فتاة جميلة وذات ذكاء وبصيرة..

- ما جدوى الذكاء، سمعت مربيتي روضة تقول: ذكاء المرأة يفسد حياتها..

- هل ترين ذلك أنت أيضا؟؟

- لا أدري، أعرف أن أمي ماتت من فرط حسرتها على انصراف أبي عنها إلى امرأة أخرى من جواريه كما تعلم، كانت مذعنة وعاجزة رغم

ذكائها، كتمت ما كابدت، لو امتلكت بعض دهاء النساء لاحتفظت به..
- من حقه أن يتزوج أو يتسرى، لم يأت بمنكر، كان عليها تقبل
الأمر..

- أهذا رأيك عمي؟؟
- هذا مادرج عليه الناس.

أتصفح المخطوطات التي حملتها من بيت عمي، تأخذني حال من الرويا وبغداد تلوح لي وقد نزل هولاكو على أبوابها وفي يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقي سوراً عالياً وحفروا خندقاً عميقاً داخل السور ونصبوا المنجنيقات بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتبوا العرادات وآلات النفط، أرى الحرب، وقد نشب القتال ووقف قائدهم بعساكره إزاء السور، وأما حال العسكر السلطاني فإنه في يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمانه دهمته المباغثة وثارَت غيرة عظيمة شرقي بغداد على درب بعقوبة وعمت البلد، فارتعب الناس وصعدوا إلى أعالي السطوح والمنائر يتشوفون، فأنكشفت الغيرة عن عساكر السلطان وخيوله وقد طبق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها.

ثم شرعوا في إعداد أسباب الحصار، وشرع عسكر الخليفة في الدفاع والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من محرم، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول تعلو سور بغداد من برج العجمي في ناحية باب كلواذى، وهو أقصر أبراج السور، واقتحم العسكر السلطاني الباب وجرى من القتل والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه..

رأى الخليفة أن لا بد من الظهور، فكر باستئذان هولاكو ليحضر بين يديه فأذن له وخرج في الرابع من شهر صفر ومعه أولاده وأهله وأمر هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذى وشرع عساكر هولاكو في نهب بغداد وحرقتها وألقوا بخزائن الكتب والمخطوطات في دجلة ودخل بنفسه إلى

بغداد ليشاهد دار الخليفة، وعند المساء خرج إلى حيث سجن الخليفة وأمره أن يفرز جميع النساء التي باشرهن هو وبنوه ويعزلهن عن غيرهن ففعل فكن سبعمئة امرأة فأخرجهن ومعهن ثلاثمئة خادم خصي. دام نهب بغداد سبعة أيام لما هجم الغوغاء على المساجد والقصور والأسواق ودار سك النقود وسوق الذهب ودار الحكمة وبيت القضاء والمدرسة المستنصرية والبيمارستانات والشرابخانات التي تباع العقاقير وأحرقت سوق الوراقين وسوق باعة الخز والحريز وسوق العطارين والصفارين والسراجين..

ثم رفع السيف وأبطل السبي، وفي رابع عشر صفر رحل هولوكو من بغداد وصحب معه أسراه وفي أول مرحلة من سفره قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعهم جماعة من الخواص على باب كلواذى الشرقي..

أتمثل حال الخليفة - لما ذهب هولوكو لرؤية قصره وتجول فيه وكان الخليفة يرافقه وكشف لهولوكو عن جملة كنوزه التي خبأها في قصوره وقدمها لهولوكو..

قام هولوكو بتوزيعها على قواده وجنده على مرأى من الخليفة ثم وضع طبقاً من الذهب أمامه وأمره أن يأكله فتحير الخليفة المهزوم من أمر هولوكو ونظر إليه مستفهما لعله يعدل عن أمره الغريب.. قال هولوكو: ألسنت جانعا؟ ألا تريد أن تأكل؟؟ خذ هذا الطبق ابتلعه لعله يشبعك..

- لا أستطيع فالذهب لا يؤكل..

قال هولوكو: لماذا احتفظت به إذا ولم تعطه لعسرك ولم تأت إلى سواحل جيحون من أجل أن توقف تقدمنا؟ فأجاب الخليفة: أنه قدر الله.. فقال هولوكو: كل ما سيحدث لك سيكون أيضا قدر الله..

ياغفلتك ياخليفة بغداد، هذا قدرك وقوات المغول أحاطت بدار الخلافة
ترشقها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارتك (عرفة) التي كانت
ترقص بين يديك وانت تسمر مع الندمان والقيان، جاءها السهم من
بعض الشبابيك فقتلها، ففزعتَ فزعا شديدا، وأحضروا السهم الذي
أصابها بين يديك، فإذا مكتوب عليه: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره،
أذهب من ذوي العقول عقولهم..

الكراسة 20 ناجي الراشدي

كانت وصيفتي روضة تحرق اللوز واللبن وحجر الإثمد لتصنع لي
كحلا وتحفظه في أحقاق صغيرة من البلور، بينما انشغلت الوصائف
الأخريات بإعداد الطعام..

سمعنا طرقا على الباب، أطلت روضة من طاقة علوية في مجاز
البيت:

-إنه السقاء نعمان مولاتي..

-هل نفذ ماؤنا؟؟

-لا، مولاتي ما زالت الجرار والأزيار ملانة

- ماذا يريد إذن؟؟

-لعل امرأته ولدت..

-ادخليه..

في يده ربطة حرير أرجواني مختوم قيطانها بالشمع، انحنى أمامي
دون أن يرفع بصره:

مولاتي هذه من مولاي ناجي الراشدي الكاتب الذي يعمل في جريدة
جورنال عراق..

- ضعها هنا، هل ولدت امرأتك؟؟

- نعم، رزقتي الله بولد..

- خذ هذه عشر ليرات ذهب لولدك وزوجتك.

- بارك الله فيك ونصرك، هل انتظر ردا لمولاي الراشدي؟؟

-انصرف الآن..

فتحت العلبة الحرير كان فيها مشطي الذي احتفظ به ناجي ومعه ست
أمشاط على شاكلته مصاغة من فضة ومرصعة بشذرات ذهب مع حُق
من عنبر مسقطي وورقة صغيرة كتب فيها بماء الزعفران الأبيات
التالية:

لقد خفت إلا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وإن كان مقنعا
وأخل فيها النفس إذ حيل دونها وتأبى إليها النفس إلا تطلعا
سلام على الدنيا فما هي راحة إذا لم يكن شملتي وشملكما معا

ذلك اليوم أخبرنا أبي أن مغنية أوزبكية إسمها (أفتاب خانم) تعزف
على العود وتغني المقامات مع فرقة عازفين حضرت من سمرقند
استعدادا لحفلات ستقام حين مجيء (مريم خانم) والدة داود باشا من
جورجيا، وستغني الليلة في بيت القائم بالأعمال البريطاني (الكولونيل
تايلور)، والدي - وهو المعتمد لدى والي بغداد داود باشا - سيسهر مع
الوالي والقائم بالأعمال والطبيب الإنكليزي (روس) وعلية القوم من بيت
الباجي وساسون والشعرباف والشابندر والخصيري وغيرهم..

أرسلت روضة السقاء يحمل رسالتي للراشدي:
(ادخرَ فرحك لهذه الليلة، واقترَب ممن يخرجك اليك، اللقاء ترياق
القلوب)

حمصت الوصيفة القهوة وطحنتها وجهزت خلاصتها مع الهبل
وملأت أطباق بلور بحلوى من السما والبقلاوة والزلابيا وحلوى
اللوزينج والمهلبيات بزعفران الهند، أترعت الكلبانات بماء الورد
وعلقت أقفاص البيغاوات والبلابل على أعمدة الطارمات وغسلت الفناء
المبلط بالأجر وأوقدت المبخار وسكبت في القناديل زيتا وعلقتها على

الأعمدة وأطلقت الغزالتين في الحديقة الداخلية الصغيرة (البقشة) التي تتوسط الحوش وقطفت أخصان الآس والريحان ووضعتها في قوارير البلور..

لم نسمع منذ ليلتين نباح الكلاب السائبة وهي تنبئ عن قدوم ضيف أو غريب إلى الزقاق ولما تساءلنا عن الأمر أخبرتنا إحدى الوصائف أن البحارة الأوروبيين الذين ينزلون بضاعة الهند من سكر وحرير وثياب وأخفاف وإزارات من قماش (مدراس) غادروا سفنهم عند مرسى على دجلة بباب المعظم وطاردتهم الكلاب التي تميز روائحهم - فهم لا يقتسلون - وعضتهم من أعقابهم فعمدوا إلى شنق عدد من الكلاب في الطرقات وأطلقوا النار على بعضها فهربت مجموعات الكلاب إلى بساتين التاجي والفحامة..

فرشت الخادמות الأرانك ببسط صوف قرمزية منقوشة من صنع نساجي السماوة، وعليها مفارش مذهبة مفضضة من طراز الأغباني الشامي، أحضرن الغلايين والأراجيل ظنا أن الضيف يدخن الغليون والأركيلة كما يفعل أبي وصحبه من وجهاء بغداد، أمرت أن ترفع عدة التدخين وتحضر لوحة الشطرنج والداما، البستني الوصائف جلبابا من حرير هندي فوق ثوب من الموسلين المطرز بأسلاك الذهب صنعه لي الخياط الأرمني خاجيك، وصففن شعري وعطرنني والبسنني بابوجا من الحرير وخبوط الذهب، ولما تعالى إذان العشاء سمعنا طرقتين على الباب..

فتحت روضة المزاليج وتبعها الضيف، بدا بهي المحيا في الثلاثين أو أقل قليلا وضاء الجبين وله لحية وشاربان خفيفان، كان وجهه شاحبا تحت أضواء القناديل، عبر باحة البيت نحوي وأنا جالسة على أريكة في صدر غرفة الضيوف، مع انحناءته قال بصوت رجولي حاسم ورقيق:

جنت أخطبك لنفسي قبل أي قول فان قبلت أقصد والدك مع وجهاء
القوم في الغداة..

ولماذا لم تبادر اليه أولا؟؟
وهل أتخطى جلال قدرك يا زبيدة؟؟ أعرف انك سيدة أمرك في كل
حال..

و ماذا تظن بي؟؟
كل ما يرنو اليه قلب العاشق وطالب الوصل..
- وبماذا تعدني؟؟
بكل ما أملك من مال وعقار وبساتين في الرصافة والدجيل
والنهروان..
- غير هذا قصدت..
لك الأمر ولي طاعة وليتي وسيدة الزمان..

- تفضل اجلس وقرّ عينا..
- هات يدك أقبلها أنت نعمة الله لي..

أحضرت الوصيفة القهوة والحلويات والفواكه، رفعت القدرح اليه
بيدي فرشف رشفة وشفته تترتعثان، ثم أدنى القدرح من فمي ويده فوق
يدي وسقاني رشفة ومست أصابعه ذقني ودنا مني فلفحت أنفاسه
وجهي..

اقترب الرجل مني أفرعني لبرهة لم أدرك مداها حتى قبل وجنتي،
لم أتمنع بل مستني رعشة افتتان وأخرستني..
ولما توهجت فينا نار العشق وأحاطنا قيظ المساء الرطب بلفحة
ساخنة أمرت الوصيفة أن تعد لنا على السطح مجلسا وتفرش أرائك
الخيزران لننعم بالنسيم ومنظر دجلة والسفن المضاءة والزوارق العابرة
وموكب والي بغداد وضيوفه الآتين من الأستانة وسمرقند وتفليس..

أمسك ناجي الراشدي - ونحن نرتقي السلم - بخصري تحت الجلباب
وضمني اليه، تناغمت أنفاسنا ونحن نلهث في الصعود وفمه يطوف على
وجهي وعنقي وصدري حتى إذا بلغنا السطح كان قد حل صفائري ومرغ
وجهه في شعري، سرى برق في دمي لما وضع يده على سرتي
وأجلسني على الأريكة ونثر أوراق ورد الجوري التي أخرجها من جيوبه
على رأسي وفرك بها راحة يدي وقبل يدي الإثننتين ودعك قدمي بما
تبقى من الورد العطر..

-انت زوجتي أمام الله والسماء شاهدة ولك مني الوفاء حتى مماتي.
غرقنا في عصف لذتنا حتى تهاوى الليل في دجلة وتوغلت نجومه
في عظامي لتغييني في نور جارف لفني كدوامه حريز وخذرنى..
ونم أفق من انسحاري إلا على صرخة مريعة وعويل جارح لامرأة،
هبت على أثرها طيور ونعقت بوم في خربة قريبة وسمعنا من يقول
وسط عتمة الزقاق:

-إنه الموت الأسود، أغلقوا عليهم باب الدار واعزلوهم..

الطاعون وصل إلى هنا.

قال ناجي:

، نعم، قرى كاملة قضى أهلها بالطاعون، انتشر الوباء أولاً في الحي
اليهودي، ورد الخبر إلى الجريدة أمس، مات خمسة أفراد، في بيت
واحد..

لما رأى هلعي احتضنني وقبل جبيني:

لا تخافي، انت في مأمن، لا بد ان أعادر الآن يا زبيدة، غدا أذهب إلى
ديوان الوالي لمقابلة والدك إن شاء الله..

قبل يدي الإثننتين واختفى في ليل الطاعون..

بغداد تتأهب لمجيء (مريم خانم) والددة داود باشا المملوك الجورجي الذي كانت أسرته رقيقاً لعائلة نبيلة في تفلّيس، وشاء أن يعوض أمه ذل عبوديتها فقرر دعوتها لزيارته وهياً الإحتفالات لهذا الحدث وكتب لها: (من ملك بابل السعيدة ابنك داود باشا يهديك وافر التحيات، والأمل ثم الأمل في مشاهدتك ياأمي مريم. أما بعد فقد تسلمت رسائلك جميعها والمرسلات عن طريق أرضروم و على يد رجل من بيت زوبالا شويلي وسمعنا كل ما كتبتِ والآن أكتب رسالة إلى الوالي ليجعلكم من طبقة أزناور وأرسلت يوسف بالرسائل إليكم فاصحبوه عند تسليمه الرسائل لوالي القفقاس وقولوا له كل ما تريدون. أكتب الآن إلى أندريازو بالاشويلي بهذا الصدد ليساعدكم. أرجو ألا تهملني رغبتني في مشاهدتك فتعالني إلى (بغداد) لأنني أريد رؤيتك ولا تفكري بشي، من جهة أخرى أقيمي حيثما رغبت، وسوف أعيدك إلى الوطن بالإكرام العظيم متى شئت، وأما بعد فأهدي أخي شيو وأولاده واخوتي تحيات كثيرة ثم أهدي اخواتي تحيات كثيرة وأرجو أنا ملك بغداد أن أنال الدعوات من قلبك الرحيم، الإنسان يأتي إلى الدنيا ويغرس الكرم لينال ثمره فأنتم غرستم الكرم ولم تنالوا ثمره وأنا أطلب من أمومتك الرحيمة أن تقدرني على زيارتي فلا تهملنيها وصلني من أجلي ياأمي الرحيمة.

(ابنك داود باشا)

خطف اللصوص داود من جورجيا وهو صبي صغير ثم أخذوه إلى

تركيا وباعوه في الأستانة وبعدها جيء به إلى بغداد وبيع في (سوق النخاسة) وتنقل من مالك إلى آخر، ثم اشتراه مصطفى بك وأهداه إلى سليمان باشا الكبير وزير الحربية ووالي حلب وقبرص وكان داود تواقا للمعظمة فتقدم في المناصب حتى أصبح واليا على بغداد وكان يبدي اهتماما كبيرا بأخبار وطنه، حصل من مواطنه اندريا زوبا لا شويلي على عنوان عائلته في جورجيا وأخذ يرأسها، مات والده وبقيت أمه وولداها الأكبر شيو والأصغر ديميتري، وعندما علمت أمه وعائلته أن داود باشا قد وصل إلى مكانة مرموقة في أرض العراق طلبوا منه العون في تحريرهم من رق عائلة أوربيليانى فأرسل الرسائل والرسول إلى حكومة تفليس يطلب منها المساعدة في تحرير عائلته ونال مراده ووصلته وثائق التحرير، أمه الكرجية الجميلة كانت لا تزال في حسننها الغض وفتنة أنوثتها فتزوجت من إيلي كزراشفيلى راعي كنيسة القديس نيقولا سرا، وترددت في السفر إلى إنها خشية غضبه من زواجها وإنجابها بنتا في الخامسة عشرة، حسمت أمرها بعد تردد:

لن أذهب إليه ولن أعضبه، إذهب أنتما يا ديميتري وشيو واعتذرا عني بمرضى، لا أحب أن أغضب داود وهو في مقامه العالي..

حضر أخواه في موكب احتفالي تتقدمه الجياد وضاربو الطبول والحرس الإتكشاري بعمانهم الملونة وسراويلهم المنتفخة، وبعد الإحتفالات والمآدب التي أقامها أثرياء بغداد لشقيقي داود باشا عاد الأخ الأكبر شيو إلى وطنه محملا بالهدايا الثمينة من ذهب وفضة وحرير وطور ولبث ديمتري في العراق وأشهر اسلامه في مسجد الإمام أبي حنيفة واتخذ اسم أحمد لينصبه داود باشا قائدا للقوات المسلحة ثم جعله متسلما (متصرفا) في البصرة ليشراف على تجارة تزدهر في بغداد باتفاق مع القائم البريطاني (تايلور) الذي كان يبتز سلطة داود باشا فهو يسمح بالتجارة لمصلحة الولاية مقابل أن يدفع الإنكليز ضرائب أقل مما

يدفع التجار العراقيون، كانت بغداد سوقاً عظيمة وكانت البصرة تستقبل عشرات السفن التي تحمل الموسلين من البنغال والتوابل والمخدرات من بلاد الأفغان والارز من الهند والسكر من امريكا، والحرير والشيلان الصينية، والدانتلا والرصاص والخناجر والصفيح والعطارة والبخور والنيلة من سيلان، والأقمشة والأطلس من فرنسا وبريطانيا، والبضائع المعدنية الالمانية، والزجاج والكريستال من فيينا وبوهيميا. ولا ينقطع سير القوافل المتخصصة بنقل الجوارى والقيان من التبت وقندهار وايران إلى بغداد حاملة في طريق عودتها الفواكه والتبغ والتمور والخيول التي كانت تربي في ضواحي بغداد وبادية نجد وتصدر إلى دمشق وحلب والأستانة والهند..

توجه أحمد باشا شقيق داود باشا إلى البصرة مع جواريه العشرين وزوجاته الجورجية الأولى والمسلمتين الصغيرتين اللتين تزوجهما خلال عام مكوثه في بغداد..

الكراسة 22 الطاعون

الطاعون الأسود يطير كالبومة فوق بغداد ومن تحته يمتد الخراب،
خبل التوحش اجتاح المدينة التي تشير اليها يد الله..
كان ألف شخص يموت يوميا حتى وصل الطاعون إلى حيننا، لم يتبق
من بيت جارنا الأرمني إلا ثلاثة أحياء من اصل عشرين ولدا واخا وبناتا
وزوجة وطفلا، بقيت مريم وعاشقها الذي فضل الموت معها ودفنا معا..
أخبرنا أبي في الصباح ان البدو شرعوا يسلبون الناجين الهاربين من
المدن والقرى بينما توجهت بعض العوائل نحو نهر دجلة للهرب
بالزوارق إلى البصرة واكتظت السفن والزوارق بالناس الهلعين، أما
جارنا الورع إمام جامع الكيلاني وبعض المتدينين من اليهود فقد لبثوا
لمواجهة قدرهم قائلين:

-إنها إرادة الله ولا بد ان نستسلم لمشيئته ونقبل قدرنا..

وبعد أيام هرب المقيم البريطاني وعائلته وخدمه إلى البصرة،
أما النواب الهندي حميد خان فقد هرب بعائلته وخدمه بقارب إلى
البصرة و توقف قاربه وسط دجلة لثقل حمولته فما كان منه إلا ان القى
بالركاب جميعا إلى النهر وبقي هو وزوجته وابنه وخدمه..

احضر والدي عشرين حارسا مسلحا من عشيرة بني تميم لحمايتنا
بعد ان اجتاحت العصابات بغداد تنهب وتقتل المحتضرين، ولزم الناس
بهوتهم وانتشرت الجثث في الطرقات دون ان تجد من يوارئها التراب..

كنت على سطح بيتنا ومعى الوصائف نتفرج على ما يجري حولنا
لشاهدنا في فناء بيت جارنا عصابة من القتلة يرقصون وقد ذبحوا خروفا

وتولت عجوز شي اللحم لهم، وسقط بعض الجرحى من أهالي المحتضرين في البيت بعد ان تولت العصابة طعنهم بالخناجر والسيوف و أطلقت على بعضهم نيران البنادق..

لبث الأحياء يترقبون في دورهم مرعوبين وقد أخرسهم الهلع، وعيونهم تحديق عبر النوافذ إلى الأجواء المخبولة وعصابات النهابين التي اجتاحت الأزقة بمشاعلها واسلحتها، وأشعلت الحرائق في بعض المنازل بعد ان نهبوا وبدأ أفرادها يعوون كالذئاب المسعورة..

ذلك اليوم وصلت عصابات القتلة إلى بيت مصطفى آغا، كان ممددا على البساط وقد وضعت زوجته الجميلة نورية رأسه المحموم في حجرها تخفف بحنانها وجع أورام الطاعون وتذرف دموعها على وجهه ولحيته، هاجمها القتلة بالخناجر وماتت جالسة مستندة إلى الجدار وأغرق دمها وجه الرجل المحتضر.

- خذ المجوهرات والذهب من يد الميتة، اقطعها يا مجنون..

- الرجل مات، ففتشوا الخزانات وخذوا كل شيء..

غادروا البيت المنهوب وبعد أيام أفاق مصطفى آغا ليجد خادما ظل مختبئا في السرداب ولم ينل منه القتلة - يغسل رأسه ويسقيه الحساء بعد أن قام بدفن نورية زوجة سيده في حوش الدار..

وصل الطاعون إلى زقاق كنيسة المبشرين في دير الأخوة الكرمليين في كراة مريم قرب بيتنا فخرج الرهبان لإغاثة المحتضرين في الحي وتوزعوا بين الموتى والأحياء وطرقوا بابنا وقدموا لنا أعشابا مطهرة ومراهم وطلبوا منا أن تبقى امرأة منهم هي زوجة أحد المبشرين لتنام لينتها في بيتنا وفي الصباح ينقلونها خارج بغداد مع قافلة مسافرين إلى الموصل التي لم يصلها الوياء، كانت امرأة انكليزية ذات جدائل شقر وترتدي ثيابا طويلة بسيطة كثياب الرهبان وتضع خمارا وقبعة من المخمل الأسود وتحمل في عنقها سلسلة من الذهب يتدلى منها صليب

كبير، خصصنا لها وصيفة من خدمنا لترعاها وتساعدنا، ثم اكتشفنا أن المرأة محمولة وفي الليل بدأت تروح في غيبوبة وهذيان، أصابنا الرعب، فاستدعى والدي طبيبا أرمينيا امر بحجر البيت حتى نتبين سلامة الجميع وأحضروا زوجها الذي ترك مهمته في إسعاف المرضى مع الرهبان وصحبها في عربة مع ثلاثة فرسان مسلحين من حرسنا إلى خارج بغداد وفي المساء عاد الفرسان إلينا ليخبرونا أن المرأة ماتت في طريق سامراء ودفنت في إحدى المقابر..

لفرط الرعب عكف كثير من الرجال على الخمرة وانصرف آخرون إلى الصلاة وهام بعض الشباب في الأزقة يقتصون نساء لمتعة ما قبل الموت، والمجرمون يتصيدون ضحاياهم في الطرقات وما عاد بوسع قوات المماليك كبح جماح العنف..

خلال ثلاثة أيام هطلت أمطار غزيرة فدعا الوالي رجال الولاية ومعهم والدي وناجي الراشدي ليجتمعوا في السراي إذ لاحت نذر خطر جديد تهدد بغداد بعد سقوط أمطار غزيرة أغرقت الأزقة والبيوت وانهارت كثير من المنازل المبنية بالطين، لبثنا محجوزين في بيوتنا، لم يعد أبي ذلك اليوم ولا اليوم الذي تلاه فقد قطعت الطرق في بغداد، ارتفعت مياه دجلة واجتاحت معظم انحاءبغداد فسخر الوالي جيش المماليك ومن نجا من الطاعون في إقامة سدود ترابية لحماية المدينة من الطوفان..

خف الطوفان، فأسرع الناس لنقل جثث الموتى على الحمير والبغال إلى الخنادق التي حفرت حول المدينة وتكونت برك آسنة في الساحات، وتفتشت رائحة الجثث المتفسخة في الرياح وحصلت المجاعة التي ضربت المدينة والقرى حولها وفي هذا الوقت كان جيش السلطان محمود يتقدم لاحتلال بغداد أو استرجاعها من داود باشا بعد أن قضى على تمرد جيش الانكشارية في الأستانة وأبادهم، حوصر المماليك في

ثكناتهم، هلك منهم في المجاعة وقتل الآلاف، وغدت المدينة مكشوفة واستبيحت مرة أخرى وداهمها السلابون من الصحراء. والبدوادي القريبة، ووصلني مكتوب من ناجي الراشدي يخبرني أنه منتدب للعمل في الأستانة ولن يعود قبل عامين..

بعد أن ضربت بغداد موجة جديدة من الطاعون، قرر أبي أن يأخذنا إلى الموصل أنا ووصيفاتي لأمضي شهورا في بيت أمير اليزيدية بين بناته وجواريه في (عين سفني) ووادي لاليش بين أشجار الجوز والبلوط والصنوبر على سفوح الجبال الحمراء..

حين وصلنا كانوا يحيون احتفالات عيد (الجماء) في معبد لاليش ذي القباب المخروطية المحززة، عيد استعادة الخصب الذي دام سبعة أيام بليليتها وشاهدنا طقوس الخصب المتوارثة من عصور سومر القديمة، جلبوا الثور رمز الخصوبة الذي يمثل قرناه الهلال الوليد من معبد لالاش إلى معبد شيخ شمس يقوده مجموعة من الرجال يمثلون العشائر اليزيدية يسبقهم رجال الدين وعلى أنغام الموسيقى الدينية تم ذبح الثور وطبخوا لحمه في طبخة (السماط). المقدسة ليتبارك من يتناولها - وفي هذا الحفل أعلن الكاهن انتهاء فصل القحط والجفاف الذي عانت منه الخليقة خلال الخريف الأصفر وسوف تعود الحياة لدى أول مطرة تبشر بالشتاء..

أمضينا الشتاء هناك وحل موسم الثلوج الذي حاصر وادي لاليش والقرى حوله واكتفينا بتناول خبز الرقاق والتين المجفف واللبن والزبيب وبيض طيور القبيج خلال حصار الثلوج، وما أن لاحت بشائر الربيع وسطعت الشمس حتى ذابت الثلوج فقصدنا المعابد ذات القباب المخروطية وأمضينا فيها وقتنا بين المتعبدين الذين يتقدمهم الشيخ

بثيابه الناصعة، وسمعنا الناس يتهايمون عن خطر يتهدد الجبل والوادي وأن على القادرين من الشباب والنساء اللجوء إلى الكهوف والقرى المسيحية قبل أن تصل طلائع المهاجمين..

في يوم أول ثلثاء في شهر نيسان اتهمت النساء في سلق البيض وتلوينه بينما انطلقت مع الفتيات إلى الحقول والجبال لنجمع أزهار الشقائق القرمزية والنرجس وحزمتنا منات الزهور في باقات وثبتناها بقبضة من الطين وقشور البيض الملون على أبواب المنازل والنوافذ..
كنا نسمر عند كوخ على السفح وأعطاني شاب يافع منهم تمثال طاووس صغير بحجم قبضة اليد

- هذا لك لتذكري عيد سرسال عيد راس السنة عندما نزل طاووس ملك إلى الأرض وأنبت الزهور وأعاد الربيع وجدد الحياة، هو مقدس عندنا، ولا نعطيه إلا لمن يحفظ له قدر قداسته.. احفظيه عندك وسيحميك من الشرور..

ابتعد الفتى عني فقد كانت مخاطبة النساء الغريبات محظورة لديهم، كان الفتى ينظر إلي بين حين وحين وهو بين صحبه من فتيان يؤدون رقصات العيد على ضرب الطبول.

منتصف ليلة رأس السنة حسب التقويم البابلي، حاصرت المنطقة قوات ميركور أمير راوندوز مزودة بالمدافع، وأضرمت النيران في القرى وجرى القتال على السفوح..

وأسر المهاجمون منات النساء والأطفال ووضعوا الأسرى في منطقة تل قوينجق وسمعنا أنهم جرت ابادتهم جميعا بالمدفعية والحرق، وسيبت منات أخرى من النساء اللاتي لذن بالكهوف والمغاور ونحن معهن..

عندما تعرفت قوات أمير سوران علينا عزلونا ثم أخذونا إلى راوندوز مع النساء اليزيديات اللاتي زوجن بالإكراه لرجال مسلمين وكنت

من نصيب أحد ضباط إمارة سوران واخذني إلى زوجاته الجليليات الجميلات، غمرتني السيدات بكرمهن و حميني من الإغتصاب وتحايلن على الأمير حتى لا ينال مني وطرا يقولهن أنني مصابة بمرض غريب، حتى وصل مبعوث داود باشا الذي هدد بإعلان الحرب على الإمارة إذا لم يطلقوا سراحي مع من كان معي من النساء وطلب أمير سوران فدية من ذهب لقاء الإفراج عنا فإرسل له داوود باشا ووالدي ما أراد..

أعادنا جند داوود باشا إلى بغداد محروسين في قافلة مهيبة وأرسل قوات من الاتكشارية لحماية من تبقى من اليزيديين الذين أكرمونا، وبلغني أن ناجي الراشدي تزوج في الأستانة من فتاة تركية وأقام هناك ولم يعد إلى بغداد التي وقعت وأنا معها تحت طالع زحل فما نفعني تمثال طاووس ملك وما حماني من شرور الدنيا وخذلان الحبيب..

الفصل السابع
كتاب الشيخ قيذار

كتب الشيخ قي دار كراساتة على نحو محير أربكني، فهو يدون بعض الفقرات بضمير الغائب ثم يتحول إلى ضمير المخاطب وبغنة يستخدم ضمير المتكلم، كان ينظر إلى نفسه بعين ثالثة وربما بعين كثير، ويكتب عنها ما يحتمل أن يراه الآخرون فيه، قاومت انفعالي واحتشاد روجي بالفضول والإشفاق مما سأقرأ، وتواثب شيء ما في داخلي، شيء لا هو بالفرح المبالغت ولا بالبهجة التي تفجرها في الروح قراءة كتاب ممتع، شيء مختلف تماما، دفع لطيف ونوع من إثارة لم أعهداها، نتاهت إلي معها أصوات طيور، تغريد شجي وهديل أسيان، حتى أنني سمعت رقرقة ماء في نهير وتقاسيم من مقام النهاوند على العود، عود عمي قي دار، سمعت نهنة ونشيجا وتراعت لي ملامح عمي حين تعالت زقرقة العصافير في الحديقة..

عرفت لحظتها أنه النهار وأنني أمضيت ساعات هنا وفي يدي كتابه،
وقرات:

كل يعمل على شاكلته

(لنفسه يردد الشيخ قي دار:

- اليقظة ليست خاتمة النوم ولا نهاية الغيبوبة، اليقظة وجع الذاكرة ووعي المصيبة، اليقظة عشق متناه وتغان في المحبوب، اليقظة المرّة أن أتيقن من خيانة فتنة، فتنة التي توسمت فيها خازنة الفردوس فإذا بها خازنة المصيبة..

فرارا سافر من المدينة التي تحتضر بين فواجعنا، فرارا من عذاب
اليقظة أمضي إلى النهايات لأحرس بعض إرث العقول، رجاء أن تنجلي
الغمة عنا وتستعاد الحياة....

سيغير الشيخ قي دار مصيره، يهجر كل شيء ويتجه إلى حيث يقتاده
هوى الفؤاد وجموح العقل، ولن يلعب بعد اليوم مع قدره أو يراوغه لأنه
سيكون قدر نفسه فينوجد خارج كل توقع وحساب، وسوف يغزو شبيهة
زمنه ولغزه سيكون..

سيبدو لمن يراه كأنه على وشك المغادرة أو على أهبة الوصول بين
ظهور واختفاء، حتى يحقق هوى الفؤاد الأخير كتابه الكبير عن بغداد
ورواد عدلها وحراس سرها وسيلتحق بمن مهدوا له فكرة العمل على
تدوين ذاكرة مدينة موشكة على التلاشي.

سيموه قي دار التميمي البابلي آثار مروزه في الزمان وسوف يخادع
الأمكنة والبشر، يكون هو بذاته لا بأخر حتى لو كان امرأة محبوبة
تعوضه ضياع (فتنة)، سيرتدي أسماله ويمضي غير آبه لشيء أو أحد
لعله ينجز شيئا قبل الفناء..

يقوم قي دار إلى خزانة كتبه ويلمس برجفة عاشق أغلفة الكتب ويسدل
الستائر ويغلق الخزانة دون أن يجرو على التطلع إلى ما ترك وراء
زجاجها (كيف أجرو؟)، كل شيء في هذا العالم ليس لأي منا، دع يا
رجل كل شيء، ما لك ولهذه الجمادات الغفل؟
دعها يا رجل، دعها فالأشياء لا تمنح سرها إلا لمن ينفذ إلى
جوهرها..

دعها لا تحاور مقتنيات ميتة فلن يأنس بها غريب، إذهب فإن سرقها
لص فستبقى مكنونة في لا معناها وموقوف فعل جمالها بانتسابها إليك..

يصك أجنحة النوافذ وتموت ألوان الزجاج المعشق وراء المشبك الخشبي، يمحي الأصفر والأحمر والأخضر والفيروزي في انحسار الضوء ..

بعد اختفاء فتنة كان قد باع البيت القديم في شارع عمر بن عبد العزيز في الأعظمية. والدكان الملحق به وأسس جمعية سرية تشتري المخطوطات الثمينة من العارفين المعوزين وتحفظها في مواقع محمية لا تصل إليها أيدي غوغاء الحروب ومشعلي الحرائق، لم يكن يسيرا أن يبقى شأن الجمعية خافيا على مخابرات السلطة وعيونها، وكان يتوقع أن يشي بأمرها أحد الذين تعامل معهم، وفي ليلة صيف داهموا الجمعية وصادروا ممتلكاتها (وكننت قد نقلت المخطوطات والأشياء الثمينة إلى بيت أحد الأمناء) وحجروا على مقرها الصغير وعندها أرغم قيدار على الهرب والتخفي في سرداب بيت شقيقه في حي الداوودي ..

سيترك وصية لابنة أخيه حياة البابلي فهي أقرب إليه من سواها لطول ما ألفته وتشربت تعاليمه، وترسمت خطاه:
(حياة..)

ليس بعد هذا الذي حدث، إلا بقاء الذي ننشد من هذه الدنيا وما يتبقى فينا من هذه البلاد،

لك أنت الابنة التي لم أنجبها الصفية التي ليس لي سواها بما لا يسمو إلى معادلة محبتي لك، إن قبض لك أن تبغثي فكرتي وتعيدي تكوين جمعية كجميعتي، أهبك ما تبقى لدي من مال لم يصلوا إليه، فنصرفي به لأجل حلم الشيخ قيدار واجمعي من الموسرين ما يجودون به لإجاز البحوث عن بغداد وحفظ تراثها، وسوف أبعث لك بعناوين جماعة عالمية هي توأم جمعيتنا ..

لا تأخذي كل قول على محمل الصدق فالألفاظ بها ليس. والمعاني بها اشتباه والألفة استوفت معاني المدركات وهي لغة جوهر الروح وصفو

القلوب، وأنا مرتاب بكل حرف ومؤداه مما يدعيه غير العارفين بالحق، وأنا حاضر بينكم ومستعصم ببيابه فإن غبت فإلى عودة متى انحسر الجنون عن بغداد، وإذا عدت فالماوى تعرفونه، وتستدلون على وسطانيته بمن أهوى وكل يعمل على شاكلته والسلام لهذه البلاد مني حيا وميتا..)

كانت حياة ابنة أخي تسألني كلما أنست في مزاجي هدوء وسلاما:
- عماه، أيمن أن نثار من عسف أحببنا بمواصلة الحب في جوهرة الخالص لأشخاصهم التي تعلقنا بها قبل كشف المخفي من أوزارهم؟؟

كان قيدير المطعون بضياع فتنة يقول لها:

- ذلك رهن بما يصلح لمحبتنا إذا اجتمعت لدينا الشواهد والدلائل وأذهلنا المقصود عن كل ما سواه.
وتسأل: وإن لم يذهل عن كل ما سوانا؟

- تبقى الدلالة بالفعل الجلي ودفع الظواهر بالبواطن والإرتفاق بالأنفة النفسية وتوحد المحب بالمحبوب إشاحة عن كل ما يغوي بالصفات الظاهرة التي هي شراك العقل والغريزة، فترقي ما سوف ينكشف من خوافيه، إن كان جديرا بما تغدقينه من شغف به فسوف يؤثر على كل ما عداك، فإذا لزم التبدد بين الغوايات فهو عاجز عن اكتناه جوهر المحبة وجاحد بالذي يقع منك، فاختاري ما ينجي روحك من الإستخفاف بها وما تصفو به أيامك دون غل وريبة ودعيه لتغاضيه عنك إلى ما هو دونك فإنه ينشد من هو في مشاكلته له أدنى للتسلط منه للندية التي تعلي شأن الحب وتمضي به في الزمان، ولك أن تحكمي بالقرانن

والأفعال إن تكرر إهماله لشؤونك وتجاهل ما يقع عليه من واجب الرجولة إزاءك..)

أفتح خزانة فتنة، ثيابها المزركشة وشالاتها المبهرجة وأخفافها التي من مخمل وأسلاك فضة كل ما وهبتها إياه من ترف كنت أسعدها به، أمد يدي إلى صدرها المطرز وعصائب شعرها، أضمتها إلى صدري وأنتحب، هل ما زلت تحبها يا قيदार؟؟ أنت من علمها شؤون الحب وخوافي الملذات أريد الآن محو ظلالها وأطيافها من حياتي وأمضي بعيدا عن التعلقات لأحقق هدفا واحدا ووحيدا لبغداد وحدها..

كان طالع بغداد يشتبك أمامي بطالع فتنة، وأنا أبصر في سماء المدينة ذلك الكوكب الرهيب الأزرق، وأشفق من النظرة الثانية إليه، لا، أريد أن أصدق ظهوره في طالع المدينة فذلك يحمنني من الهم ما لا طاقة لي به وأنا تجاوزت الستين من عمر العناء..

رأيت الكوكب منذ خمسة عشر عاما يا قيदार وتراه الليلة، هو ذاته زحل الذي قال فيه (الكندي) أن من طبعه البرد واليبس وهو الذكر النهاري النحس المظلم بسواده، وتعلم فيما تعلمه ان نحس زحل يدوم ثلاثين سنة وسعده ثلاثين أخرى، أتراه هو حقيقة؟؟ أم هذه رؤيا تتزحل لإرعابي؟؟ ثلاثون سنة يازحل؟؟

ظهور زحل لو ثبت - في طالع بغداد فهو خروج على حسابات الأفلك ومصائر المدن في دورات النجوم وقيل فيما قيل ان صورة زحل في برج (الجددي) صورة شيخ ومعه عصا يحرك بها عظام الموتى وينوح ويبكي ويقسم المقابر والمواريث الخسيصة وقد سلبت المدينة وهي تحت برج الجددي ونشبت فيها الكوارث في ظله وأما إن ظهر زحل في برج الدلو فيبدو مثل رجل متوج بالوقار وهو فرح مسرور يقسم

الأرضين والعقارات والكنوز والممالك وأفعال الخير، فبأي الصورتين
تراه الليلة؟؟

انت لا تخطيء في تمييزه، لا يا قيدار، طالع بغداد غير الذي تراه، لا،
لا يا قيدار..

تنهمر دموعك من هول ما يترأى لك وقد تهاوت الصروح وانشقت
الجسور وعم الفزع وسرت النار في كل شيء.. ثلاثون سنة من بدء
الحرب مع ايران حتى متى؟؟
ما الذي سيحدث لدار السلام بعد كل الذي جرى؟؟

2

تعلم يا قيدار أن طوابع المدن تتبدل بتبدل الأزمنة وما كشفه المنجم
(ابن نويخت) والفلكيان (محمد بن ابراهيم الفزاري) و (ما شاء الله بن
سارية) من طالع بغداد للخليفة المنصور وافق صعودها واكتمالها..
سألهم المنصور عن أوفق المواقيت للشروع بالبناء فاتاه النبأ:
(المشترى في برج القوس والشمس في درجة منه وذا ميقات صالح
لبناء بيت حياتها ففيه دلالات الثبات والقوة وكثرة العمران وانصباب
الدنيا بأموالها إليها)

يبتسم المنصور الذي كان يرى المدينة في المنامات واليقظات
والسهو وتلوح له في ساعة الصفو وغمرة اللذائذ أو في آونة الكدر
ولجة الشدائد..

ها قد اتصبت إليها الدنيا بنيرانها وجيوشها في كل عصر وأوان.
تعلم يا قيدار أن المنصور لم يؤسسها ولكنه حين اشتهاها، شاء أن
يفتنها كما يفعل بالجواري العذراوات كل ليلة وينام على رائحة الدم
وريق الإناث وعيق عرقهن، محاطا بالبخور ومعفرا بذرور المسك، فك
أسرها من قبضة الدهر، وكانت حية تنبض في رعشة الطين وتتنفس في

حممة الحريق، وتكابد طوفان دجلة وترقد في خفاء الزمان، و لبثت
تراود منامات الملوك منذ حمورابي وتراود الغزاة والتجار والكهنة
وتغوي اللصوص والولاة وتراوغ جنون النار وجموح النهر، فكانوا
يقيمون المعسكرات والقرى والحصون والأسواق والأديرة والرياض
بإسمها أو بتحريفات إسمها فلا تزدهر ولا تدوم لأحد منهم..
استخلصها المنصور من أحلام سابقيه وهو موقن من كمونها في
أعماق رغبته،

قال لندمانه: بغداد عروس شهوتي وأنثى خلافتي وتعويذة سلطاني..
ثم خرج إليها ولبث يروح ويجيء على فرسه مستوحدا في بريتها،
يتأمل المدى ويرى ما لا يرونه من ضونها ومرانيها وعصورها، حتى
ظن الذين حوله انه سيجن عشقا بفكرتها..

تعلم يا قيدار ان بغداد وجدت من أزل الدهور فلم يسائل أبو جعفر
مستشاريه وأهل العلم والمعرفة والتدبير في شأن اختيار موقعها كما
خيل للبلدانيين والرواة ولم يرسل روادا يبيتون طيلة عام في جهاتها
لمعرفة الهواء ومواسم البعوض وشدة القيظ ولم يأمر طبيبه أن يرفع
على السواري شقا من لحم الجداء في كل جهة من الجهات ليرى أي
المواقع أصلح هواء بتأخير فساد اللحم، لا، أبدا لم يفعل ذلك، فقد كان
يعرف ما يريد ويراه ويتبدى له شكل المدينة التي سيدعوها دار السلام
وكان كمثل جميع المستبدين قد اخترع مدينة عظي من رغباته الملكية
وعنفه الدموي، ورآها في استدارة خطتها وأسوارها وخنادقها
وقصورها ومساجدها وبروجها وأسواقها ورياضها وسجونها..

وجدها مكتملة في رؤياه وفي صفة ما يريد لملكه ولم ينتظر رأي أحد
ممن يوالونه او يشيرون عليه..

دعا البنانيين والمهندسين وأهل العدالة والفقه وفيهم (أبو حنيفة
النعمان) والمهندس (الحجاج ابن أرطاة) وقال للحجاج:

- يا ابن أرطاة هذه المدينة صفتها كذا وكذا في رويائي فارسم خطتها
كما أصفها لك دون نقصان أو زيادة..
ثم أمر ولاته أن يحشروا إليه الصناعات والقعة والمهندسين من مصر
والشام والموصل والجبيل.

تسير في ليل بغداد وترى ما خلفه المستبدون والغزاة من عتات في
المدينة بعد تدمير محطات الكهرباء وفرار أهلها إلى الجبال والمقامات
المقدسة، فلول الجيش المهزوم تترنج في طرقات الجنوب عائدة من
الكويت، تقصفهم الطائرات ما بين الناصرية والسماوة والجنود حفاة
يرفعون فانلاتهم رايات استسلام وتتكدس جثثهم على امتداد الطريق ما
بين الكويت والفرات الأوسط وأنت ماذا أنت فاعل بنفسك وقد جاءك نبأ
اعدام ماجد ابن اخيك لفراره من حملة غزو الكويت؟؟ ماذا ستفعل وقد
سبقه مهند إلى بيت النهايات ولحق بهم أخوك؟؟

تحت عتات الليل تمشي في شارع الرشيد وتعب الساحة حيث تمثال
الشاعر (الرصافي) باتجاه جسر الشهداء، عن يمينك المتحف البغدادي
ثم سوق الصاغة وسوق السراي وعن يسارك الأسواق العباسية
والمدرسة المستنصرية وسوق السراجين والساعاتية..

تعب جسر الشهداء إلى الكرخ القديمة دونما وجهة تفودك خطاك
وحشد من رجال وصبيان يحملون مشاعل من خرقة ونفط يلجون زقاقا
بعد الجسر وأنت تتجه نحو مستشفى الكرامة وتعلو ضجة وعويل نساء:
- قتلوها، قتلوا بدرية، راحت بدرية.

- اخربي يا حرمة لا تنطقي اسم الفاجرة. يهمس بصوت أجش رجل
ملفح بالكوفية..

قتلها ابن عمها وغسل عار العشيرة، حبلت بالحرام..
خرج من الزقاق رجل يلوح بخنجره المدمى وانهاه عليه الرجال
بالعناق والتبريك:

- سلمت يا رجل، رفعت راسنا بين الناس..
- يهممم القاتل كلاما مبهما ويمسح وجهه بطرف كوفيته..
- من هي المغدورة؟ يسأل رجل..
- بدرية الحلوة بنت جاسم المعمار الم تسمع ببدرية الحلوة؟؟
- يقولون أن من عاشرها هو زوج أمها..
- يقولون هو يعمل شرطيا، إي نعم رجل أمها شرطي. يعمل في الحكومة..
- لا، الذي عاشرها صاحب محل العطور الموصل..

الكراسة 24

مدينة تولد من النار

يخطط (الحجاج ابن أرطاة) خطة بغداد دار السلام على رق غزال مدبوغ ومنقوع بالمسك والعنبر لتمويه ننانة الجلد، ويعرض الخطة المرسومة بماء الزعفران وحبر التوت الأحمر أمام الخليفة، ثم يرسمها على الأرض ويوشر مواقع الأبواب وحصون الأسوار والطاقت والسكك والأسواق بحسب أسماء ساكنيها من القبائل وأصحاب الحرف، يتوسط المدينة المدورة قصر باب الذهب تعلوه القبة الخضراء وإلى شمال القصر الجامع الكبير وتحيط به قصور أبناء الخليفة وقصور الحریم ومنازل الخصيان والعبيد، وبيت إعداد الجوارى الذي ستشرف عليه قهرمانات فارسيات وحبشيات..

ولما يستكمل المهندس رسمها على الأرض بمقاييسها النهائية يرش على الخطوط رمادا لتظهر صورتها الأولية أمام الجميع والمنصور يقف بعيدا ويرى حلمه يتجسد في قصر باب الذهب ويتخيل تماثيل نافخي الأبواق الذين يقابلون الجهات الأربعة في أركان السور..

- مولاي الخليفة أمير المؤمنين أعزك الله، هلا تشرفنا بالنظر إلى خطة دار السلام لترى ما يبدو منها وما ترغب في زيادته عليها.. يتقدم الخليفة على فرسه ووراءه وزيره الربيع ابن يونس والحرسيون إلى حيث رسمت صورة بغداد بالرماد..

- ما هذا يا ابن أرطاة؟؟ ما دهك يا مهندس دار الخلافة؟ أتبدأ حاضرة ملكي بالرماد؟؟ عجل وادع العمال والفعلة ليحضروا أكدا

القطن وليذهب بعضهم إلى أنحاء قطربل وما جاور نهر الصراة من قرى وليأتوا بالزيت من النفاطين في بلدة كلواذى وجهة المخرم فمتى ما تم ذلك أبلغوني قبل غسق الغد..

تمضي في دروب الليل بين جدران متهاوية وأبواب بمطارق من نحاس ونوافذ محطة الزجاج أوصدت ثغراتها بقطع الكارتون، تطرق بابا متهالكا مصبوغا بلون أزرق مما يطلون به زوارق دجلة، وفؤادك يرتعش ومن عمق الزقاق المعتم تعبق رائحة وحل ننتة تتصاعد من مسارب تمر تحت عتبات البيوت تطرق ثائية فتفتح لك امرأة سمراء ملفعة بفوطة سوداء بيدها فانوس ترتعش شعلته الواهنة تحديق بوجهك فزعة كمن فوجئ بشيخ، لكنها سرعان ما تسترد روعها ولا تسأل من تكون بل تفسح لك الطريق وتغلق الباب وراءكما..

تتبعها إلى حيث ضريح (أبي المغيث الحسين ابن منصور الحلاج) ولا يفوه أحدكما بكلام، الكلام صار شبيهة والنطق به التباس، وصار التعويل على حدوس الفؤاد والتخاطر بين عقول الأنداد..

لطول ما أقامت المرأة التي لا عمر لها في الدهور ولكثرة ما شهدت من ذوي الأحوال والمواعد من زوار (أبي المغيث الحلاج) أسقطت القول واللغة من أيامها ولسانها وتداولت إطراقة العين ولمحات الوجه، فلا ريبة بمن يقصد أبا المغيث، الدنيا بأحاييلها ومطامعها قائمة وراء الباب، وأهل الريب لا يقصدون مثوى العارفين، وجياح بغداد يطرقون أبواب الموسرين ويرتادون الأسواق.

تطرق في جلستك على الحصير وتدوم حولك غمامم بخور وترفرف ستارة الضريح القاحلة الإخضرار، تسري رعشة خفية في العتمة ويتدلى خيط عنكبوت مضيئا كنصل ويهبط العنكبوت على يدك فترفعه وتطلقه في الزاوية الظلماء وتعود إلى غيابك الأبيكم..

ألفا رجل تحلقوا حول دائرة الرماد التي إسمها بغداد، ألفا رجل آخرين يصبون النفط على كرات القطن المصفوفة فوق الرماد، تموج وجوه القوم في ترقيتها، و أبو جعفر يشد زمام فرسه ويصدر أمره:
- يا ابن أرطاة ادعُ حملة المشاعل ليوقدوا القطن حين ينفخ في الأبواق..

يترجل أبو جعفر المنصور عن فرسه ويرتقي سطح دير العتيقة (الذي سيهدمه قريبا ويهجر الرهبان والقسس إلى منطقة الزندورد)، غلمان دار الخلافة يرشون الدرج بماء الورد ويعطرون الأرض بأغصان الآس والريحان وماء الأترج والطبالون يعلنون صعود الخليفة إلى ذروة رؤياه وهو يصطاد جوهرة المكان ويطلق عليها الصفات والأسماء..

تشتعل آلاف من كرات القطن المنفوفة على الخطوط المرسومة لأساس المدينة وتقوم (دار السلام) من الغيب باللهب على صفة ما رأى (أبو جعفر المنصور)، تنطلق صيحات التهليل والتكبير من الجند وتسهل الخيول وتحمم ويشتد قرع الطبول والخليفة يتصدى لحلمه الناري بمدينة خضراء وقباب خضر ومروج وحدائق وحوش وجنانن وبرك وحمامات وأسواق، يتصدى للهواء والزمان بمأذن وأبراج وحصون ذوات مزاعل ويصعد بمدينته العجيبة إلى ما يماثل إرم ذات العماد..

مدينة النار واللهب توصل المدى بدخانها، سلاله النار تدمج الهوى بسلامة الماء وتقوم المعجزة المدينة بنار الحريق..

يهتف أبو جعفر المنصور:

- هي ذي معجزة خلافتي ومدينة سلاتي، حاضرة الزمان وسيدة الحواضر..

اللهب أذهل الجموع وحجب الدخان ملامحهم والخليفة يريد استجلاء ما يفكر به أبو حنيفة النعمان الذي كان ساهما وعلى ملامحه أمانر غم وكدر:

- ماذا ترى يا أبا حنيفة في خطط حاضرتنا؟ ألا تراها كأنها فلذة من فردوس بين مقرب النهرين وأرض السواد؟؟
- يا أمير المؤمنين، أخشى أن يكون ابتداء العمران بالنار نذيرا للقادم من الأيام وبذرة لأهوال قد تحيق بأمصار الخلافة..
- بل هو بشير عز سوف يعم البلدان والثغور يا أبا حنيفة، أما سمعت ما كشفه لي المنجمون من طالع أفلاكها؟؟
- لم أسمع يا أمير المؤمنين..
- قالوا إن طالعها يدل على كثرة العمران وطول البقاء وسلامة أهلها من الأعداء، وكشفوا عن خلة أخرى في الطوالع، أنها لا يصادف بها موت خليفة.. انظر النار مغلقة بين مائتين وجزيرتين فعلام الخشية من نذر تنوهمها في لجج الغيب؟
- إني أرى ما لا يرى يا أمير المؤمنين وما لا تكشفه طوالع التنجيم..
- ماذا ترى يا أبا حنيفة؟؟
- ما لا طاقة لي على الجهر به.
- لا تكتم عن ما يدور في رؤياك، أفصح يا أبا حنيفة.
- وإن كان محجوبا عني لكنه يتناوبني كشأن النذير الخفي؟؟
- دعك من الوسواس يا أبا حنيفة وانصت إلى ما أقوله، لقد أنست فيك النزاهة والعدل وسأوليك قضاء (دار السلام) عندما يستتب مقامها ويستقر قومها ويتعاضد القوامون على أمرها، ستكون أنت قاضي قضاة بغداد..
- لن أقضي بين الناس ما حييت.
- ألا تطيعني في توليتي لك؟
- بل أستعفي برضا منك..
- إن استعفيت سأكلفك بشأن من شؤون البناء وعليك إن تمتثل لأمر الخليفة، ستكون قواما على ضرب اللبن وحسابه حتى يتم بناء السور والحصون.

سأفعل يا أبا جعفر، فما بارحت الكوفة لأتولى القضاء، وسأعمل في بناء حاضرتك فالعمران خلق مبارك، ومزج الطين بالتبن وقطع اللبن بالقالب لأسرع بخطوي إلى راحة الفؤاد من الحكم بقطع رقاب العباد على فعل قد لا يثبت وجرم قد لا يصح..

يرى الشيخ قيदार جذر النار يسحب بغداد من وجودها الظاهر إلى جوهرها الغائر في القلوب ويراها ببصيرته مصيرا ممتدا على أفق الدهور فهي مذ قامت من غيب منامات الخليفة وانسفت من مكنون رغبته، غادرت بيت الأمن والأمان إلى العنن المههد المنظور على خط من الرماد واللهب وامتدت في الماء والهواء وأرست بيت حياتها فانصبت إليها الأموال وأهرقت الدماء وأقبلت عليها الرزايا بعد خمسين عاما من عمرانها بادنة أول المحن بحصار يدوم أربعة عشر شهرا حول أسوارها في احتراب الأمين والمأمون والنار تصهل في الأبراج والثكنات وتدير السلطة بالرماد ويفور دجلة ويحل الطاعون وينهار رأس القبّة الخضراء التي في قصر باب الذهب وبعد مائتي عام يتنادم الخليفة المقتدر بالله مع جواريه وقيانه أمام (شجرة الحياة) التي اصطنعها له الصاغة المندانيون الصابنة من ذهب وفضة وجواهر وأقام عليها عصفير من زمرد وفضة وزهورا من ياقوت وفيروز وذهب ونصبت له وسط بركة من قصدير فكان الماء فيها مرآيا تتكرر وتعكس عشرات الأشجار الذهبية في قاعها..

جاريته بدور تكاثر صورتها في لجة الماء ويتصادى غناؤها بأصوات عدة والريح تمر بفروع الشجرة فتطلق الطيور صفيرا ويشهر ثلاثون فارسا سيوفهم يلاحقون بعضهم وكانهم في دورة احتراب لا بداية لها ولا نهاية حول البركة المستديرة ..

وتدور الخمور على الندماء والخليفة مأخوذ بالسكر ومضطرب
بالشهوات، يسره حاجبه بين صفير الطير وزنير الريح بشيء فيرفع
الخليفة يمناه:

- اصلبوه، أقيموا محاكمة وأحضروا شهود الإثبات فينشغل العامة
بأمر صلب الحلاج عن انقطاع الميرة والتجارة عن دار السلام وينسون
عصيان الأقاليم وفتن الثغور..

يرى الشيخ قيدير بغداد تديم حياتها بين نار ونار ومذبحة وطاعون
حتى يختم هولاءكو عمرائها ببرج من جماجم ويقيم تيمور لنك منذنة من
رؤوس أهلها ويطلب من كل مغولي أن يأتي بعشرة رؤوس لرجال
بغداديين ولما لم يعثروا على المزيد من الذكور فقد عمدوا إلى جز
رؤوس النساء وجعلوا رؤوسهن في عداد رؤوس الرجال..

يستدعي الخليفة أبا حنيفة النعمان:

- ها قد قامت حاضرتنا المباركة، التي أريدها دار عدل وبيت أمان
وقد وليتك القضاء فيها ولن أقبل عذرك واعتذارك.

- أقسمت يا أمير المؤمنين ان لا أقضي بين الناس.

-أهذا ما تظهره من طاعة لنا في أول ملكنا وابتداء عز عاصمتنا؟؟

- بل هذا نهاية ما أرجوه في دنياكم..

بمعصية مشينتنا؟

- بل بطاعة من لا طاعة لسواه..

- وطاعة ولي الأمر؟؟

- أطيعه فيما أرى لديه مما لا يخالف الأصول..

-أتظعن بي يا أبا حنيفة؟؟

- بل أنهم نفسي كل أونة إن غفلت وتناوبتني أهواء الدنيا أو لاحت

لي شهواتها.

إن لم تمتثل القيت بك في الحبس.

ذلك ما قدره الله لي وهو أحب إلي من مهنة القضاء.

- ترتضي الحبس وتقدمه على طاعتنا؟؟

- وهل تظنني سأختار سواه وقد اختارني الله له؟؟

عشر عشرون سبعون سوطا، منّا جلدة والجلاد ما عاد واعيا
لحساب عدد السياط التي يجلد بها أبا حنيفة المذهول عن حساب الألم
باستذكار حساب الصبر، وفي سورات الألم ونزف الدم يدرك لعبة
المنصور به يوم جعله يشرف على صنع اللبن وعمل البنانيين ويخوض
في الطين المخمر والتبن ليشيد له سور المدينة.
زاره أحد القضاة وسأله:

- لماذا لاتقبل القضاء ياشيخنا؟؟ إقبله الآن واعتكك من العذاب..

لقد أمر بضربي مانّا سوط، كل يوم عشرة سياط وأنا على

امتناعي، فكيف أقبله الآن؟؟

ولن تسلّم محمدا وبراھيم وعليا أسباط علي بن أبي طالب

للخليفة؟؟

- أسباط محمد ونصرتهم واجبة وروحي فداؤهم.

-لم لم تنصر زيدا عندما خرج علي هشام بن عبد الملك؟؟

- منعنتي عن نصرته ودائع الناس لدي، عرضتها على ابن أبي ليلى

فلم يقبل الأمانة ففخت أن أموت مجهلاً.

- ولكنك دعوت الناس للتمرد على المنصور..

- دعوتهم ليصلحوا الإمامة التي زلت وطغت والحكمة التي زالت

والورع الذي صار جشعا..

تلك اللحظة أيقن أن المنصور قاتله وعليه أن يسلم قدره للخالق وتراءت
له وجوه الذين فتك بهم المنصور وعلق رؤوسهم في غرفا موصدة..
بدأ الألم يفتك بذاكرته وأفرغ الرأس من وعيه والجسد من قوته
وتلاشى صوته وغامت عيناه وفي اليوم الخامس عشر أمر المنصور
بوضع السم في طعام أبي حنيفة وإلقاء بعضه على جلده المتقيح، فتفشّر
جلده في الحال وتناثرت مزق منه فغامت عيناه، وأدرك أنه سوف يقضي
تحت سوط جلاده وطلب أن يتوضأ ويصلي لكن الجلاذ عاجله بسوط
أخير..

تشعل المرأة شمعتين لدى ضريح الحلاج والشيخ قي دار يردد في سر
نفسه أبيتا لأبي المغيث:

حويت بكلي كل حبك قدسي تكاشفني حتى كأنك نفسي

أقلب قلبي في سواك فلا أرى سوى وحشتي منه ومنك به أنسي
فها أنا في حبس الحياة مجمع من الأفس فاقبضني إليك من الحبس

تدع المرأة الشيخ في خرسه، الثلاثة متواطون في صمتهم: الحلاج
والمرأة والشيخ، أدى الحلاج ثمن الجهر بما وجد جسدا مقطعا ورأسا يوتى
به إلى أم الخليفة المقدر السيدة شغب فتعطره بالمسك والعنبر وتكفنه
بالديباج وترسل من يدفنه في هذا الضريح بعيدا عن عيون ابنها وغلاته..

لماذا شاع أمر جمعيتك يا قي دار بجهر ما احتطت له وتعلم ان السلامة
في لجم الإشارة وما صلب صاحبك إلا لجهره بما اعتمل في فواده، وانت لم
تلج حلبة النسيان واعتقت النأي وظننت انك بالغ مرادك في الشتات..
تحضر له المرأة قدح الشاي مع رغيف خبز أسود هو كل ما ابقتته
المجاعة للناجين في الحصار، وقي دار لا يعتزم ادعاء التقوى بل لزم الصمت
لعله يدفع عن نفسه هدر الروح فيما لا يستحق من الأمور..
يحتسي الشاي ويذع الخبز دون ان يلمسه والمرأة ترى عزوفه عنه
وتتكرر قسامتها، يرفع الرغيف إلى فمه ويقبله ثم يضعه على جبينه على

عادة البغداديين في تقديس النعم ثم يعيده إلى الطبق، خشي ان تفهم المرأة استكافه لزادها، والآن فهمت الرسالة وهي العارفة بآثار الصوفية، فهل حضرتها قصة الصوفي بشر الحافي لما دعي إلى وليمة رجل ثري وحين وضعوا الطعام أراد ان يمد يده فما امتدت حتى فعل ذلك ثلاثا فقال أحد الحاضرين:

.. ماكان لصاحب الوليمة حاجة لدعوة من أظهر أن في طعامه شبهة..

لعل المرأة خشيت هذا من قيدار، لكنه لما قبل الرغيف أضاء وجهها فتواري الظن دون ان ينطقا بكلام..

لم يألّف وجوده مع امرأة مذ سرقوا منه فتنة، غابت المرأة وكأنها ذابت في ليل الضريح بينما لبث الفاتوس معلقا على الجدار وانتهت الشمعتان، أرهف سمعه فتأهى إليه صوت تنفس المرأة التي توارت في زاوية معتمة، بلبثته انقاس المرأة الحية في انتظامها..

هل تشبه امرأة عرفها يوما؟؟

لا، لم يعرف امرأة ليلية قاتمة كهذه، لم ير أنثى بهذا الغموض الأسود، لكنه رأى شيئا من بقايا انوثة في ذلك البريق الخاطف الذي التمع في مقلتها عندما قبل الرغيف، ثم رأى ملامحها تنغلق فيكتظ الوجه بالكمد العتيق..

. نمت هناك أمدا لا أعلمه، أفقت على صوت أذان الفجر، فتسللت دون

أن أترك أثرا أو علامة في طريقي إلى المجهول..

فكرت أن أزور ضريح الشيخ معروف الكرخي أو ألمّ بضريح الجنيد البغدادي لكنني عدلت خططي واتجهت إلى مشغل النحات أمير في أول حي المنصور لأبلغه رسالتي عن جماعة حافظي كنوز الجمال، البوابة مغلقة، أطرق مرات ولا جواب سوى العتمة، أدس الرسالة تحت الباب، وأستقل سيارة أجرة إلى مرقد الشيخ عمر السهروردي في أول شارع الشيخ عمر

السهروردي، أدخل من باب المقبرة الجانبي ثم تعطف يمينا إلى حضرة السهروردي فأجد الباب موصدا بالأجر، أنادي القيم على الضريح فيفتح لي باب المسجد الرئيس، أجدني في الباحة التي تتوسطها حديقة بأشجار رمان ونخل وآس وليمون، ويقودني الرجل إلى الضريح، أنصت إلى هسيس خطى الزوار على السجادة العتيقة، أطوف بقبر الشيخ وأردد سورة الفاتحة، والقناديل تتلألأ في السقف حيث قاعدة القبة العليا المطوقة بأية مرقومة بالخط الكوفي: (قل كل يعمل على شاكلته)

أغادر بعد أن اطمأنت الروح في الطواف حول قبر شيخي السهروردي، الذي أزر قراري للرحيل والتجوال وزجني في تجربة من تجارب الكشف والإشغال عن الظواهر بتجليات الروح..

أغادر ليلا واستعيد صوت أمير النحات:

- يا شيخنا، كلنا اتمسنا وتحول بعضنا إلى وحوش لفرط ما شهدنا من جثث وموتى ومحتضرين على الطرقات، بعضنا صار رقما يبرر الكارثة، الباقون تحولوا إلى مصدات تخفي قبح واقعنا الأليم، وكلنا ساهمنا في اتساع المقابر حولنا. فهل نتوقع ان نعود بشرا سويا.؟؟ النتاة تتعاطم في قلوبنا وقد فسدت أرواحنا فلا جدوى من علاج، دعني ياشيخ قيدير أقضي على ذاكرتي بالمثل في ليل المتع والفسوق، دعني أبيع تمثيلي لهم، دعني أنحت جداريات لجنونهم وأقبض ثمن انحطاطي وأشتري قصرا ويهبوني مزرعة وسيارات فارهة وأعشر أجمال نساء بغداد وأحظى بتكريم كل عام، ماذا نتوقع من أمثالي؟؟ لاجدوى ياشيخنا من مواعظك، نحن اتمسنا ولتتهى الأمر..
أجل، ماعدت انتظر شيئا من حشود الممسوخين..

أمضي إلى محطة النقل في الباب المعظم وأستقل سيارة مع أربعة من المسافرين وأتركهم في منتصف الطريق إلى بعقوبة، أسير يومين ولبلتين

حتى أجدني عند أطلال مملكة (أشنونا) السومرية، أحاذي في مسيري نهر
ديالى وأنقصى آثار الممالك الزائلة، وأصل إلى (تل أسمر)، أنام بين
الأنقاض وتعاودني الروى التي كانت تراودني في سرداب بيت أخي، أسمع
حفيف الزواحف وأنين الضباع، وفي منتصف الليل تعلق أصوات المرتلين
من أعماق العالم السفلي..

أشعر بيد رقيقة تمتد إلي، يد راعشة تمس وجهي، يد امرأة
يد فتنة، أضمها إلى قلبي وأشهق: فتنة..

- دعك من هذا الفرار وعد من حيث أتيت، لن تعثر على خلاصك في
التيه..

أفتح عيني فأرى كاهنة سومرية معقودة الذراعين على الصدر وقد
أنسدل رداؤها ذي الطبقات المهديبة حتى قدميها، تحديق في وجهي بعينيها
ذات حدقتي اللزورد، وأرى دمعة تسيل من عينيها، فتبرق وجنتها
المرمرية في نور القمر..

- تقبل حياتك وانس فتنة، فتنة معنا في أرض الأموات، إن شئت تعال
إلى العالم السفلي لتراها..

أقوم فزعا من الكابوس ثم أسقط ثائية في النوم..

أرى فتنة وهي تهبط سفح الجبل وشعرها الأشقر خيوط شمس،
قدمها الناصعتان تخوضان في مسيل ماء العين الضحل الذي تلتمع
الحصباء في قاعه، وعلى جانبي المجرى أزهار شقائق وأبصال
العنصلان، ثوبها يكشف عن ساقها، أراها وهي تفتح ذراعيها وتحلق
إلى أعالي الجبل وتختفي بين أشجار البلوط..

تتقدم نحوي جوقة المتعبدين بعيونهم المفتوحة على حدقات اللزورد
وأسمع خطاهم الحجرية تقترب تقترب تقترب كأنها تعترم سحقي، تماثيل

الكهنة ذوي العيون المندهشة تطبق بثقلها على صدري، فأقوم مرعوباً من الرؤيا.

أهتدي إلى جدول قريب يختفي مجراه تحت كثافة النعناع البري والعليق
وعنب الذنب، اغتسل فأسمع هدير سيارة تقترب..
أختبئ في أجمة العليق وأرى سيارة لاتد روفر يطارد سائقها ورفاقه
غزالاً، وصيادون آخرون يطلقون النار على طيور الدراج..

أصل بعد الظهر ريفاً ومزارع، يهبني الحارس بطيخاً وخياراً، وأدعي
الخرس فيخالني درويشاً يجوب البلاد بلا متاع.
بعد أيام أبلغ جبال (حمرين) التي تحد مملكة أشنونا، ومهندسو المملكة
الأشنونية يبرهنون على العضلات الهندسية تحت خسوف القمر أو سقوط
امذنبات قبل خمسة آلاف عام..

أشم رائحة الخبز في أطراف البيوت التي هبط عليها غسق أحمر، تهب
في جسدي اشواق لخبز وجسد امرأة..

أقايض ليلي بالنهار وتسفع وجهي ريح مألحة مرت على أشجار طرفاء
وأثل، إذن ثمة نهر يدنو مني أو أدنو منه، الطرفاء لا تنمو إلا على
الضفاف، أمضي الليل تحت قنطرة. وأستعيد ملذات الجسد مع فتنة، أهدق
بصدرها الناهد وعنقها وفخذها، فمها يتفتح كزهرة الشقائق وتعلو
همهمات الريح وأغاريد طيور الجبل وخرير مياه العيون المتحدرة من
الأعالي، أعاتقها وانتشق عبير أنوثتها وأرشف أنفاسها، وأفيق وأنا أنشج
عند انتصاف الليل..

أعثر على رؤوس صواريخ وأغلفة رصاص وأصابع متفجرات تركت
على سفح بعد انسحاب الجيش، أتسلق تلة صخرية بين جبلين فيروعني
المشهد: هياكل عظمية وأصابع مبتورة منفسخة

ومزق ثياب ملونة وبيريهات عسكرية وخوذات، أهرب من حفيف
الموت حتى أبلغ مخيما للعجر ضاجا بالحياة، أمضي الليلة معهم..
تقترب مني عجزية وتحقق بوجهي الهزيل وشعري الأبيض لكنها تلتقط
النار السوداء في نظرتي:

- قم وارقص معي..

مثقل بالشهوة والتعب تسحبني اليد القوية السمراء فأرقص معها ملوحا
بذراعي لاهتا من انفجار رغبتني أدور وحدي في حلقة الرقص حتى أتهاوى
فتمددني العجزية على بساط وثير وتنام معي وتدثرني بلحمها الساخن
ورائحة جسدها العابق بالعرق والطر الرخيص، أضمها بشهوتي فتستسلم
لي، وتهبني مالم أكن أرجوه من متع النساء..

لم أعرف إسمها وما سألت عن إسمي، كنا محض جسدين غفلين من كل
شي إلا الشهوة والجنون..

أغادرهم عند الفجر وأجدي بعد نهار قانظ عند مداخل مدينة (الموصل)،
أشتري حذاء عسكريا قديما وسروالا كسراويل الجبليين بعد ان تهرأ حذائي
وسروالي، وأتخفي بين أطلال نينوى، وفي الصباح التالي أبلغ معسكرات
الهاربين من معارك الجبال، والتحق بمسيرة الناجين من مطحنة الموت.
أمضي معهم في التيه، تقترب مني امرأة ذات قامة نحيلة ووجه فقد
ملاحة الشباب وتحادثني بصوت هامس كهذيان مجنونة:

- قضينا أربعة أيام نسير في الثلوج وتحت المطر، ثم اجتزنا القرى
المحترقة ولم نر شمسا منذ أسابيع، كل شيء كان يموت الناس والأشجار
المحروقة والبيوت، مات زوجي وأبوه بالغنغرينا بعد أن تجمدت أقدامهما
وازرق، وبتر ممرض ساق امرأة عجوز وحملها ولداها بالتناوب وبعد
يومين ماتت ودفناها على الطريق، فأين تذهب يا عماء معنا؟؟
نحن في مسيرة موت، وكل يوم ندفن واحدا أو اثنين من جماعتنا على
الطريق، أنظر إلي، انظر إلى وجهي ..

فكت ربطة مندبل الرأس كان شعرها قد تساقط في قمة رأسها وعلت
البثور وجهها،
- بعث أقرابي لأشترى هذا الحذاء وقبلها بعث ساعتى لأشترى أرغفة
خبز لمن مات من عائلتي..

كان قناصون من الجيش يختبئون في المغاور ويطلقون الرصاص على
صفوف الهاربين من المدنيين..

- اغتصبوا البنات الصغيرات أمامنا وماتت ابنة اختي سلبوا كل متاعنا،
ودفنتها بيدي على جانب التل، ارجع لا تمضي إلى الهلاك معنا..
وجه المرأة مجبول من عتمة وقهر معتق، عيناها غارتا وأحاطت بهما
الزرقة، تقشر جلد يديها ونفر الدم من شقوق الجلد، شفتاها كستهما طبقة
جافة بيضاء، قلت في ذات نفسي:
- انها الحرب تسير على قدمين..

قلت أيضا لماذا لا أصحبها في التيه؟؟ أسير معهم ساعتين أو ثلاثة وفي
منتصف النهار أتركهم، أترك المرأة الحرب، تصيح بي:
- أين تذهب؟؟ في الأقل كن معنا فإذا مات واحد منا نتعاون على دفنه
حتى لا تلتهمه النسور..

في القرية التالية على الجبل أجد الطريق إلى قرية (عين سفني) حيث
بقايا سفينة نوح في أعلى الجبل، اليزيديون يحرسون البقايا ويعتقدون
بحدوث طوفان عظيم سيأتي على كل حي، وعليهم حينها أن يلوذوا ببقايا
السفينة..

عند مرقد الشيخ عدي شفيهم رحبوا بي، تظاهرت بالخرس، صحبني
رجل منهم إلى صخرة مرقومة بكتابات مسماوية:
- هنا بقايا فلك نوح ونحن نجاورها وننتظر النجاة..

نعتصم بالجبل ونعتزل عالمكم ونصطفي من نشاء ونطرد من لا نريد،
انت أيها الشيخ الأخرس ضيفنا ومقبول لدينا..

، على هضبة جرداء كان جنود يجلسون في ضوء الغسق مع أسلحتهم
والقسوة تهب من روائحهم، أشعلوا نارا في نصف برميل عند حاجز
صخري أحدهم يغني (يا ملخذين الولف ولفي واريد. وياه) ويتهدج صوته
بالحنين وتردد الوديان أصداء الأغاني الحزينة.

مستغرقا في وحشة الجبل رأيتهم مطرقين بلا ندم وتخيلت قرب صدغ
كل واحد منهم فوهة مسدس متخذة وضع الاستعداد للقتل في انتظار ضغطة
واحدة ليقال بعدها:

- خائن استحق الموت..

بعد منعطف جبلي وعر ودخان الحرائق مشتبك بالضباب عثرت على
فتنة تحتصر بين جنث أقاربها وأنقاض البيوت المحروقة، وفي تلك اللحظة
تحدد

مصيري مع فتنة وكوكب زحل..

وجدت فتنة الجريحة خلال رحلة لي إلى تلك القرى في مناطق لاليش
وعين سفني حيث عين الطوفان وبقايا سفينة نوح، كنت في سيارتي وريح
عاصفة تدوم بين الجبال وتتصاعد معها نيران الحريق كان الجيش قد أحرق
سبع قرى معلقة على السفوح ورأيت القوات العسكرية تنسحب من القرى
المحموة التي هرب بعض أهلها وقتل الباقون في سنة مقتل مهند ابن أخي،
صحبت فتنة إلى مستشفى في مدينة الشيخان أسعفتها ممرضة مسيحية من
قرية باعذرا، وبدأت أبحث في القرى عمن يمكن أن يعرفها، قيل لي أنها من
قبائل مترحلة، وقيل لي أنها من أصول مسيحية وليست يزيدية، انا لا
أعرف لغتها وهي تجهل العربية، حتى وصلت إلى مضارب قبيلة كردية
خارج الشيخان، وسألني رجل حين طلبت التعرف إلى أهل فتنة: -

- ما لون ثوب المرأة؟؟

- ما تبقى من ثوبها كان خرقة زرقاء وبعدها دثرتها بثياب لي..

هي ليست يزيدية اذن، اليزيديون يحرمون اللون الازرق، لون الطاووس المقدس..

دلني على أسرة هربت من احدى القرى المحروقة فقدت أبناءها في الهجوم، لعلمهم أهلها، خاب ألمي، ولم يتعرف عليها أحد..

تكلموا معها بالكردية ولم يتوصلوا إلى معرفة قبيلتها أو أهلها فجنت بها إلى بغداد وعقدت قراننا وتزوجنا..

الآن لم أعثر على أحد ممن رأيتهم في تلك الرحلة فاتجهت إلى جبل (مقلوب) وقصدت دير مار متى فوق الجبل حيث أعانني الرهبان في شفاء فتنة وسقوها مغليات الاعشاب وعمدوها بماء عين (سارة)، قال الأب جبرائيل: عين ماء معدنية تشفي البرص والحروق، أعانني الأب جبرائيل وأكرمني، امضيت ليلتين في الدير العظيم.

مرة أخيرة بعد نحو خمسة عشر عاما وصلت أخيرا إلى الدير الأثري بينانه الجليل، وبحثت عن الأب جبرائيل الذي شاخ مثلي لكنه احتفظ بنضارة الشباب وهو يعيش زهده على قمة الجبل..

حدثته عن جمعيتنا فأعلن لي أنه سيساعدني في مسعاي، وأنه سيعمل على تخصيص عدد من الصوامع في بطن الجبل لحفظ الكنوز التي ساجمعها من بغداد ومدن أخرى..

وعدت إلى بغداد وجمعت ما تيسر لي جمعه من الكنوز المعروضة للضياع ونقلتها إلى صوامع محفورة في قلب الجبل لا يمكن أن يصلها بشر إلا من كان عارفا بمساراتها في بطن الجبل العظيم

الفصل الثامن

كتاب البنات

الكراسة 26 البنات في عمان

قالت راوية وهي تغمض عينيها النرجسيتين فتظلل أهدابها وجنتها العالية:

- و ماذا في الأمر تزوجت رجلا عبر بي الحدود باعتباره محرما لي، ماذا في الأمر؟ هو زواج بلا شانبة، معي عقد زواج موثق لدى المحكمة..

- وتطلقت منه؟؟

- ليس بعد، قد لا نتطلق، بدأت أعتاده، أمنح نفسي فرصة، ربما نواصل معا.

- وهو؟؟

- لا تخشي علي سأوقعه في حبي إذا قررت البقاء معه، ليس أسهل من هذا..

- راوية، أهذه أنت؟؟

- أجل، راوية تغيرت، و ماذا أمامي غير هذا الخيار؟؟، الحروب علمتني أن أفكر بنفسي فقط، لا أحد يستحق حب امرأة، كلهم سواء..

- هل شفيت من نديم بهذه السرعة؟؟

- بل محوته من حياتي برجل آخر وإن لم يرق لي هذا سأمحوه برجل جديد..

راوية تمحو الرجل بآخر والمسافات تمحو المدن والناس، لا أثر لبغداد ولا أثر لروائح بغداد وأوجاعها، لا شيء منها، عمان لا تشبه إلا نفسها، مدينة راسخة في سلامها، تعانق صخورها الناصعة الريح

وظنين النحل، الياسمين يغمر الطرقات ونحن معها، هكذا هو السلام..
عبير صنوبر وأرج ياسمين أبيض يهب على أرواحنا وطائر أسود
يتخفى بين أجسام الصنوبر، لو كان حامد أبو الطيور معنا لكتب لنا
إسمه على ورقة: طائر العقق، السماء أشد زرقة من أزرق البحر
العميق، نسيم يطف القيقص الصخري يهب من الظلال المنعشة لأشجار
السرو والشربين والنيوكالبتوس، لا نخيل هنا، والظلال تبدو هشة
وخفيفة وعطرة..

قالت راوية: المصير لا ينتظر، نبقى بلا مصير لو تخلفنا عن الموعد
واقتنص الفرص..

قلت لها: صدقت يا قناصة الفرص.

ورقة صغيرة تحولنا من مواطنين مشردين إلى لاجئين في بلاد
أخرى، تلقي بنا في مهبات الخوف، تنثرنا مرقا بين جليد المدن..

انتظروا حتى الساعة 12.. سيقابلكم موظفو المندوبية السامية
لللاجئين..

قال الرجل المكلف بالحراسة، وأغلق الباب..

قالت راوية: ننتظر.. نتفرج على القصور، قصور وزراء العراق
الهاربين تعرفون ذلك الوزير ملاحق من الأنتربول ما يرتاح ليلة، لقمته
سم ونومته غم، هو نفسه عراب نديم الخائن، تعرفون، نحن أسعد حظا
منه والله، ماذا لدينا غير أرواحنا؟؟ لا نخسر شيئا بعد أن خسرنا كل
شيء..

تفتح ترموسا صغيرا وتسكب في قدح الغطاء شايًا: خذي آمال
إشربي، أنت تسعين، لا تهتمي تفرج، لا بد من طريقة، منار لا تياسي،
للجوع؟؟ والله لا أظنه الحل الأمثل، إذا رفضونا نرجع لبغداد، نعم نرجع
معنا رجل، معي زوج، لا تضحكن مني، أوف تبللت حافة بنطلوني،
الأرض مرشوشة بماء، تقولين يرفضوننا؟؟ ولا يهم، أعود لبغداد عندي

بيت ووظيفة ورجل يحميني..

اجتمعنا بترتيب من بعضنا وبمصادفة من أقدارنا عند المفوضية العليا للاجئين في عمان، بعد أن هربنا كل بكارثة على مقاسها من بغداد أنا ومنار وشقيقتها آمال وهيلين مع زوجها محمود شقيق راوية وفوجنا براوية مع زوجها الذي عقد عليها عقد زواج أبيض كما يسمونه في عرف المهربين الذين يبتزون النساء الوحيدات التواقات إلى السفر..
في المقابلة سألونا:

- أ لديكم اقارب في أمريكا - كندا بريطانيا - فرنسا؟؟

- لا..

قالت راوية وزوجها سامر: لا أقارب..

هيلين قالت نعم لي عم في ديترويت، هنادي عبد المسيح قالت أخي في فرنسا.. ومنار قالت لنا أنسباء في بلغاريا، أليست في الإتحاد الاوروبي بلغاريا؟؟

- لا، لا ينفع بلغاريا لا تقبل لاجنين.

شهقت منار وحملت في وجه أختها آمال، كيف لا يمكن؟؟

- سنرى، يلزمكم انتظار شهور ربما لجوء أو توطين أو رفض، لا

نملك ضمانات..

وأنت حياة؟ أه انت الوحيدة التي لا تبالي.

همست لي راوية بشيء من الغلّ -

حتى إذا لم تحصلي على التوطين أو اللجوء، لديك الحب لديك ناجي، يلعن أبو الدنيا، أمرك محلول يا بنت، بس أوف من الدنيا لا تثقي بأي رجل يا بنت البابلي، إسأليني، ياللا، سنرى وقد تنجين من محنة التشرد بالحب، من يدري؟؟..

قالت منار: اين نذهب إن رفضوا طلبنا؟؟ أنبقى هنا كالمسولات؟

- بوسعك العمل مع طبيب عراقي - قالت لها راوية أو تعمل أمال
تفتح عيادة بغطاء طبيب أردني وأنت معها..لا تفكري، تفرج، ننتظر
ونرى أما اليوم يا بنات فانتن مدعوات في بيتي سارسل زوجي الموقر
سامر إلى المقهى لتعيد أيام بيت النساء في شارع الطاووس الأزرق، لن
أدع واحدة تفلت وقد اجتمعنا، لن نفرقنا لا الأمم المتحدة ولا أمريكا،
سناتين جميعا معي، أمي منذ تقاعدت من التدريس لا يشغلها غير
الطعام، تقول:

- أغذي الذين حولي بما أقدّر عليه، أرد على هجمة الموت بالطعام،
ما عندي طريقة أخرى.. تلبستها الفكرة طوال سنوات الحصار، باميا
وتبسي باذنجان وبرياني ومعجنات وكبة حلب وكبة موصل وحلاوة جزر
وفستقوية ولقمة القاضي ومخللات ومربيات..

تقول: نحفظ تراثنا بنتي، المطبخ ثقافة شعب، لا بد أن أنقل اليك ما
تعلمت من أمي وجدتي لتنتقله لأولادك، الكتب التي يكتبها الكتاب لا
تكفي، ولا القصص ولا الأغاني.

أقول لها: أمي، أجيال ضاعت ودمروا حياتها وأنا لا أولاد لي لأنني لن
انجب طفلا للموت.. تعلمت من هاني البابلي، لن أنجب..

تقول: في الأقل نحفظ شيئا من تراثنا..

- أمي أي تراث ألا ترين ضياعنا؟؟

تأتين لبيتي يا بنات شرط، أن نسلم أرواحنا لحياة، أقصد قصصنا
لنكتبها حياة، لكن هالة، هالة الوحيدة التي تنقصنا، ل ماذا سافرت إلى
سوريا، تلك غلظتها، كانت فكرة والدتها، واحدة منا لا بد أن تسجل ما
جرى، أنت من غيرك؟؟ لا بد أن تكتبها قبل أن نموت، أرجوك يا بابلية،
فديتك اكتبني أولا قصتي مع نديم، لا لا، أكتبني قصة منار وقصة حزام
أعني هالة، أكتبني قصة هاني، لا تنسي قصة هيلين، قصة حامد ابو
الطيور.. تهمس لي:

(وين صار حامد المسكين؟)

- اختفى بعد سفرك المفاجيء، لا نعرف ما حل به..
- معقول؟؟ أكان يحبني إلى هذا الحد؟؟ يالي من غيبة، لماذا لم أتزوج حامد؟؟ في الأقل كان سيدلنني، سامر يبتزني، زوج عاطل وأنا أنفق عليه، سأزهق منه، أعرف نفسي، حامد كان رجلا حقا..

في الشقة الصغيرة وسط جبل الحسين قرب مدينة الألعاب، تضحك راوية، تضحج بالضحك والكلام وتدمع عيناها، فمن فرط ياسها تحولت إلى امرأة بمزاج ساخر تهزأ من كل شيء ومن نفسها أولا، أما روحها فخواء، تحشو الوقت بالثرثرة، تهذي وجسدها رماد كيف ساكتب عن امرأة من رماد؟؟

تعالني راوية، هيا إحكي تفاصيل قصتك مع نديم وزواجك من سامر، نبدأ بك، تعالي لا تتهربي واجهي حقيقتك.. ولا تنسي حامد..

- أية حقيقة؟؟ أنت أيضا تتخيلين وجود حقائق؟ الرجال خوانون بالمطلق هذه هي الحقيقة - أف من هذا العالم، أريد أن أنسى لاتنكأي جراح قلبي، لا، يبدو أن الممحاة مانفعت، ليس لدى سامر ما يعول عليه، لا أريد ان أحكي، من قال لك أن سامر لن يتركني إذا وجد فرصة أفضل، أعني امرأة أغنى مني؟ ورطت نفسي أنا مجنونة، أهذي، إنسي ما أهدر به، انظري شعري يتساقط سوف أغدو صلعاء، انظري ما صنعه اليأس والحرق، أحب رجلا خاتني وأتزوج من مهرب لا أعرفه، ومن أحبني حقيقة يختفي، قلت ما الفرق؟ معرفة تاريخ نديم ما نفعنتي، فلأتزوج من رجل أجهل عنه كل شيء ولا أريد أن أعرف عن غرامياته وتاريخ أسرته، تساوت الأمور لدي، إنسوا، تعالوا نأكل على مائدة أمي..
أمي تطبخ ما تشتهي قلوبكم، سخرت سامر معها للتسوق كل صباح، ياليتها تطبخ حسب، بل تدعو كل من تسمع بمروره في عمان من معارفنا، بيتنا صار تكية، أمي تقيم ولاثم بلا مناسبة، تحاول ان تسعدني

بالطعام، تصوروا تعوضني عن خسارة نديم بالدولمة والبقلوة والكباب،
الرجل هل يساوي ذلك؟؟، الرجل مثل سامر لا يساوي سوى المال الذي
ندفعه ثمنا لتهريبنا من لعنة عمرنا الناقص وأنوئتنا، نضحك على
الحكومة وعلى أنفسنا ونلجأ لمهرب، كل يوم جمعة تدعو صاحباتها،
أمي لسنا في بغداد، أمي كفي عن هذا، تمضي النهار ونصف الليل في
المطبخ، قلت لها وهذه الصالة والغرفة لمن؟؟ ندفع أجرة شقة في جبل
الحسين ونقيم في المطبخ؟

تسكت راوية وتجهش بالبكاء ثم تهمس لي:

حياة لكي لا ننسى، أكتبينا قبل أن نموت وتطوى حكاياتنا
أحفظينا في كراساتك كما حفظت كراسات عمك قي دار.

تدور بنا الدنيا دورة دم كاملة، لا في الجسد بل في البلد المتداعي، في المدن المتهالكة ليلها والنهار، ربيع آخر وثالث تظن اسراب النحل حول زهور الأكاسيا وشجر الزيتون يبرعم وعوده وشجيرات الآس تنور بزهورها النجمية أسيجة الحدائق في حي الداوودي، منار تقيم معنا في شارع الطاوس الأزرق على مبعدة عشر بيوت، تعبر الحرب بفستان حرير تزينه زهور صغيرة صفراء، الموت يتوارى أمام بهانها، لا تطرف عينها لخوف أبدا لكنها تأتي الي مساء أحد الأيام وهي ترتجف:

- حياة وصلني تهديد بالقتل لأنني أتسلم أدوية من جهة أجنبية وأوزعها في المستشفيات التي تعاني من نقص في الأدوية الأساسية، التهديد حاسم:

-أنت متعاونة مع العدو، رأسك مطلوب للمجاهدين.

- هل بلغت جهة ما عن الأمر؟؟

تصمت، من تبلى؟؟ من يعنيه أمرها في فوضى القتل والمصادم؟؟
تواصل تسلم الادوية من جهات إغاثة اجنبية وتوزعها في العيادات الخارجية وقسم الطواريء..

تسألني: هل أقوم بعمل خاطيء؟؟ المرضى يموتون بلا علاج ولا أحد معني، بل أن بعض الموظفين يسرق الأدوية ويبيعها على الأرصفة، هل أخطيء في إنقاذ العشرات بأدوية متاحة؟؟
- أبدا..

-هم لا يفهمون ذلك، يعدونني متعاونة.

-من يعرف بالأمر؟؟ هل ثمة أحد يترصدك؟؟
-هذا عملي من سنوات الحصار كنت أتعامل مع منظمات إنسانية
دولية تاتينا بتبرعات، ما الجديد؟؟

-هل رأيت سرى؟؟

-أية سرى؟؟

تلك الصحفية التي كانت من محظيات أحد الكبار وكانت تنشر قصائد
سقيمة باسم (سلسبيل الراشد) تتغزل فيها بشاعر من عشاقها، ثم تحورها
بعد حين فتتحول إلى مدائح لأحد الكبار الذي استحوذ عليها لعامين.
ما بها؟؟

تعمل الآن مع الصليب الأحمر، وقد ارتدت الحجاب والجلباب،
سمعت أن لها علاقة بإحدى الميليشيات.

قالت أنها رأتك في الهلال الأحمر، قابلتها أمس عند زيارتها لمدير
مؤسستنا وكنت أعرض عليه الكتب التي راجعتها قبل الطباعة، كانت
تعمل سكرتيرة له قبل أعوام وغادرت المؤسسة بفضيحة فجرتها
زوجته.

تصمت منار وتتصل بأخيها رافد أستاذ علوم الحياة في جامعة بغداد:
رافد، لست وحدك المهدد، وصلوا الي أيضا.. أرجوك عد إلى
البيت، أمي وحدها..

قالت لي:

بدأت أخاف حياة، فعلا أنا خائفة..

- توقفي عن تسلّم الأوبية، إبحري الخروج، أطلبي إجازة ولمكثي في
البيت..

-المرضى يموتون، إنها عملية قتل متعمد، لا أستطيع أنا طبيبة،
لألا..لا يمكن، هذه جريمة..

رائحة الذكورة الثقيلة وأصوات الرصاص أيقظت منار من غيبوبتها، رائحة شانكة وخزت أعصابها وانتشلتها من الغياب لتكتشف أنها عارية تماما ونهداها المرضوضان يرسلان أنينا جارحا إلى حواسها، شعرت بالبلل، بردت واقشعر جلدها، كانت عارية وملقاة على سجادة التبريز المنقوعة بالدم، دمها طمس ألوان السجادة الفارسية، اختلطت النجوم والأزاهير والطيور والكاننات التي لها أجساد غزلان ورووس بشرية بعيون حزينة، إمحت ملامح النقوش وتوحدت في لون أحمر قاتم كخشبة محروقة، جسدها العاري بدا أشد نصوعا فوق السجادة التي تلاشت ألوانها في كثافة الدم..

تحركت يدها ولامست وبر السجادة الكث، أدركت الأصابع أنها تلمس نقشا بارزا لجناحي طائر تعرف أنه كان موشكا على التحليق، بين اليقظة والكابوس أحست أنها تعوم في الهواء تحيطها رائحة ليل بارد مفعمة بالسواد ورائحة ثقيلة تبقت من عرق ومني الرجال..

ظلام كثيف ووثير مثل لحاف مخمل ينسدل على وجهها وصدرها وبطنها وساقها ووخز خيط نحيل من الضوء يتسلل من النافذة ويخترق عنقها ثم ينطفئ في لحمها الراعش، لمست اصابعها الوجه المكتظ بتكشيرة الألم والإحساس بالعار، وتعثرت بخدش سميك تجمد عليه الدم يمتد من صدغها حتى ذقنها

بين نوبات ألمها واشتداد النزيف كانت تنام وتصحو برهة ثم تروح في غياب الألم، دفق الدم بين فخذها يستل روحها ويلقي بها في هذيانات ونحيب..

أرادت أن تنهض لتتبول، شيء ما يثقل أحشاءها الممزقة، عجزت عن الحركة، جسدها مرضوض ومدمى كأن حادلة مرت عليه وهرست

اللحم مع العظام..

هل ماتت؟؟ الوجع وتقلصات بطنها والدم الدافق ينبئها أنها حية، ما الموت إن لم يكن هكذا؟؟ بلى هي ميتة لكنها بلا قبر كمثل الآخرين المذبوحين الذين تلقى جثثهم المشوهة على الأرصفة كل ليلة في بغداد.. ما عادت تعرف الحد بين اكتمال الموت ورائحة الرجال التي تفوح من جسدها المهشم مع رائحة الدم، أعتت نفسها تلك الرائحة القوية التي تشبه رائحة الخيول في الصيف، في صباحها ذهبت إلى نادي الفروسية في حي (المنصور) تدربت على ركوب الخيل خلال شتاء بغداد المبتسر، لم تكن هناك غير أشداء الكافور تفوح من أشجار اليوكالبتوس وشذى الدفلى المر، وعندما حل الصيف جعلتها رائحة الخيل العابقة بالعرق والبول والأنفاس الثقيلة تنقياً كلما ذهبت إلى النادي فتوقفت عن متابعة التدريب، وأحبت الخيول صورة للجمال الحيواني المتسم بالكبرياء والفتنة دون أن تقترب منها...

لا تدري أين يبدأ الكابوس وأين ينتهي الواقع، اختلط الأمر على وعيها، كانت نانمة الآن ورأت حلما عن زمن ناء، طفلة كانت، في زمن لا تعيه، ضاعت من أمها في السوق بين باعة البرتقال والخس وجمار النخل والكما وثمار السدر والسمك أوقفت أمها سيارتها قرب عيادتها وصحبته إلى السوق الشعبي القريب في حي الوشاش الواقع بين حي المنصور وحي إسكان غربي بغداد، كانت تتفرج على سمكة ضاحكة لها زعانف من ذهب وبرق، سحرتها السمكة وهي تضحك بأسنانها الخيطية الحمراء وبدأت تعد الأسنان، ثم اكتشفت انها أضاعت أمها وبكت.. أخذها رجل لم تتبين ملامحه إلى بيت مظلم، قال لها سنلعب معا لا تخافي، داعب جسدها فبكت، أعطاهها حلوى، ومص أصابعها ولعق وجهها.. قال لها أنا قطة، القطط تحب أن تلعب وجوه البنات، رائحته هي ذاتها الرائحة العالقة في هواء المكان، خافت بكت كثيرا حين رفع ذيل فستانها الأزرق ومد يده بين فخذيهما رأت وجهه ينمسخ يصير وحشا

وتتلوى ملامحه وتجحظ عيناه، صرخت صرخت فأختفى الرجل ووجدت نفسها مع قطة سوداء لها نظرة متوحشة، بكت منار وقالت أريد أمي أريد أمي..

سمعت القطة تناديها..

-منار منار

، صدقت أن القطة تتكلم، هي سمعت الصوت يصدر عنها، هل سمعت أم توهمت؟ لا تعرف..

..هو صوت أمها.. صوت رعبها هي، بكت ولم تعرف..

تحولت القطة إلى امرأة، لمست شعرها ويديها، حملتها بين ذراعيها، خرجت بها إلى حقل قمح محاط بشجيرات شوك، ضوء الشمس يبهر البصر، نامت الطفلة بين السنابل وخشخش القش تحتها، أحببت وخز القش ورائحته الممتزجة برائحة التراب الرطب ونبات النفل المسحوق كرائحة أمها، بهر وهج السماء البيضاء عينيها حين فتحتهما، أغمضت عينيها ونامت، نامت واختفت المرأة.

شمت الطفلة رائحة خبز ساخن، هطلت عليها أرغفة شهية وغطتها، استحال كل شيء إلى خبز، الحقل والسماء، وثوبها الأزرق صار رغيفا هانلا طريا وساخنا، تحب الخبز وتشتهيه بدأت تمضغ ثوبها وتضحك، تضحك، شمت رائحة أمها أيضا..أفاقت من الحلم ولم تنسه قط..

هنا رائحة الدم النازف بين فخذيهما وليس من خبز لمن كانت طفلة في كابوس..

هي عانمة في بركة الدم المتخثر، الغرفة دم والسقف دم، الظلام يتخذ لون دم أحمر قاتم، دمها هي، يدها مدماة أيضا..

رأتهم منار يغادرون الغرفة وهي تموت، تماوتت، كتمت أنفاسها، قاومت آلام أحسانها التي مزقتها اغتصاب الرجال الأربعة لها بالتتالي، الرصاصة اخترقت ذراعها وخرجت من الجهة الأخرى، امتزج النزيفان: دم على فخذيهما القمحين العاريين. ودم من جرح الرصاصة في ذراعها..

لم تتحرك لم تدع أنفاسها تفلت، قاومت الحياة والموت في اللحظة ذاتها، إذا عادوا سيجهزون عليها، ثم تمنى أن يعودوا لينهوا ألمها وعارها لكنهم غادروا الغرفة..

لم تميز وجوههم، أصواتهم فتيية، حانقة وسوقية لهجاتهم خليط من لهجات الوسط الريفي، رجال لهم رائحة إصطبل ورماد، أكفهم خشنة وأجسادهم مجففة كجذوع النخل، كانت مغمضة العينين كانت ترتجف هلعا وتصرخ عندما سحبها رجلان والقيام بها على السجادة ارتدى أولهم فوقها..مزق قميصها وعرى صدرها ونزع سروالها الرمادي ثم مزق لباسها الداخلي، صرخت، وخمشت وجهه، كتم فمها بيده ونهش نهديتها، نفر دم وغطى صدرها، صرخت، لم تسمع صرختها، كانت تموت، همهمت وندت عنها شهقة موت، سمعت صوت إطلاق الرصاص في الغرفة الأخرى ..

سمعت أحدهم ينبيء الباقين :

قتلته، انتهى الكافر الدكتور رافد البغدادي إلى جهنم وبنس

المصير...

في اللحظة ذاتها أحست بنار حارقة بين فخذيهما، همدت ومات جسدها، مات، ثم ثلاث طلقات، وصرخة واهنة من والدتها، قتلوها بفارق دقيقة أو أقل، تناوبوا عليها، لم تعد تدرك أين هي وماذا يحدث لها، كم كان عددهم؟؟ أربعة أم خمسة؟ لا تدري لأنها سقطت في غيبوبتها، فاضت دماؤها وأحست بالبرد، ارتجفت من البرد والرعب وأغثت نفسها، تقيات احشائها، كان جسدها يختض ودمها يتدفق، ستموت، تموت وحيدة، سرت رعشة النزيف في جسمها وشعرت بالوهن، اختنقت بالعبرات، لم تقو على تحريك ذراعها النازفة جف حلقها والتصق لسانها بلهاتها.

سمعتهم يحطمون الباب الخشبي ويفتحمون البيت ويطلقون الرصاص، كان الوقت قبيل الغروب والناس منهمكون بأعداد وجبة

الإفطار ليوم صوم رمضاني طويل، كانت تشم رائحة حساء العدس والبصل المقلي وشواء الكباب وشذى الرز العنبر، شمت عبير ماء الورد من بيوت الجيران حلاوة رز، أو مهلبيات بزعفران، سمعت ولولة أمها أولا فانكمشت في زاوية غرفتها، شل الرعب ساقيها سمعت أخاها:
خذوني أنا واركوهما، اتركوا أمي وأختي اللعنة عليكم، وحوش
أنذال قتلة.. اتركوهما وخذوني أستم تطلبون رأسي؟؟ ها أنا امامكم
خذوني..

تسمع أصداء أصواتهم ثم لاتعود تسمع شيئا، يهبط الصمت المريع
على روحها..

كانت سترحل بعد أيام إلى الأردن ومن هناك تتجه إلى أية بلاد
تمنحها فيزا، بعد أن وصلتهما تهديدات القتل هي ورافد..

حين أنجز القتلة كل ما أتوا لأجله خرجوا إلى الحديقة الواسعة، وهم
يترنحون من نشوة الإغتصاب والقتل، رائحة الدم تعبق من أجسادهم
وثيابهم، ما عادوا يسمعون شيئا همدت الأصوات والصرخات، حضروا
من أجل اختطاف رافد ولكنهم غيروا الخطة التي رسمها لهم أمير
الجماعة عندما تعطلت سيارتهم فتركوها عند تقاطع شارع 14 رمضان
مع شارع المنصور مقابل بقايا منصة الاحتفالات التي كانت تقام لعيد
تأسيس الحزب الحاكم..

كانوا أربعة رجال ملثمين، يحملون الكلاشنكوفات ويرتدون سراويل
فضفاضة أحدهم يرتدي قميصا مبقعا كتلك التي يرتديها مغاوير القوات
الخاصة، الثلاثة الباقون حملوا غنيمتهم من الحلي والمال وبعض
الأوراق في ملف اخضر داخل كيس من البلاستيك..

جلس إثنان منهم على الارجوحة في الحديقة الخلفية الواسعة،

الوسائد التي من قماش الخيام الأبيض المخطط بالأحمر علتها طبقة من غبار عاصفة الأمس جلس الآخران على كرسيين من حديد مزخرف مطلي باللون الاسود، أحدهما كان يتحدث بتلفون نقال ويردد-

نعم نعم أميرنا تم كل شيء، تمام - قمنا بالواجب أرسلناهم إلى جهنم بعارهم، كما أبلغتك شيخنا تعطلت السيارة.. مافائدة الإختطاف..؟؟ لا أحد سيدفع فدية عنهم، قتلناهم ثلاثتهم..

ماذا..؟؟ نحضر الرؤوس؟؟ لا أميرنا لم نذبهم أطلقنا النار عليهم، المرتد مات أولا، أخته قاومت ثم استسلمت، الأم كانت من حصتي، نعم نعم شيخنا، نعم تطهرنا اغتسلنا وتوضأنا.. تنتظرنا على الإفطار؟؟ لا لا سنصلي ونفطر هنا، لا يمكننا العودة إلى المقر قبل الساعة التاسعة.. الشوارع مزدحمة في رمضان..

تسأل أحدهم:

-هل فتشت كل شيء؟؟

البنيت كانت جميلة بيضاء ترددت في قتلها بعد أن ضاجعناها جميعنا، كانت قد ماتت..

ماتت فقد كملت فمها، كانت بكرا لم يمسه احد أنا فزت ببيكرتها قبلكم..

ربما اختفت عندما بركت أنت فوقها كانت تبكي..

كلهن عاهرات هؤلاء السافرات اللاتي يخالطن الرجال لم تكن تبكي إنها تتمتع بالمضاجعة، سنظهر البلاد منهم جميعا، هؤلاء الطبيبات والصحفيات وأساتذة الكفر، نلاحقهم أينما يذهبون هذا جهادنا الأكبر..

صفوان أخذ الأم..ثم أطلق عليها الرصاص، الأم جميلة أيضا، هل هي دكتورة حقا؟؟

نعم والإبن الملحد الذي يدرّس نظرية دارون في الجامعة..دكتور في علوم الكفرة..

دارون؟؟ ماهذا؟؟

تساعل أحدهم..

واحد كافر ينكر أصل البشر من آدم، وهي العاهرة كانت تتسلم أدوية من الأمريكان وتوزعها في مستشفى الهلال الأحمر ومستشفى اليرموك ومستوصف المأمون..

لماذا لا نحرق البيت عندما نغادر؟؟

-لا، لا، ندع كل شيء كما هو ليتعظ الكفرة الملحدون والمرتدون..

ادخل وأحضر لنا شيئا من المطبخ لا بد أن نفطر ألا تسمع الأذان؟؟

نحن مفطرون، نقضت الشهوة والدم صومنا.

- من قال ذلك؟؟ فعلتنا بهؤلاء مأجورة، قتل المرتد وسبى حريمه أجر عظيم..

-هل طعامهم حلال؟؟

حلال، هم مسلمون مرتدون.. لا تصعب الأمور علينا..

بحث الرجل في المطبخ كانت الأم قد أعدت كبة موصلية محشوة بلحم غنم دسم ولوز وكشمش ودجاجا مشويا بالثوم والليمون والكرم، وبعض مخلل الخيار وحلاوة الرز الفواحة بشذا ماء الورد للعشاء في انتظار أن تعود ابنتها الكبرى آمال من عيادتها في الساعة العاشرة..

لم يكن ثمة خبز، بحث الرجل ولم يعثر على شيء..

نفطر دون كسرة خبز أو حبة تمر؟؟

حمل الأطباق وخرج إلى صحبه في حديقة البيت الخلفية:

خذوا، هذا ما وجدت..

كان إثنان من الرجال يصليان والثالث فرغ توا من صلاته..

صوما مقبولا..

لم تفق منارمن غيبوبتها إلا وأختها آمال تصفعا على وجهها وتصرخ بها:

منار منار منار

انحنت عليها تقبلها وتنتحب، منار منار، عادت آمال من عيادتها ووجدتها ملقاة بين جثتي أخيها رافد وأمهما، زحفت من غرفتها ووصلت إلى حيث تركوا الجثتين، كان جسد آمال القوي الممتليء يهتز في نحيبها..حركت جثة أمها وحملتها من غير جهد فقد كانت بطة في السباحة على مدى أعوام ونالت كوزسا وميداليات، لكنها توقفت عن ممارسة رياضتها منذ سنوات الحصار وتفرغت لعيادتها في (حي العامل) الشعبي ورفضت الانتقال إلى عيادة مشتركة مع خطيبها الدكتور حسام في حي الحارثية..

اتصلت بأعمامها وأخوالها ولم ينجح أحد في الوصول إلى حي الداوودي إلا صباحا بسبب منع التجوال، قاموا بإعداد النعشين واستدعوا من يقوم بتكفين الراحلين، وتم الدفن ظهر ذلك اليوم في مقبرة الشيخ معروف الكرخي.

بعد انتهاء أيام مجلس العزاء الثلاثة أخبرت آمال عمها:

-عمي سنغادر العراق لا حياة لنا في هذا البلد بعد اليوم، نبقي معكم مؤقتا حتى تستعيد منار قواها..

ولكن أين تذهبان؟

- إلى أي بلد نحصل منه على الفيزا، سنسافر أولا إلى عمان ومن هناك نتدبر أمر التاشيرات قد نذهب إلى بلغاريا، شقيق حسام هناك وسيساعدنا..

- سأرافقكما إلى صوفيا، أطمئن عليكما وأعود..

- لا، انت لن تترك خالتي سهام ومها وحدهما وسط الوحوش، حسام سيرافقنا، لا تخش شيئا سنزوج ونسافر زوجا وزوجة.. أرجوك عمي سنغادر متى استردت منار صحتها، أنت تساعدنا في حجز تذكار الطائرة وتوصلنا إلى المطار وتحملنا حتى رحيلنا..

بعد شهرين تبينت آمال علامات حمل على منار، فاتحت عمها

الدكتور جميل بالأمر..

نجهضها، قالت آمال..

-لا تتحمل أي نزف أختك مرهقة ونحيلة..

دع الأمر لي سأهيء ما تحتاجه من الدم في عيادتي..

الكراسة 29 هالة والعرافات

أفرجوا عن هالة فلاذت هي وامها في بيت النساء حتى يتسنى لنا
تدبير أمر سفرهما خارج العراق..

قالت خالتي أم هالة: اتذكركين ما كان يلمح به عمك قيदार؟؟

- متى؟؟

- عندما كان يحدق بالنجوم بعد خطف فتنة وهو شبه مجنون - لا

أذكر بالتحديد..

- قال أنه رأى كوكب زحل، وكان مشفقا من ظهوره لإعتقاده بنحس

سيحل بالبلاد..

- سواء كان قد رأى أو تخيل، فإن قدر بلادنا لن يتغير، خالتي، كل

بلاد تصنع قدرها بأيدي أناسها وتجلب الأيدي النحس والدمار أو الخير

والأمان أفعالنا لا النجوم من يحدد مصيرنا..

- لكن الشيخ قالها.. طالع بغداد رهن بطالع زحل.

- سواء ظهر زحل أو عطارد في فلکها المضطرب فإن ما حدث كان

سيحدث حتما..

- انظري في المرأة، أهو وجه مهند أم ماذا؟؟ أتريين ما أرى؟؟

- خالتي تحدث هنا اشياء غريبة، قد يظهرن جميعا وقد تسمعين

همسهم، إنهم يحرسوننا، هل تصدقين ان الموتى يحرسون الأحياء؟؟

تخيلي كم يبدو الوضع مقلوبا أن نعيش في حماية موتانا.. يا للسخرية..

- ألا يخيفك الأمر يا حياة؟؟

- لا أدري، أجدني أحيانا منجذبة إلى أطيافهم العزيزة في المرايا وفي أحيان أخرى أرتعش هلعاً عندما يخيل لي أنهم سينثقون من داخل المرايا ويحيطون بي وأنا مستلقية على الأريكة، بدأت أرى معهم غرباء كثر، موتى كثيرون يحاولون بث رسائل للأحياء..

- ابنتي حياة أنا خائفة عليك..

- لا، لا تخافي أنا منسجمة مع كوابيسي ورواي الليلية والنهارية، في الأقل هو موضوع ينسيني رعب القتلة..

- لا تذكرني الأمر أمام هالة فقد تسقط في الجنون مرة أخرى..

- لو سمعت الأصوات أنكري الأمر أمامها..

كنت أخرج إلى عملي وأدعهما في السرداب، أهيء لهما كل ماتحتاجانه، الازمهما في الليل، أهرع خلال النهارات الخطرة للبحث عن الجمعيات التي تحمي البنات الناجيات من الخاطفين أو النساء المغتصابات شببهات هالة وتيسر لهن سبل الهرب خارج البلاد..

قابلت سيدة تعمل في منظمة (تساء بلا عنف) لتتدبر أمر تهريب هالة وأمها وهناك، هناك قابلت شروق ولم أصدق، كانت نحيلة وقد علت قسماؤها مسحة حزن وكمد وهي في ملابس حدادها السوداء ذبلت وببيض شعرها، ثمان سنوات من الندم وحسرة الروح، عانقتني وأجهشت بالبكاء:

- سامحوني أعرف كم كنت أنانية وقاسية وأنني دفعت لى للباس والموت، وما أن سمعت بانتحارها حتى تركت كل شيء وعدت إلى بغداد، اتصلت بالجمعيات التي تهتم بحرية النساء، وقلت لعلمي أكفر عن بعض ما اقترفت في حق الإنسانية الوحيدة التي كانت توأم روحي، الندم لا يجدي، حياة، العمل قد ينسيني عذاب إحساسي بالذنب..

- ألن تاتين لزيارتي في بيت النساء??

- لا أتحمّل رؤية شارع الطاووس الأزرق، معذرة حياة، الأمر ليس بهذا اليسر، أرجو أن تفهموا عذابي و لا تحكموا علي، انا أقيم في بيت أختي، ويسعدني أن أراك وأرى راوية وهالة ومنار وآمال، كيف هو حامد الأخرس؟؟ أما زال مغرماً براوية؟؟
- حامد اختفى دون أن يترك أثراً، لاتعرف ما حل به.

بعد أسبوعين طلبتني السيدة بوران إلى مكتبها في الجمعية وسلمتني جوازي سفر مزورين: الأول لخالتي سامية باسم هناء والثاني لهالة باسم حذام..

سنتنظرهما سيارة خدمات زراعية عند بوابة بغداد شمال الكاظمية، السائق من أعضاء جمعيتنا، سيأخذهما إلى الحدود السورية ليتسلمهما ناشطون يساندون عمليات إنقاذ النساء المهددات بالقتل، كونوا مستعدين ليلة الخميس، لا تدعيهما تحملاً متاعاً كثيراً، سنضمن سلامتهما فلا تجزعوا أبداً، المهم لدينا ان تنجو هالة من أعمامها الذين يتربصون بها..

قالت شروق: حياة أرجوك لا تغادري بغداد فقد تندمين كما ندمت.

- لم يتبق لي من أحد هنا بعد سفر هاني..

- ليس هذا سبباً، أرجوك حاولي أن..

- سأحاول..

خرجت هالة من سجن ابي غريب، صفتها مهندسة معمارية وسجينة سابقة جرى اغتصابها، مصيرها معلق برصاصة من بندقية واحد من أعمامها أو أبنائهم..

والد هالة الراحل من جبال حميرين التي تقع وراء نهر ديبالي، أمها خالتي كانت جميلة النساء، أكملت الثانوية ولم تلتحق بالجامعة مثل أمي

بهيجة، لكنها كانت عميقة الثقافة وقارئة نهمة كمثل أفراد أسرتنا، عشقها كردي فقتل ومسيحي فصار راهبا وخطبها عشرات الرجال ولكنها مخدوعة بوهم الغرام ومسحورة بوعدته تزوجت عبد الجبار ابن عمها الذي كان يقرأ لها قصائد قيس بن الملوح ونزار قباني وقصائد ابن عربي في العشق وما كان يملك ثروة غير تلك القصائد وبيت صغير وبساتين وأراض زراعية مهمة، وتنقل بين مهن ووظائف لم يصبر على أي منها، هربت من بيت أخيها خالي صادق في مدينة الخالص عندما أراد تزويجها لأحد الإقطاعيين ذوي الأصول التركمانية في خانقين وما جاورها، وسافرت إلى بغداد حين علمت أن عبد الجبار يخشى العودة إلى البلدة بعد تهديد أخيها له بإفشاء أمر انتمائه لحزب محظور..

حملت حقيبة قماشية صغيرة بها بعض ثياب وقالت لأوها:

- انا ذاهبة إلى حمام السوق فغدا عرس رشيدة ولا أريد الإستحمام مع الأخريات، تعرفين بينهن أخوات عباس وأم يحيى المهندس والحاجة زكية أم ياسين والثلاثة طامعون في خطبتي وأخشى ان يشهرن أوصافي أمام الرجال، أعرفهن هؤلاء النمامات سوف أستحم وحدي..

وعندما لم تعد للبيت جن أخوها وأقسم أن يذبحها ويمحو عارها واستعان بالإقطاعي الثري من آل عز الدين آغا فجهز فرسانا مسلحين ليقطعوا الطرق على السيارات الذاهبة إلى بغداد، كانت قد أفلتت من الموت ووصلت إلى محلة (باب الشيخ) قرب مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني في شهر رمضان وانضمت إلى جموع المصلين المتبركين بمقامه وأمضت ليلتها مع العاكفات على الصلاة في باحة الحرم، قدم لهن طباخ الحضرة الباكستاني أطباق الحساء المشهور الذي يقدم كل مساء للمتسولين والمشردين اللاندين بباب الحضرة القادرية..

أقام المصلون صلاة الفجر فتسللت من باب صغير في السور الخارجي للحضرة متلفعة بعباءتها الرقيقة من الكريب الحرير الأسود وقد أسدلت على وجهها نقابا شفافا ولبثت تسأل عن مساكن موظفي شركة الزيوت التي يعمل عبد الجبار فيها، حتى إذا حل المساء ولم تعثر على بغيتها وأنهكها الجوع والخوف طرقت باب كنيسة سيدة المعونة للراهبات في شارع الكيلائي الذي يمتد بين شارع الرشيد وشارع الملك غازي، كان باب الدير مظلا بأشجار السرو وهناك نخلتان شامختان تتطاولان حتى البرج الذي يعلوه صليب معدني..

فتحت لها الأخت فيرجين وهي راهبة في الخمسين نحيلة سمراء تلتمع عيناها الضيقتان من وراء نظارتها الطبية ويتدلى صليب خشبي من سلسلة معدنية على صدرها الضامر -

- ماذا تريدين يا أخت؟؟

-أبيت ليلة عندكم حتى أعر على بيت عمي..

-انظري لحظة سأخبر الماسير مادلين..

لبثت لدى الباب برهة وهي مشوشة ضائعة..

قالت انها ارتضت قدرها حين فرت من أهلها وفكرت مرة أن تلقي

بنفسها في نهر دجلة حين ضاقت بها الدنيا ولم تعثر على ابن عمها..

خرجت الماسير مديرة الدير العجوز وقالت بلهجة موصلية:

بنتي تعالي، هوني ما عدنا عجيل لا تخافي، من وي صوب جيتي؟؟

(ماعندنا رجال، من أي مكان اتيت؟)

من أرض الله..

- فيرجين غوحي افغشي التخت للبنت واغشعي اشكو بالفوزني

شمزي، دشيشي وخبز غقاق من بور البنت تعباني، اغشعي وجها كنو

زعفغان المسكيني)

(روحي افرشي السرير للبنت وشوفي ماذا في خزانة الطعام، بطيخ

وجريش القمح وخبز رقاق لأن البنت تعبانة، شوفي وجهها كأنه

زعفران المسكينة

أحضرت الراهبة السمراء فيرجين صينية فيها صحن من برغل القمح المطبوخ وقطعة من البطيخ الأحمر ورغيفا من خبز الرقاق الجاف وقدر ماء..

كادت تتهاوى من الجوع لكنها خجلت ان تمد يدها إلى الصينية فنهرتها الماسير الكبيرة بحنان حازم:
كلي، كلي بنتي الغب كبيغ، العذغا تحميكي، غدا احكلي الصحبي والغب يعيننا
(كلي بنتي الرب كبير والعذراء تحميك، غدا أحكي لي قصتك والرب يعيننا..)

أضت شهرا في كنيسة أم المعونة والراهبات يقدمن لها كل ما تحتاجه، وتعلمت التطريز فيها وعلمت الراهبات صناعة العطور من زيت الورد والفلفل والياسمين وخليط المسك و التوابل الهندية، كان لديها جهاز تقطير لاستخراج زيت الورد وزيت الياسمين وساعدت الأخت مادلين لصنع الجهاز في الدير وبرعت مادلين في تحضير الخلطات التي وصفتها ابنة البساتين والحقول..

ومن هناك كانت تخرج كل يوم لتبحث عن ابن عمها الذي كان يعيش مع أمه في بيوت موظفي شركة الزيوت النباتية شرقي بغداد ووجدته ذات يوم قرب الحضرة القادرية مع قريب له وتم كل شيء وتزوجا في بيت القريب..

وعندما عادوا إلى البلدة الصغيرة ولدت هالة وما تجاوزت الشهور الستة حتى تنبأت العرافة العرجاء (ذبية) أن هذه البنت التي تحمل في عينها اليسرى علامة هلال ستصيب أهلها بوفرة المال إذا زوجت لشيخ

قبيلة في سن الرابعة عشرة أو تذلم بوفرة العار إذا تخطت عامها السادس عشر ولم تتزوج وعليهم أن يحولوا بينها وبين لقاء رجل سيغويها وتهرب معه ويمضي بها إلى ماوراء الزمان..
قالت الجدة:

ذبية قد تخطيء لكن الخوف سكن قلبي لا بد من استشارة عرافين آخرين.

اضطربت أم هالة وبكت الجدة وتمنت موت الطفلة التي ستجلب لهم العار، واتفقت مع صاعود النخل داود المعني صاحب الصوت الشجي حافظ المقامات والمواويل الذي كان يعمل في بساتينهم أن يأخذها مع أمها إلى مخيم العجر ويدع العرافة العجرية سليمة تكشف عن طالع الصغيرة وترقيها بتعاويذها، استعار داود عربة الحوذي برهان قريبه وصحب الخالة والطفلة..

اجتازت العربة أراض زراعية وأريافا ووصلوا عند الظهيرة إلى مخيم العجر. قالت خالتي:

- لم أشاهد من قبل مخيما للعجر، كنت أراهم يمرون بالبلدة على بغالهم وحميرهم يحملون الخيام والأواني والأطفال والشؤم وكما نعدهم لصوصا وقوما فاسقين، تتبعهم أينما اتجهوا عصبة كلاب هزيلة وقد ربطوا على ظهر بغل حبلا تتدلى منه دجاجات مكتوفة الأرجل، وكنا نتفرج على نسانهم الجميلات بوجوههن الموشومة وعيونهن الكحيلة، نراهم في الأعراس فقط يرقصون ويغنون وبعدها يختفون في الهواء، وكانت عجوز منهم تقوم بوشم نساء البلدة كلما مرت بها، تدق بالأبر فوق أفضاهن وعاناتهن وعند مفترق أعجازهن، وترسم سلاسل تمتد من الذقن إلى العنق ومابين النهدين إلى السرة، حيث تكون هناك رسمة إفعى تلتف حول السرة ثم تنزل سلسلة الوشم إلى العانة..

جدتنا أمينة وشمّت ساقها وقدميها وكانت فخورة بجمال وشمها، (أنظروا لم أكن أتحمّل آلام غرز الأبر على البطن ووضع هباب من حرق

الخرق على الجرح الدامي الذي يتخلف عن الوشم جدكم كان يحب وشم ساقى.. فوشمت ظاهر الفخذين)

سمعوا ضربا على الطبله وعزفا على الرباب من مجموعة كانت في خيمة سوداء كبيرة، راقصة منهم في ثوب طويل تلف رأسها بوشاح اسود مزين بوريقات ذهبية، كانت تهز جسدها الممتليء وتطقطق بأصابعها، سرعان ما تقدم منها رجل وسحب وشاحها ليتناثر شعرها الجعد الغزير وهي تواصل الرقص وتحرك شعرها على نحو دائري، وفي الحال تقدم أحد العجر وطلب من الرجل الذي أخذ الوشاح دفع دية. كشف شعر المرأة فكل زائر يكشف عن شعر عجزية يدفع مقابل ذلك لعشيرة العجر كرد اعتبار لهم بتجاوزه على تقاليدهم..

- أين سليمة العرافة؟؟ -

في تلك الخيمة عند أطراف المخيم ..

كان كلب مبقع يقعي عند مدخل الخيمة، نبح ففزعت الطفلة وصرخت، خرجت سليمة العرافة وهي تربط رأسها بمنديل أحمر فوق فوطتها السوداء وتضع خزامة ذهبية في أنفها، رحبت بهم فالتمعت الأسنان الذهبية تحت أشعة الشمس في فمها الواسع، إنبهر داوود وفغر فمه فضربته الخالة على كتفه:

- داوود انت عندك زوجة وأولاد.. انتبه لنفسك

أطرق خجلا، خمنت الخالة أنه سيعود ذات ليلة إلى هنا، إلى سليمة التي سحرته بأسنانها الذهبية، حصل ما توقعته، وهرب داوود بعد شهر مع قبيلة العجر وصار أحد المغنين الذين تعتمد عليهم القبيلة، وتكفلت الجدة بمعيشة زوجته المهجورة وأولاده الثلاثة ولم يرجع لأسرته إلا بعد سبع سنوات..

حملت العرافة السمراء الرضيفة النحيلة بين يديها وبحركة سريعة عرتها من اللفائف والثياب وضغطت بسنابقتها بين عينيها فصرخت،

قلبها ووضعت وجهها على حجرها ومسدت فقرات ظهرها وقرأت
تعاويذها..ثم دهنت جلدها بزيت نقعت فيه أفعى وجذور حصى البان
وقشور شجرة جوز وثمار عناب وقواقع جيء بها من بحر قزوين كما
قالت سليمة ونفخت في وجهها ثلاث مرات وهي تردد كلماتها السحرية..
-الآن حصنت الطفلة ضد نبؤات ذببة الشريرة، خذوا الطفلة ولا
تخشوا شيئا..

وأعطتها الخالة مبلغا من المال.

قال داوود صاعود النخل لأمي:

لو أعطيتموني المال لكنت اشتريت دراجة لأبني وماكنة خياطة
لزوجتي..والله ياست أم هالة هذا كلام ماله معنى، كيف تصدقين ذببة
العرجة وسليمة العجرية؟؟

-اسكت داوود لا تقل هذا أمام الجدة وإلا سودت عيشتك وقطعت

رزقك وطردتك من البساتين..

كراسة 30

هالة في سجن أبي غريب

من أوراق هالة

(.. لن أنتحر ولن أدهم يذبحوني، فليذهب أخوالي وأعمامي إلى الأمريكان ويصوبوا نيرانهم إلى واحد أو عشرة منهم إن كان الثأر عندهم حقيقة، لن أمكنهم مني، لن يقتلوني كما قتل الأميركي جوشوا روحي واغتصبي تلك الليلة المشؤومة، كنت في رابع أيام دورتي الشهرية وقد ذبلت وغارت عياني لفرط النزيف الذي لازمني بسبب فقر الدم أحسست أن الهالات القاتمة قد ازدادت قتامة حول عيني وأن جلدي بدأ يتشقق جراء سوء التغذية - كنت لا أستسيغ مذاق الطبخ النافه الذي يقدمونه لنا وقد مر شهران على اعتقالتي، كنت أنام متدثرة بشال صوفي، حين أيقظتني يد وهي تربت على كتفي، فزعت وصرخت، امتدت اليد الثقيلة وكممت فمي..)

كنت أنزف على أرضية بالغة النظافة، أرفعني دمي، وغامت عياني، قاعة خاوية مرعبة، الذين يعذبون السجناء لا نراهم، نرى القفازات البيضاء والكلاب البوليسية المزمجرة، يضعون أفئدة فلا نرى سوى الأنياب والأيدي بالقفازات تسحب سيور الكلاب، يرتدون القفازات قبل أن يلمسوا السجنين، القفازات تقول:

ما أنت إلا حيوان، ما أنت إلا حيوان دنس، ما أنت إلا وسخ.
القفازات تقول إنك لا يمكن أن تلمسهم بيديك العاريتين.

الجندي الذي أيقظني كان بلا قفازات، هل لكونه أسود؟؟
وجه الجندي الأمريكي الأسود، لا لم يكن أسود تماما، كان خلاصيا،
بشرة فاتمة وشعر أسود ناعم، لعله مرتزق من بورتو ريكو أو
المكسيك، سحبني من يدي وأنهضني:
كام وذ مي هالا، ليفتانت جوشوا وونت يو..
دونت أفريد، جوشوا وونت تو توك وذ يو..دونت أفريد..بي
كوايت..تراست مي..

يا إلهي ماذا يريدون مني؟؟ ماذا يريد جوشوا في منتصف الليل وقد
أجرى التحقيق معي ثلاث مرات عن تهمتي مقاومة القوات الأمريكية
عندما امتنعت عن فتح باب البيت مساء تلك الجمعة الحزينة ثم عثروا
على الرجلين المسلحين مختبئين في حديقتنا الخلفية..
امسك بي جوشوا من كتفي وأنا أرتعش:
-هالا يو آر غود غيرل، آي وونت يو تو تيل مي: من كان يدير
الشبكة الارهابية؟؟

هل كنتم تجتمعون في محل عملك؟ هل كنت تزودينهم بالمعلومات عن
حركة القوات الامريكية؟؟ قولي، تكلمي، هيا ساعدنا لنطلق سراحك
..انا لا أعرف شيئا عن أي أحد لا علاقة لي بأحد..
لكن أحدهم ذكر اسمك، سأواجهك به..

- أخبرنا انك كنت تزودينهم بالمعلومات بواسطة ايميلات مشفرة..
-أنتم فتمتتم البيت ورأيتم انني لا أملك حتى جهاز كومبيوتر، إسأل
جنودك الذين حطموا كل شيء وضربوا أمي بأخامص البنادق، وسرقوا
ذهبا وأشياء ثمينة..
انت عنيدة هالا لكنك جميلة، سافرج عنك لو تكلمت، وإلا سترين
العاقبة..

لما واصلت صمتي قال: أنت معهم نحن نعرف كل شيء.
-إذا كنت تريد ذلك أنا مع نفسي ولست مع احد، ولا يمكن لأحد أن
يرغمني على الإعراف بما لا أعرف..
-أنت أسيرة ونحن في حالة حرب ولا حقوق لك، يو آر تيورست..
- اقتلني إذن هيا، لا لمزيد من الهوان، اقتلني اقتلني ..
صفعني وقذف على وجهي محتويات دورق من الماء..
- شات أب يو بتش..
- لالا لست عاهرة لست عاهرة..

مزق قميصي، وشرع يفتح سحب سروالي، صرخت وقاومت
وبصقت عليه، أمسك الجندي الأسود بمعصمي وقيدهما بسلك من
البلاستيك وألصق على فمي قطعة بلاستر وألقى بي على الأرض
الكونكريتية الباردة، أحضر كلبا بوليسيا وجعله يتشممني وأنا أطلق
صرخات مكبوتة ثم حقنني أحد الممرضين بحقنة في ذراعي ولم أفق
حتى اليوم التالي لأجذني غارقة في نزيفي..
عاري تأخر خمسة وثلاثين عاما ليتفجر فضيحة اغتصاب في
عصر الجنون..

حياتنا صارت حدادا حين توفي أبي بشكل مفاجيء بعد أسبوع من
فقدان حيدر في احداث آذار، وحده مهند كان ملاذي من بؤس حياتي،
باركت العائلة حينا وعملت على تهينة أسباب الخطبة في أسوأ ايام
الحصار، باعت خالتي بهيجة عقد خطبتها الذهبي الثمين واشترت لي
خاتما وعقدا واقراطا مرصعة بالفيروز وقدمتها لي في عيد الفطر، أمي
وقفت ضد زواجي وأعدت لأختها هدايا الخطبة.
زواجك هذا سيحزن روح والدك الراحل، كان يحلم أن تعوضني
العائلة عن حيدر وخراب بيتنا بموته..

-كيف أعوضكم؟؟ هل أتحول إلى رجل؟؟
- أن تقتصي لنا بطريقة ما من القتلة..

- ماذا بوسعي ان أفعل أمي؟؟ كيف أقتص من سلطة قادرة على
محوي من الوجود كما محت أخي..؟؟
-عليك أن تجدي الوسيلة وإلا لن تتزوجا انت ومهند..
مهند يعتزم الهجرة، أعني نتزوج ونرحل بعيدا عن هذا الخراب
والله ينتقم من القاتلين.
لن تغادري البلد أبدا، لن يأخذك مهند مني ولن تبرد نار فوادي إلا
بالانتقام..

عاد مهند من حربهم اللعينة في تابوت، وأنا ما فعلت شيئا لثارات
أهلي، بل إن ثارا جديدا أثقل كاهلي، ثاري من اللفتانت جوشوا والأن
حقّ علي الثأر من السابقين واللاحقين، يا ربي، كلهم دمروا حياتي،
الذين قتلوا أخي وأفقدوني أبي ومهند والذين سلمونا لأمثال جوشوا ومن
جوشوا نفسه، وأمي الطاغية الأخرى التي نخر قلبها هاجس الثأر، وها
هي ترافق عاري وتحاول أن تكفر عما فعلته بي طوال السنين.

سافرت مع أمي إلى سوريا بعد أن بعنا ممتلكاتنا بثمن بخس
واشترينا جوازين مزورين يعون من حياة، ثبتوا في جوازي أن عمري
خمسة وأربعين عاما لأجتاز الحدود العراقية من دون رجل محرم، ومن
هناك بدأت أحاول شراء فيزا من شبكة مهربين وعدوا بايصالنا إلى
أثينا..

اتصلت بحياة لترسل لي مبلغا من المال حتى يحين سفرنا الموعود
إلى اليونان فقامت بتحويل الفي دولار لي..

مراهقتان عراقيتان كانتا مع ذويهما ينتظرون الرحيل تعرضتا
للاغتصاب من قبل منظمي رحلة العذاب وبعد يومين اختفتا ثم سرت
شائعة انهما بيعتا لعصابة دعارة تتاجر بالبناات العراقيات بين دمشق

ودبي..

قلت لحياة:

حياة لقد انتهيت، ماذا ينتظرنى بعد هذا؟؟ قولي ماذا أفعل؟؟ ليس
بوسعي العودة للعراق ولا البقاء هنا ولا الرحيل، سأنتحر، أمي تموت
هنا، لم يعد قلبها يتحمل المزيد، ماذا أفعل؟؟

صحبنا المسؤول عن ترحيل اللاجئين تهريبا بعد انتظار شهر في
دمشق إلى اللاذقية، بعد يومين أبلغنا أن السفينة اليونانية المتفق عليها
قد أحتجزت في ميناء سالونيك وعلينا الإنتظار هنا حتى نجد حلا، كان قد
تسلم من كل شخص خمسة الاف دولار ثمنا للفيزا والفي دولار تكاليف
الرحلة ولبث الرجال والنساء محجوزين في مبنى قرب الميناء نقت
اموالهم و تعرضوا لابتزاز الشرطة والمهربين المتواطئين معهم..

اتصلت بالصديقة اللبنانية نادية التي تعمل في الصليب الاحمر الدولي
ورويت لها الأمر، قالت:

-لا نستطيع فعل شيء، نحن نقدم الخدمات الميدانية في المناطق
العراقية المنكوبة فقط..نرسل الأدوية والخيام ومياه الشرب..
أخبرت نادية مفوضية اللاجئين، فقيل لها أن علي الإتصال بقسم
المفوضية في دمشق..

..وها قد عدنا ثانية إلى دمشق، استأجرنا شقة صغيرة في حي
الشركسية قرب ضريح الشيخ محي الدين ابن عربي الذي أزوره كل
مساء وأجلس هناك أتأمل حياتي وحياة أمي التي أوقفتها على تحقيق
الثأر فلم نثار ولم نعش الا لتضاعف مأساتنا..

حلمت يوم كنت قادرة على الحلم - بعد تخرجي من كلية الهندسة أن

أقوم ببناء ضريح الحلاج بتشجيع من الشيخ قي دار قريبنا كان مشروع تخرجي في قسم الهندسة المعمارية عن تشييد مقام للحلاج وعرضته على أستاذي إحسان فتحي وأجرينا حسابات الكلفة وزرنا موقع ضريحه البناس قرب مستشفى الكرامة في الكرخ، تبرع مقاول مهتم بالتصوف بجميع تكاليف المشروع، كنا على وشك الشروع بتنفيذ البناء عندما غزا النظام الكويت، وبدأت سنوات الدمار، أخبرني أستاذي فتحي أن ثمة مشروعاً مماثلاً كان مطروحاً في السبعينيات لكن قيام الحرب بين العراق وإيران الغى الفكرة..

أتأمل جامع الشيخ محي الدين وأبكي، كنت سأنجز شيئاً يضارعه جمالاً وروعة في الكرخ وكان إسمي سيبقى مرقوماً على المبنى..
أتأمل زخرفاته الإسلامية في الخشب والحجر، محرابه ومنبره الرائع الجمال وأبوابه المحفورة وأنواره وأعمد في دوامات البخور، وأبكي، كنت سأعوض أبا المغيث الحلاج وأستبدل ذلك الضريح المهمل بمقام يليق به..

أجلس كل مساء هنا في الباحة الكبيرة على السجاد العجمي الأحمر المنقوش بزخارف مغولية وأتطلع إلى تيجان الأعمدة ونقوشها وأنصت إلى الأذكار التي يقيمها المريدون بعد إذان العشاء، تغمر روحي أضواء الثريات والقناديل والأصوات المرددة حي حي، بعد ساعات أغانر إلى البيت بعينين دامعتين وقلب شفي حتى استحال هواء ونورا، وننتظر أنا وأمي أن يطرق بابنا بانع التاشيرات لنحدد وجهتنا..

في منتصف الليل رن الهاتف، كانت حياة تهاتفني من الحدود العراقية السورية لتقول لي أنهم منعوها من دخول سوريا، (لا تنتظريني سأذهب إلى عمان إن سمحوا لي بدخول الأردن وأتمنى ان تلتحقا بي لنتدبر أمورنا في عمان معا..) قد افلح في النجاة وقد يكون مصيري

التشرد بين المدن، سأنتظر قدرتي واتقبله وبين انتظاراتي سوف أحضر
مجالس المتصوفة قرب الشيخ محي الدين بن عربي ففي ذلك بعض
عزاء وربما هو مفتاح خلاص..
كم علينا أن نقاسي نحن النساء اللاتي يطاردهن النحس من أرض
لأرض؟؟

سمعت طرقا على الباب، من يأتيني في هذا الوقت؟
خطر لي أنها راوية، لم أفتح، ما الذي يأتي بها في هذا الوقت
المبكر والمسلحون يطوقون منطقتنا؟

تكرر الطرق ثانية وثالثة فإذا بها هي، قالت لماذا لم تفتحي مع أول
طرقة على الباب وأنت تعلمين أنني راوية؟ لا أحد يجينك في هذا الوقت
سوى واحدة مخبولة مثلي تخرج في الليل..
كان معها خمسة صغار مشردون.

- وجدتهم ينامون في مدخل إحدى البنايات في شارع 14 رمضان، لا
بد أن نجد طريقة لنحميهم، حياة ساعديني..

رايتهم يشعلون قطعاً من الورق المقوى في برميل صغير، وهم
ملتصقون ببعضهم طلباً للدفاع، أيقظتهم فارتعبوا ونفروا مني أول
الأمر، قلت لهم:

- تعالوا معي سأجد لكم بيتاً تنامون فيه.. دعهم يمضون الليلة معنا
وسنرى ما نفع لهم صباحاً..

أحضرنا لهم قمصانا نظيفة وجاكيتات، وجعلتهم يغتسلون بماء
ساخن بينما أعدت لهم راوية حساء دافئاً وبعض الكفتة..

- من أين أتيتم؟؟

قال أكبرهم:

- كنا في أحد ملاجئ الأيتام في منطقة العلوية بشارع النضال عندما
هرب الموظفون المرعوبون وهم يرون الدبابات الأمريكية تدخل الزقاق،

كنا نبكي وخائفين، كانت ست سناء تنام ويانا في الليل، لكن ست سناء ماتت تيجي بيتها بعيد، بقينا نصرخ طول الليل، الحارس حميد تركنا في الليل وحمل معه الكومبيوتر وراح، بقينا ثلاثة أيام ولم نجد ما نأكله، جاء الحرامية ونهبوا كل شيء، الجنود الأمريكان ما طردوهم كانوا واقفين يضحكون ويعطون الحلويات والبسكويت للحرامية، كنا أحد عشر يتيما، حبسونا في غرفة وفي الصباح جاء رجل وعائلته ثم أتت عوائل أخرى وسكنوا في البيت، قال الرجل عليكم أن تخرجوا للعمل إذا أردتم النوم معنا في البيت..

قالت له أكبر البنات مها:

- ماذا نعمل؟؟ عمو إحنا صغار ما نعرف أي عمل..

- تعرفون كل شيء، تتسولون عند ساحة الأندلس، أنتم أيتام.. كل واحد يجيب لي عند المغرب خمسة آلاف دينار ومن يرجع بلا فلوس ينام بالشارع..

في اليوم الأول اختطفت سيارة شرطة أكبر البنات مها ولم ترجع، متنا من الخوف وخبأنا أنفسنا عند مداخل البنايات، وفي اليوم الثاني ضاع محمد، عمره سبع سنوات وبقينا نبكي ونحن نبحث عنه ضاع، لم نجده، وبعد أسبوع اختطفت سيارة بها مسلحون طفلتين وضربنا الرجل الذي سكن في بيت الأيتام لأننا لم نحصل على نقود كافية فكرنا أن نهرب في اليوم التالي عندما أخذنا الرجل في سيارة تاكسي ووزعنا عند ساحة الفردوس وساحة النصر كان هناك أمريكيان وزحام وناس، هناك قدام فندق الشيراتون وفندق فلسطين، مطاعم ودكاكين، طلبنا من رجل كان يبيع السجاير للأمريكان أن يساعدنا فقال:

- لا عليكم ساخينكم في بيتي..

هرب الآخرون وبقيت أنا واخوتي الثلاثة ومعنا أحمد، أخذنا هيثم بائع السجاير إلى بيته قرب ساحة الفردوس والأمريكان هناك في كل

مكان، في البيت كانت بنات حلوات، أربع بنات لابسات مثل المغنيات بانتلفزيون، وكان رجال كثيرون يدخلون ويخرجون طوال النهار والليل ونحن جالسون في غرفة صغيرة، أعطانا هيثم أقرص بيضاء:

- هذه حتى تنامون وماتخافون في الليل..

أخذنا الحبوب ونمنا لكن في الصباح كانت أختي هذه خلود تنزف وأحضر هيثم ممرضة وأعطتها أبرة، ثاني يوم أعطانا حبوب لكن أنا ما بلعتها، إخواني وأحمد بلعوا الحبوب، وجاء هيثم ومعه رجال وأخذوا الثلاثة إلى غرفة واعتدوا عليهم وسمعت صراخهم..

قالت راوية: يارب حتى الاطفال؟ يارب ليش كل هذا ليش؟؟
قلنا نضعهم في بيت حامد في الأقل يلعبون مع الطيور ويونسوا حامد، كانت راوية تزورهم وتجلب لهم الطعام حتى نرى أين نذهب بهم..

انشغل حامد برعاية جيش الطيور والأولاد المشردين وما عدنا نراه كثيرا، كانت راوية تزوده بالطعام الذي تعده والدتها في حين تكفلت منار وأختها امال بعلاج الصغيرة خلود التي اغتصبت في بيت بائع السجائر، صحبتها إلى بيتها وعندما تماثلت للشفاء عادت مع إختها إلى بيت حامد، أعطاهم قصصا ليقرأوا وكراسات ليكتبوا فيها وهو يدمدم بلسانه المقطوع،

كتب لنا حامد: ساتكفل بالأطفال، ومن الغد سوف أراجع المؤسسات المعنية لأضعهم في أمان..

بعد شهرين نجح حامد في تسجيل الأطفال لدى أحد دور الرعاية الإجتماعية، إستحصل لهم على أوراق من المؤسسة التي كانت تشرف على بيوت الأيتام، تعلق بهم وأخذ يزورهم ويحضر لهم الهدايا من دكانه..

قالت راوية:

- رأيت نديم في نشرة الاخبار مع أحد أقطاب المعارضة القادمين من بريطانيا..

كانت ملامحها تتبدل بين الحنق عليه والخوف من احتمال تخليه عنها، مرعوبة كانت من توقعاتها وخذلان نديم لها،
تسألني بنظرتها الحائرة: ماذا تظنين؟؟

قالت: عندما رأيته في التلفزيون، صعقت، أغمضت عيني، شعرت بالإختناق، وشممت عطره القديم، ثم أحسست بشلل في رأسي، حين رأيت ملامحه الجامدة الغريبة المتحولة، وهو يحمل رشاشا ويتحدث بجهاز لاسلكي، تثلج جسدي وجف حلقي، خفت، أكون هو أم هذا رجل آخر؟؟، لم أر خاتم خطوبتنا في بنصره الأيمن..
ضحكت ضحكة هستيرية ثم بدأت تنسج..

- لاتتسرعي، لسنا الآن في حال تتيح لنا التثبت من شيء أو أحد،
ننتظر- قلت لها - وعانقتها وهي تنتحب، ننتظر..

قالت: كان يحب ما أصنع له من أطعمة، يحب أكثر الكبة مع الباذنجان، يحب الرز البخارى باللوز والكشمش والزعفران، ياه كم كان يثني على طريقتي في صنع حلوة الجزر بالتوابل وحليب جوز الهند.. تعرفين حياة لم أحلم أن يضمني سرير مع رجل سواه لقد قيدني إليه بنوع من السحر عندما كان هنا في بغداد، حتى أنني عميت عن النظر إلى حقيقته، ولم أفكر بأي رجل، هو قريب لوالدي من جهة جدي، خطبني ثم غادر العراق إلى بريطانيا وعمل مع المعارضة على أمل أن يرسل في طلبي، كان يكتب لي رسائل مشفرة، ويقول:

-اقترب الميعاد راوية، عاند اليك، إلى بغداد وعراق جديدين..
ثم تباعدت رسائله، بررت له انشغاله مع المعارضة..

-راوية، ننتظر ونرى، اليوم سأحضر مجلس عزاء والد هنادي عبد المسيح، قتل الرجل برصاصة عند باب كنيسة العذراء..أتأتين معي؟؟
- أريد الإنفراد بنفسى..دعيني حياة..

دون أن تعرف أين هي وإلى أين تتجه بها الخطى ودون أن تسأل كيف ستعود إلى البيت بعد المساء والطرق موصدة والمسلحون والقوات الأمريكية يتناوبون إطلاق الرصاص سارت وحدها وقالت أنها كانت تسمع أنين روحها المحطمة في المدينة المحوة ولا تعلم كم من الوقت إستغرقت مسيرتها اليائسة في البحث عن بيت حنان شقيقة نديم، تمت لو أنها لم تهتد إليه، ماذا دهاها؟؟ كانت العلامات تنذرها وأن الوعود تلاشت كما تتلاشى غيوم الصيف في سماء آب..

وأخيرا وجدت منزل أخته حنان في شارع فلسطين، أرادت التيقن من وجوده في بغداد، أخته استقبلتها بالدموع، ظنت راوية أنه قد مات، ماذا يا حنان؟؟ ما به نديم؟؟-

- راوية لاتألمي، نديم لا يستحقك..

- أوضحي، ما الذي تريدین قوله؟؟

- نديم عاد ومعه زوجة بريطانية قال لي أنه تزوج هذه المرأة لأنه كان بحاجة إلى من يسنده في الغربية فضلا عن كونه يمثل جماعة دينية وزواجه منك قد يسبب له المتاعب من قبلهم لأنك من طيف مختلف، هذا مبرر تافه من أخي، نديم صار رجلا آخر، حتى أنه خاصم زوجي حين أبدى رأيه عما فعله الإحتلال بنا، قال إنه لا يريد أن يسيء إليك ويجعلك تنتظرين بلا طائل، حسم الأمر وتزوج البريطانية، كانت ممن نسقوا موضوع المعارضة مع الجهات البريطانية، يبدو أنها سيدة ثرية ولها دورها في السياسة الخارجية، انتظري لقد ترك لك رسالة.

-هذه هي..

-ما الذي يريد قوله بعد؟ لوكان رجلا لواجهني.

-إفتحيتها أريد أن أعرف مايريده منك.

مزقت غلاف الرسالة وليتني مافعلت، ليتني لم أقرأ، لو أن أحدا أوقفني في ساحة الإعدام وأطلق علي مائة رصاصة ثقتب جسمي وأراقت دمي لكان أهون على راوية التي إستهان بها نديم إلى هذا الحد..

(عزيزتي راوية)

لا بد أن نؤمن بالقدر ونؤمن أيضا بالنصيب، أقدارنا ليست بأيدينا إنما بمشيئة الله، قد يؤلمنا إتجاه أقدارنا، لكني كرجل مؤمن أتلقى إشارة القدر وأقبلها دون اعتراض فاقبلي الأمر الواقع، غير أنك بجمالك وثقافتك تبقيين محط أنظار الرجال وقد رأى صورتك معي صديق أمريكي وأبدى رغبته بالزواج منك، بهره جمالك وقال لي أرجوك هيء لي لقاءا معها وسوف أكافئك وأكافئها لا بد أن أحصل على هذه الفتاة العراقية مهما كان الثمن..

أنتظر رذك فالرجل منشغل بك حد الجنون أتمنى أن تكوني واقعية وتنتظري إلى مصلحتنا جميعا وتتقبلي الأمر الواقع فربما كان هذا الرجل أفضل مني لاتترددى.

نديم

مزقت الرسالة وصرخت بحنان:

- أخوك قواد حقير يعرضني للبيع..قولي له إن كان هو معروضا في المزاد فراوية لا تباع ولا تشتري.

- ماذا؟؟ ماذا كتب لك؟؟

ما يفعله أي قواد تافه..

جمعت حنان قصاصات الرسالة وبدأت تقرأ وشهقت:

-هل وصل الإحطاط بأخي إلى هذا الحد؟ يتاجر بك؟؟ أنا بريئة منه

إلى يوم القيامة لا هو أخي ولا أعرفه..

- يالي من مغفلة، يا للحياة من خدعة..أية مفارقة يا حياة؟؟ إلى أين

تمضي بنا الكارثة؟؟

- عيشي حياتك لا تلتفتي إلى الوراء، إبحثي عما يناسبك، كانت شروق عبد الكريم تقول لنا: الحياة لا يجدي معها التأجيل والخوف، هي حياة واحدة نعيشها ولا بد أن نجازف ونتخذ القرار..

- شروق أشجع مني، تحدثت كل شيء وتجاوزتنا، لكنها دمرت لى، مواقف البعض قد تكون أنانية وقاتلة للآخرين، حسنا لن أنتحر كما فعلت نى وسوف أخجل من يوم أحببت فيه رجلا اسمه نديم..

- شروق ولمی حالة خاصة ازدهرت في أرض الفناء كنبته جيء بها من أرض الحلم ونمت وسط الشوك والقوارض والذهب، اختارتا العيش معا، أسرتاهما عارضتا الأمر ورفضتا خيارهما الغريب، لكن ظروفًا جدت دعت شقيق لمی يتقبل الأمر على مضض عندما رحبت زوجته بالأمر:

- دعها، عادل، البيت لا يكفينا جميعا، غرفتها ستكون للأولاد، وهي بنت شجاعة، لا تخف عليها، ثم إني لا أتحمّل ان أسمع عزفها ليل نهار وهي تتدرب على الكمان، فكر بحالتي، أنا حامل، أحتاج إلى هدوء.

قال لها: ستأكل الناس راسنا..

- متى رضيت الناس عن شيء؟؟ في كل الأحوال لا يحق لأحد التدخل في حياتنا، هل تعيش أختك مع رجل؟؟ هما امرأتان ولاضير في ذلك..

- لكنه أمر غير مقبول في مجتمعنا..

- بلد بلا رجال، الحروب التهمت نصفهم وشردت النصف الآخر، لا فرص أمام البنات، دعها تدبر حياتها وترعى إحداهما الأخرى، ما هو العيب في ذلك؟؟

كانت لمی تعمل عازفة كمان ثان في الفرقة السيمفونية، وكنا نستمع إلى عزفها الساحر بين حين وحين في بيتي أو في بيتهم، أمضتا أربع سنوات معا، شروق من أسرة صاغة مندانيين، اضطرت شروق للسفر مع والدتها المسنة بعد اغتيال والدها، تعرض محل والدها في شارع المنصور سنة 1997 لهجوم مسلحين استولوا على كل ما تحويه خزائنته

من ذهب وأموال وقتلوه برصاصتين..

كانتا ترتادان نادي الفروسية القريب من حينا، كلتاها فارسة متمرسة، لى كانت تطير بفرسها في ساحة التدريب وشروق تتأملها وشعرها يتطاير في الريح، قالت لها:
لاتربطي شعرك أبدا، فهو يجعلك مثل حورية، ما أجملك وأنت تسابقين الريح..

غادرت شروق إلى الدانمرك وتركت لى هنا في انتظار أن تتدبر طريقة للإلتحاق بها في كوبنهاغن، لى الرقيقة سقطت في حالة اكتئاب، لم تعد تتحمل جحيم وحدتها ويأسها انتحرت بعد سقوط بغداد بأيام..
وجدها شقيقها صباح الثالث عشر من نيسان متفحمة في غرفتها، قال لي أنه زارها مساء وعاد إلى بيته القريب من بيتها ووجدها تصلي وتقرأ القرآن، ثم عزفت على الكمان، أسمعته مقطوعات يحبها و أعطته صندوق حليها:

- خذ هذا أخشى أن يسرقه النهابون، هذه الحلي لابنتك (فرح)، قل لها هذه من عمك..

همهمت راوية: لى شجاعة، اختيار الموت ليس سهلا أبدا، يحتاج إلى قوة وشجاعة نادرتين..
- هذا ماقلته لي شروق حين التقيتها..

عودة شروق للعراق غريبة حقا، تركت وضعها المريح في الدانمرك وعادت إلى الجحيم، ما جدوى عودتها وقد ماتت لى؟؟

- موت لى كان دافعها للعودة، التقيتها في الجمعية التي تديرها الست بوران لمساعدة النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب بعد الإحتلال، عندما التقنتي ارتمت على صدري وأجهشت بالبكاء، قالت: كل ما

أستطيعه الآن هو أن ألزم الحداد إلى الأبد، لن أغفر لنفسي قط، لا يجدي الندم لقد قتلتها، أنا قتلتها يا حياة وسوف أكرس ماتبقى من حياتي لتقديم العون للنساء لعل ذلك يخفف من عذابى بفقدانها..
قلت لها:

- سقوط بغداد هو الذي قضى عليها، لا تلومي نفسك..
- بل سقوطي أنا وخذلاتي لها، سقوط بغداد كان ذريعتها حسب.

فتحت شروق حقيبة يدها وأخرجت ورقة مطوية:

-خذي حياة إقرأي آخر رسالة كتبتها لي قبل الإحتلال بشهور، عملت منها نسخا لأعطيك واحدة منها فهي تذكرك فيها، رسالة تنضح بأسا ومرارة، اقرأي وستعرفين أنها كانت مصممة على الموت قبل سقوط بغداد..

خذي راوية إقرأي الرسالة:

- شروق، رحيلك كان الضربة القاصمة التي هشمت زمني، عندما يتحطم شيء عزيز وثمانين في داخلنا يعود من المستحيل ترميمه، لا تحاولي تقديم عذر أو تبرري هجرانك لي، ولا ترسلي لي نقودا بعد اليوم، راتبى من التدريس يكفيني، تركت العمل في الفرقة السمفونية، لم أعد تلك العازفة المتألقة، فقدت قدرتي على التركيز، لا تفكري قط بأن توجهي لي دعوة أو تحسلي لي على تأشيرة للالتحاق بك،-لقد حسمت أمري، سأبقى في بغداد مهما حصل، وأحاول أن أكون واقعية في تقبل خذلاتك لي، سأحاول فالأمر ليس باليسير على إنسانة مثلي، أشعر أن في قلبي - بدل الدم - كومة من رماد، لقد أحرقت برحيلك كل سفني، وقطعت السبل بيني وبين أي خيار آخر في الحياة، وما عاد في روحي متسع

للأمل بل هناك بئر من المرارة تفيض على حياتي وتغرقها كل يوم،
سأغفر لك وأسامحك لأنني لا أملك أن أصدر أحكاما على البشر، ربما
هو نحس طالعي الذي حاق بنا وأفضى إلى هذا الألم، أتذكرين قول حياة؟
كانت تقول لنا: نحن سيدات زحل المرصودات للفاجعة، كنا أنت وأنا
نسخر من إشارة حياة إلى نحس زحل، فقد كنا نتصور السعادة حالة
مقيمة فينا، ثم تبينت أننا نخطئ في تقدير قدراتنا على الاحتفاظ بما نحب
ومن نحب..

لمى

قال هرمز والد هيلين بعد أن افتضح أمر زواجها من محمود وهربهما إلى الأردن:

- لو كنا في السبعينيات لاختلف الأمر الآن ومع الطوائف والقتل وحرق الكنائس؟؟ لا، لا، لا يمكن، هيلين جلبت لنا العار بزواجها من مسلم، لا بقاء لنا في بغداد، جانيت إجمعي حاجاتنا ولنرحل إلى قرية سوريا لنسلم على أولادنا الباقين، لنحمي جوليا وسوزان ونمير..

بكت جانيت، بكت من أجل هيلين التي تزوجها محمود سرا دون أن تباركها الكنيسة والأهل، بكت من أجل عودتها المخزية للقرية التي فارقتها وهي صبية صغيرة، بكت من أجل البنيتين اللتين ستهجران الدراسة وسوف يتوجب عليهما العمل في مزرعة، بكت طوال الليل، وعنفها هرمز الذي شرب زجاجة عرق كاملة ولم يستطع النوم:

- جانيت هذا ماقدره لنا الرب، انت مؤمنة فلا تعصي قدر الرب.. صلي للعدرا تحفظ لنا الباقين، اعتبري هيلين ميتة، إنسي كانت عندك بنت إسمها هيلين، ليسامحني الرب..

كان ينتحب بصمت طوال الليل..

عند الفجر حملوا متاعهم في سيارتهم ورحلوا إلى الموصل وبعدها سيقصدون زاخو ومن هناك إلى قرية سوريا في وادي سليفاني..

رحلتهم بين الجبال الجرداء والحقول المزروعة قمحا بدت لهرمز بلا نهاية، وهو يقود سيارته التويوتا كورونا، توقفوا قليلا في الموصل

وتزودوا بالطعام ثم واصلوا المسير ليصلوا القرية قبل المساء..

كان هو أحد ثلاثة رجال نجوا من مجزرة قرية سوريا التي أعدم فيها الجيش سكان القرية، لم يستثن الجنود النساء ولا الأطفال والشيوخ، صادف أن هرمز كان ذاهبا إلى زاخو لبيع بعض المواشي، وحين عاد وجد جثث أهله وأقاربه وبقايا الحريق.

عمل هرمز في المكتبة التي كان يملكها والدي في حي المنصور، طلب إليه أبي مرارا أن يدون قصته، رفض، كان يرى القصة غير قابلة للتدوين:

- محفورة في ذاكرتي أستاذ البابلي..

روى لي أبي القصة وضاعف هذا من خوفي على هيلين وأهلها في الفترة الأخيرة، المتشددون يفجرون الكنائس والأديرة ويقتالون المسيحيين في الموصل وبغداد، قبل يومين خطفوا لنا الشابة الجميلة ابنة أخت مازن بولس زميلي في المؤسسة الصحفية، خطفت من شارع فلسطين كانت مع أمها تحاولان استنجاار تاكسي أمام الكنيسة، راحت لنا لم تعد، وما طالبوا بفدية، ضاعت لنا، كلنا ضعنا..

كانت عشرون عائلة مسيحية تسكن قرية سوريا وتعمل في زراعة الحنطة والشعير والخضار وتربية المواشي.. صباح يوم الثلاثاء من شهر أيلول سنة 1969. مرت قوة عسكرية يقودها الملازم عبد الكريم الجاهلي كعادتها كل يوم، مكثت القوة بعض الوقت في القرية ورحب الأهالي بالجنود وقدموا لهم ما تيسر لديهم من جبن ولبن وخبز مرقوق، وغادروا القرية وعلى مبعده خمس كيلومترات انفجر لغم تحت إحدى عجلاتهم العسكرية إنما لم يصب أحد بأذى..

أمر الملازم عبد الكريم الجاهلي جنوده بالعودة إلى قرية سوريا ثانية - اجمعوا سكان سوريا في حظيرة الحيوانات وطوقوا القرية من جهاتها..

كان القس حنا قاشا قد وصل صباحا من زاخو لزيارة رعيته وأقاربه في سوريا، وليقيم قداسا على روح سيدة مسنة ماتت منذ أسبوع..

فكر بعض الرجال بالفرار حين أرغمهم العسكر على الركوع وضربوهم بأعقاب البنادق والحرايب، إلا أن الأب حنا نصح بعدم القيام بهذه المحاولة وطلب من سكان القرية أن يتجملوا بالصبر ويركنوا إلى الهدوء، حينما أتم الجنود جمع سكان القرية أمسك الملازم رشاشته ليشرع بإطلاق النار على الحشد، أدركت ليلي ابنة المختار ما سيحصل لأهلها فقفزت عليه وأمسكت ماسورة الكلاشينكوف بقوة وحينما عجز الملازم عن انتزاع الرشاش من قبضتها سحب مسدسه وأطلق النار على رأسها فأرداها قتيلة في الحال، ثم بدأ بإطلاق النار من رشاشه على المدنيين دون تمييز وكلما نفذ الرصاص استبدل مخزن الرشاش بأخر جديد وراح يواصل إطلاق النار حتى إذا ما تأكد بأنه قتل الجميع أصدر أوامره إلى الجنود بأن يبقروا الأجساد المثخنة بالجراح بحراب بنادقهم

ويضرموا النار في بيوت القرية والصور المحيط بها لكي يحولوا دون محاولة بعض الناجين من الفرار .

كان هرمز يكبح دموعه ويلوذ بالصمت لثوان عدة ثم يقول:

لأبي:

- شعرت انني كنت أدفن تحت أكداس الأجساد التي كانت تسقط تحت وابل الرصاص، والمشكلة التي واجهناها بعد هذه المذبحة كانت إنقاذ جرحانا والعتور على بعض منهم ممن هام على وجهه في البراري، هب سكان القرية المجاورة لإنقاذ الجرحى وحين أوصلوهم إلى مستشفيات المدن القريبة رفض مسؤولو المستشفيات تقديم العلاج للضحايا، تدخل بعض الأطباء وقلة من الشخصيات المتنفذة وتم ادخالهم إلى غرف العمليات والردهات..

كان مشهدا مروعا لا أستطيع نسيانه حين رأيت الأطفال الذين نجوا بأعجوبة يتشبثون بجثث آبائهم وامهاتهم واخوتهم القتلى لساعات طويلة ولم يغادروا مكان المذبحة إلا بعد ان فصلوهم بالقوة عن الجثث.. منع الجنود الناس من الوصول إلى موقع المجزرة لدفن الموتى وتركوا جثث الضحايا ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة فانقضت عليها الطيور الكاسرة والكلاب السانبة.

قال هرمز لزوجته جانيت:

إن سألوكم عن هيلين قولوا ماتت اثناء قصف بغداد، سأذهب

لزيارة قبور أهلي في الكنيسة..

- خذني معك أريد ان أصلي للعذراء..

- في يوم آخر، دعوني اليوم وحدي، يمكنك أن تصلي هنا..

الفصل التاسع

لبثت أحرص الصمت وكراسات الغائبين وقصص البنات، متشبثة ببيقين حبي وانتظاري لناجي الحجالي وأمل ظهور عمي الشيخ قيذار، عاكفة على عملي في كتاب بغداد الذي جمع بيننا، كم هو الحب عجيب وصاعق إذ يباغتنا في زمن ما عدنا نؤمن معه بمعجزة أو شفاء، ولا نتق بتجليات الهوى أو أناشيد الغرام، لو كان الحب سهلا لحصل عليه جميع الناس في أي وقت، لكنه أمر معقد كمعضلة رياضية أحيانا وسهل كرشفة ماء في أحيان أخرى، وعلي أن أديم التحدي مهما كلفني الأمر من تمويه، السعادة تستحق جهد البشر لتذوقها ولو في لمحة حلم أو في عبور رؤيا، وتستدعي جهودا فوق ما تطيقه امرأة وحيدة في التاسعة والثلاثين مهددة بالقتل في بغداد المحتلة..

كل شيء رقد تحت العقب القاتلة للحرب، أرواحنا المستوحدة وأحلام الصبا وأجسادنا المنذورة للحرمان وتشهيات الغرباء، كل شيء استسلم للفناء وتماهى مع الخراب إلا الحب الذي كنت أحميه من لوثة الحرب وعفن الدم المهدور في الطرقات، كان دوري الوحيد في عقدين من الزمن المعتم والخراب الشاسع أن أحمي جسدي وروحي بحلمي وأقاوم موتي وانتظر بزوغ الحب وأبحث عن عمي..

كلانا كان بانتظار الآخر، كلانا كان يبحث عن روح تكافيء روحه، وتغض الطرف عن نقائصنا الإنسانية، جسدانا تحاورا وتفاهما وتمازجا مع الروح ليتحملا عبء المغامرة الأخيرة: التي يسمونها الحب وأسميها

الخلاص، ليس كل ما عرفناه قبل لقائنا غير تمرينات ساذجة عن الهوى
وألعب وهم خيل إلينا حينها أنها حبنا الذي نبحت عنه في سراب المدن
وزحام الحشود..

قلت له: ستأتي إلى بغداد وسوف تتعرف إلى الألم المبارك التي
تنطوي عليه روح مدينتنا التي لا تدوم إلاً بالسلام، إلاً بأكاليل من ورد
الجوري وعذوق التمر وسعف النخيل.

الحب ليس ارتباط جسدين وحوار روحيين حسب، إنما هو إعادة خلق
الزمن والمصير بأصابعنا المشتعلة، الحب عناق الشمس ورنين
الأجراس في ساحة الفرح، لم أشأ أن يكون حبنا تكرارا لأي صورة
سابقة، بل ميلادا من جسد الحرب، ضوءا من حريق الماضي، نفحة
عطر من رياض الحقيقة التي غادرت هيولى الحلم إلى التشكل بين
أيدينا..

نتساءل لفرط دهشتنا: هل كنا نتربص ببعضنا طوال ماضى من
عمرينا حتى حانت ساعة اللقاء??

لم نكن نجزم بشيء قدر يقيننا الوحيد بحتمية لقائنا، فقد شفينا من
اليقينات والحتميات التي تجعلنا نبرة واهنة في ضجة الحشود..

ليلة الجمعة قبل سفري السري بيومين اقتحمت عصابة متشددة
منزلين، في حين واغتصبوا ثلاث نساء وقتلوا الرجال، تركوا الدم يتدفق
من تحت باب أحد البيتين بعد أن ذبحوا الجميع بسيوفهم، سال الدم حتى
الشارع الضيق وراء شارعنا الواسع، في الصباح رأى الجيران الدم
وتجرأ أحدهم وحطم باب المنزل ووجد جثتي رجلين في مقتبل العمر
وثلاث جثث لنساء عاريات جرى اغتصابهن و فصلت رؤوسهن عن
أجسادهن وتعرضن للتعذيب قبل ذبحهن، يا إلهي هل سيجدون رأسي
ذات صباح ملقى على الرصيف??

أبلغني أحد معارفي أن إسمي مدرج على لائحة الصحفيين المطلوبين للقتل ولا بد أن أرحل بأية طريقة عن بغداد فهم يتعقبون أنفاسي بعد أن أثرت قضية الصحفية الفرنسية بريسكا مرة أخرى حفاظا على سلامتي ينبغي أن أتوقف عن كتابة التحقيقات الصحفية حول ضحايا العنف الطائفي..

هيات ثياب التنكر، ملابس أرملة في حداد وجواز سفر زوروا فيه عمري وإسمي سينقذني مما ينتظرني، حدثت أن موتي كان وشيكا، فقد خلا شارع الطاووس الأزرق من البشر إلا طيور حامد وأصوات أهلي في سرداب السراب وجارنا هشام وأمه المقعدة..

ربطت شعري بشال أسود وانتعلت حذاء خفيفا بلا كعب وحملت معي حقيبة يد عتيقة لا تلفت انتباه أحد ووضعت عباءة سوداء على كتفي.. أطفأت الشموع بعد أن جمعت أوراق عمي قي دار ومسودات كتاب بغداد من السرداب، ولأول مرة شممت في السرداب رائحة مقبرة، رائحة عطن التراب في العتمة، هل كنت ميتة ودفنت طوال هاتيك السنوات في السرداب؟؟ هل بعثت للحياة حين اتخذت قرار الهرب وميزت رائحة الموت في مخبأي؟؟

هطل مطر غزير وتعالى في المطر هدير الدبابات يخالطه عويل نساء وغناء شجي كان ينبعث من جهاز راديو..

غادرت منزلي من باب جانبي يؤدي إلى ممر مموه تحت غيضة من شجر اللاتانا والشمشار ومنه إلى حديقة جارنا هشام الذي ارغمته جماعة مسلحة قبل عامين على إخلاء بيته، أرسلوا له إنذارا بالقتل إذا لم يغادر خلال أربع وعشرين ساعة فهو من طائفة غير مسموح لها بالعيش هنا مع الطائفة المسيطرة على مقادير الحي، رحل ليلا إلى بيت قريب له في منطقة (زيونة) وسرعان ما احتلت البيت عائلة ريفية

غريبة أقامت نحو شهرين ثم غادرت حين هيمنت قوة مسلحة جديدة على المنطقة..

اتفقت مع هشام على التسلسل ليلا من باب بيتهم المفتوح على الشارع الخلفي لخداع المتربصين بي حين يصل من ينقلني بعيدا عن بغداد..

أضياء لي ممشى الحديقة الجانبية بمصباح يدوي، تعثرت بجذع شجرة كان ملقى على جانب الممر، كدت أسقط لولا أن الرجل أسرع وأمسك بيدي فاستعدت توازني، حدث ذلك في جزء من الثانية، ارتعد جسدي للمسمة الرجل الغريب وأحسست بالدوار، منذ دهور لم يلمسني كائن بعد طلاقي من حازم، سبع سنوات قاومت فيها كل الرجال الذين حاموا حولي كل لسبب من الأسباب التي لم يكن الحب من بينها وإن كان قناعا لها رجل كان يعمل معي في المؤسسة، تسلسل إلى حياتي حين عرف استحالة سفري بمفردي كسيدة مطلقة مهددة بالموت، وافقت بشكل ما على الفكرة وضمن شروطتي التي حددتها مسبقا: أن أعطيه المال بعد خروجنا من العراق، قال نساfer بعد أيام كزوجين وسوف يهيء أوراق الزواج بأسرع وقت وتعهد أن يبقى الأمر سرا

وأنا أطوف ببغداد وصلت كعادتي خلال أيام الجنون إلى شارع أبي نؤاس بحثا عن علامة أو أحد يدلني على عمي الشيخ قيدير في الأمكنة المحتملة، رأيت الرجل رفقة فتاة من اللاتي كنا ندعوهن (عشتارات الحروب) بنات المتعة اللاتي يتخذن من المعارض والغاليريهاf والنوادي ميادين لخدماتهن السريعة ومعظمهن من طالبات الجامعات أو المراهقات الأصغر سنا - رأيتهما يدخلان غاليري دجلة في شارع أبي نؤاس وهما في حال من النشوة وارتباك الخطى وكان يهمس لها أنه دبر أمر سفرهما الوشيك معا وستصله النقود خلال يومين، لم يرني، كنت أدير ظهري وأنا أقلب كتبا فنية معروضة على نضد في زاوية معتمة من القاعة وكان هو مزهوا برفقة الفتاة وضحكاتها الغنجة، غادر دون أن

يراني، وجاعني في اليوم التالي يطلب ستة آلاف دولار لإتمام الصفقة
بيننا..

- اتفاننا أن أسلمك المبلغ بعد وصولنا إلى عمان.
ما الأمر؟؟ لقد اتفاننا ورتبت أمور سفرنا وغدا أحضر وثيقة
الزواج، لم التردد؟؟ انت في وضع خطر، ألا تتقنين بي؟؟ أحتاج جزء من
المبلغ لأؤمن وضع أهلي..
- المال عند أقارب لي في عمان، هل فهمت؟؟

أدرك هشام ارتبائي، ولعله شم رائحة أنوثتي المختلجة، فأمسك
بذراعي وسحبني نحوه كان جسده يرتعش وهو يضمني إليه ويقبل
وجهي بنوع من الخبل والشهوة العمياء، قاومته وصدفته، لم أصرخ،
دفعته عني وأسقطته أرضا وحملت غصن شجرة من الأرض وضربته
على وجهه، همس لي بصوت راعش:

- أحبك، لطالما أحببتك، أرجوك لا ترحلي، أرجوك لا تضيعي نفسك،
سأدلك وأحميك، لا ترحلي، إبقى في بغداد..

- اخرس، لا أريد أن اسمع صوتك.. يا لك من جبان، لو كنت رجلا
لواجهتني..

- أحبك، لا ترحلي، أنتظر شقيقك هاني لأطلب يدك منه..
عاد وأمسك بي، استجمعت قواي ودفعته عني وتراجعت إلى الورا
فسقط على حافة الممر الكونكريتي وصرخ:
-أرجوك، اغفري لي جنوني أنا أحبك، اغفري لي، قولي أنك
سامحتني.

- ركضت نحو الباب حين سمعت محرك سيارة تقترب، التفت نحوه
فرأيتة يمشي وراني مترنحا ويمسح الدم المتدفق من جبينه..
قال: أهكذا يا حياة؟ أتزين ما فعلت بي؟؟

أخبرني بائع جوازات السفر المزورة وهو تاجر أسلحة وتحف- أن الخروج عن طريق منطقة الخابور على الحدود السورية سيكون ضمن مع جواز سفر مزور وسلمني جوازا يحمل إسما سيكون هو هويتي للسنوات التالية، إسما اقترحه هو مستندا إلى خبرة طويلة في التعامل مع المهربين:

-إسمك منذ الآن سيكون (آسيا كنعان)، إسم لا يدل على دين أو طائفة أو عشيرة..

غادرت في سيارة عتيقة لا تثير شهية قطاع الطرق، اتخذنا الطريق السريع بين حي الخضراء غرب بغداد وبين ضاحية الكاظمية وخرجنا من بوابة بغداد، لم التفت ورائي، التلفت مرض وبيل يلوي الأعناق، الماضي سراب كما هو الغد، وكل التفاتة للسراب تعيق إمكانية النجاة، حملت معي كل ما ادخرته من سنوات القحط، وتركت ما لا يلزمني من أشياء كنت مولعة بها واعطيت كمان لى لأحد زملائها في الفرقة السمفونية، الذكريات كلها تناثرت ورائي، صور الراحلين وأصواتهم، تخليت عن رائحة الماضي واغتسلت بهواء الطرق السريعة بين سامراء وبغداد، هواء الحقول مشبع بعبير زهور النفل، الرائحة ذاتها التي كنت اتشوقها في ساحة مدرستي الابتدائية، كنت لعب الكرة الطائرة وأسقط فوق المرج، يلامس وجهي العشب الندي المجزوز، وأرى الزهرات البنفسجية الصغيرة تلتمع تحت نظرتي، أشم عبيرها الحلو، وأمرغ خدي عليها، تتسحق وتطلق نسغها على حواسي، يتلوث ثوبي بخضرة العشب، خضرة نضرة كهذه الحقول الشاسعة الممتدة حول دجلة..

- هلا نرتاح قليلا هنا؟؟

قال السائق: خمس دقائق فقط،، الوقت يسرقنا ست حياة..
تركت السيارة وعدوت في حقل القمح الممتد نحو البراري من جهة الغرب ونحو دجلة من الشرق، قطفنا قبضة من العشب ومسحت بها

وجهي ويدي، أردت أن امحو آثار شهوة هشام عن وجهي وجلدي..

كان ناجي يقول لي:

أنت تملكين مزيجا متساويا وغريبا من البراعة والغواية، أنت تجهلين سر تكوينك، هل قال لك رجل من قبل أنك كذلك؟؟
- ربما، غير أنني لا أبه بما يقال..
- أتخشين ميزاتك؟؟
- بل أقدر ما لا أملك من ميزات..

ناداني السائق وأنا أتعثر في حقل القمح بين كلمات ناجي وتوقي إليه :
علينا الرحيل كي لايطبق علينا الظلام في هذه الديار الخطرة..

وصلنا الموصل صباحا ثم أمضينا الليلة في فندق وسط المدينة بعون من معارف متعاونين مع تاجر الأسلحة فالفنادق في مدننا محظورة على النساء الوحيدات – مالم يكن مع محرم من الأقارب - وعند الفجر غادرنا في سيارة (جي إم سي) إلى سوريا عن طريق الخابور لكن السوريين لم يسمحوا لي بالدخول لسبب ما وخمنت أن حرس الحدود أرادوا ابتزازنا، عدنا إلى الموصل وسامراء ومنها إلى الفلوجة بعد أن اتصلنا بأقارب أبي فساعدونا في اجتياز المناطق التي يهيمن عليها مسلحو القاعدة وقطاع الطرق، وصلنا الحدود الأردنية مساء اليوم التالي..

بعد شهر يستنجد بي أخي هاني وأنا في نيقوسيا مع ناجي:
حياة راح سرمد خطفوه حياة أحتاجك.. أرجوك عودي لبغداد..

دخلت سرداب الروى وعدت أهدق بأوراق عمي الشيخ قيذار، غامت عيناى وغصت في غياب حلو كأنه النوم، سقطت الكراسة الثانية التي لم أفتحتها بعد من يدي، وتراخت أطرافى وأنا أطوف مع عمي الشيخ قيذار بين حرائق الأمس ولا أعود أرى شيئا، أين الجهات؟؟ أين الأصوات؟؟ خرست الساعات ووجدتني في عراء والزمن عماء، المكان معتم لكنني أبصر ضوءا، فأين أنا الآن؟؟ هذا جنون، أين أنا الآن؟ الكتب تحيط بي والمرايا تضحك مني، ووجه ناجي يلوح شبحيا في أعماق المرايا، عيناه تومضان بألق الشهوة وفمه يرتعش وأنفاسه تلفح وجهي ثم يخفتي، ليست بغداد، لا نهر ولا جسور، أين أنا الآن؟؟ لا نخل ولا نوارس، ولا أصوات رصاص أين الليل والمساء؟؟ تساوت الأرض وغاض النهر.. أين أنا؟؟ أين ناجي؟؟ أين البنات؟ ما هذه الأرض وهذا البحر؟؟

أرى خليجا بحريا، أفقا مشعا كأروع ما يكون في نهار صيفي، أدير البصر في التيه فأرى سفحا جبليا مكسوا بأشجار صنوبر، جبل وصنوبر وأنا من أنا الآن؟؟ أجمات عليق وشجيرات وعصافير وسنونات.. أين أنا؟؟ لاشيء يبوح بهوية التيه، يا إلهي ما الذي أتى بي إلى هنا؟؟ كيف غادرت بغداد؟؟ أهي مدينة تشالوس الفارسية على بحر قزوين؟ كنت في العاشرة وتسللت من الشاليه البحري وأهلي نيام واشترت زهورا وسرت على الشاطيء وتبعني فتى قال إن إسمه (فرهاد) وسألني أتحيين رؤية موكب الشاه؟ سيمر من هنا هو والشاهبانو فرح في طريقهم إلى مصيف رامسر الملكي..

لم أرد، خفت من المراهق الغريب وأرعى قلبي الصغير صوته
الواثق، رغم أنني تمنيت رؤية الإمبراطور و الشاهبانو، خشيت النظر
في عينيه:

- إسم شما؟؟

هربت وقلبي يدق بين أضلعي ولم أخبره بإسمي، تمنيت ان يلحق بي
ويمسك بذراعي، ويسألني ثانية: إسم شما؟؟

لكنني اطرفت ولزمت الخرس، غادرني فرهاد وأبحر في قارب اسمه
(فردوسي) مصبوغ بلونين وردي وأبيض وسط الموج ولوح لي: خدا
حافز..

لا، هذا بحر ليس كذاك البحر، أهو خليج الإسكندرونة؟ ياربي كيف
سأعرف؟؟ الإسكندرونة التي كانت تتراعى لي في أحلامي كمدينة
تراودني ثم لما وصلناها ذات صيف تعرفت اليها وعندما نطقنا العربية
أقترب منا شيخ وحيانا بلغتنا وقال:

الحمد لله، الحمد لله، منذ سنوات لم اسمع أحدا يتكلم لغتنا، يحرمون
علينا نطق العربية لكننا نعلم الصغار في البيوت وإذا اكتشفوا الأمر
يصادرون أموالنا ونسجن..

أرشدت أهلي إلى فندق يبيتون فيه تلك الليلة، وجدناه مكتظا بغانيات
وراقصات تركيات مسنات يفترشن أرضية الصالون، يصلحن زينتهن
أمام الزبائن ويضعن جم الشعر العتيقة الملبدة والأهداب الصناعية
ويرتدين بدلات بكرانيش وشالات وأقراط طويلة وأصواتهن المشروخة
تردد أغنيات شعبية تركية ترجف الشامات على الوجنات الذابلة، تطلق
الدموع من المآقي، الأخرى يقهقهن ثملات، رجل يساوم امرأة ويجرها
إلى غرفة تفوح منها روائح الأجساد التي مرت بها، وآخر يسحب فتاة
من شعرها..

ليست اسكندرونة ولا من غايات هرما، أين أنا؟؟ أهو خليج
قرطاج؟؟ لا، فلا أطلال معابد وسط أحراج الصنوبر ولا ميناء (اليسار)
الفينيقية، متاهات في بلاد تضيع، أين أنا؟؟ بغتة أرى نساء بثياب
رياضية يعتمرن قبعات وكاسكيتات ومعهن رجال بالشورتات يحملون
الكامرات الرقمية وكامرات الفيديو، وشمس ساخنة تجرد الأجساد وتعلنها
مبدولة للنظر.. رائحة البحر، زفير الصنوبر، الدليل السياحي يعلن: نحن
الآن في خليج مار جرجس تحت منطقة فوار انطلياس، من هنا بوسعكم
رؤية بيروت حين نتجه بالقوارب الي قلعة صور..
تبكي امرأة نحيلة ذات شعر جعد منفوش بلون الصدا وعينين
ضيقتين، تصرخ بي:

- أنا دلال هل نسييتي؟؟ تنسين كم أحببتك؟؟

الم نلتق في بيروت؟؟ لم تردي على رسائلي، حدثتك عن خطيبي
رامي، راح رامي اختطفه قارب اسرائيلي وهو يصيد في البحر، راح
رامي، كلهم راحوا وأنت لا تردين على رسائلي كلكم خذلتُموني، جميعكم
النساء والرجال، المرأة تنسى كالرجال وتخون من يحبونها، تف على
هذا العالم، تف على الجميع..رامي راح ولن يرجع. تعالي لن أفقدك ثانية
وقد وجدتك..

- من أنت؟ انا لا أعرفك..

أنا دلال أنا دلال ايتها الجاحدة أنا دلال، ألم نلتق مرارا في منزل
سهى؟؟ نسييت؟؟ كنت أعمل في مشروع تموله مؤسسة فورد أنا وسهى
التليلي؟؟ كانت معنا ريما الهندي وفاطمة الريان وسليم وسهى، نسييت؟
جاء رجل وسحبها من يدها.

- معذرة أيتها السيدة، دلال زوجتي ثملة، لا تأخذي أقوالها على
محمل الجد، إنها مصابة بالهذيان العصابي
- لست ثملة، أكرهك وأحب هذه المرأة التي تتجاهلني..

يحمل الرجل زوجته إلى القارب فأهرب وأتسلق درجا حجريا ملتويا
يقودني إلى أعلى الهضبة يأخذني الدرج إلى طريق وسط حرج كثيف
الشجر يفضي إلى باب خشبي عتيق مموه بنباتات متسلقة وقد رفمت في
أعلاه علامات مبهمة وحروف من لغة عتيقة تشبه الحروف النبطية أو
هي فعلا حروف نبطية، أدفع الباب الذي يدور على محور حجر، أمر من
الفتحة المواربة تحت أقواس من نباتات مزهرة، فجأة يفتح امامي
مشهد فردوسي، حديقة شاسعة تعج بتمائيل ومنحوتات، تماثيل، يونانية
ورومانية وتماديل من الليشب الأخضر الصيني وتماديل بدانية من جزر
المحيط الهادي، شواخص وثنية وكتل تجريدية، حجر ورخام وحديد
وبرونز وتتوزع التماثيل بين احواض الزهور وخمائل الشجر والبرك
ذات الجسور المقوسة والنافورات، أين أنا؟؟ أعمال من جهات العالم
تختزل تاريخ البشرية وإبداع المخيلة، يا إلهي أين أنا؟؟ في ذهولي
وانبهارني يفاجؤني رجل مسن يقترب مني ويتبعه كلب حراسة، للرجل
ملاح هندي أحمر ويتحدث بعربية متقنة ويرتدي ملابس تجمع بين
طراز هندي شعبي ولمسات أفريقية وعربية:

-مرحبا أيتها السيدة.. من أنت ومن أين أتيت؟

- انا حياة البابلي، من بغداد..

- لعنني سمعت بهذا الإسم.. رجل ما أو لا أدري، حسنا هات هويتك

وما يعرف بك.

- لا هوية لدي، هويتي امرأة، وإسمي حياة..

- يبدو أن البشرية بدأت تفيق من عصابها المزمّن.. وغير هذا من

أنت؟

- كائن له ذاكرة وحلم..

- حسنا، أشعري الكلب بالود فيألفك، استرخي حسب واعبري.

أحدق بعيني الحيوان المتحفز فيقعي على الأرض ويتشمم حذاني
بينما تخترق روحه البدنية روحي فيدرك بغيريته اليقظة أننا إخوة
شركاء في الكون، يهمهم وينظر نظرة المتآلف المستريح..
تجولني كما تشائين..

أتفرج على المنحوتات الحديثة وملاحم الحجر والرخام، أطوف بين
تماثيل ومنحوتات فرعونية وسومرية وأشورية وفينيقية وهندية، أسمع
مهممات وصوتا بشريا وأنصت فلا أميز الصوت..
أكواخ بمظلات وجواسق خشب ومنحوتات وعجلات وأجساد بشرية
نحتها جيا كوميتي وهنري مور وسواهم تجسد وحدة الانسان ووحشيته،
نحيلة ضائعة، وحيدة ويانسة، أستند إلى منحوتة ضخمة وأغمض عيني
لعلني افهم شيئا أو اعرف أين أنا..
ينهمر علي صوت ناجي مضخما بأصداء:

الجمال ليس شأنا مستقرا، هو كالماء أو الروح، ليس هو الشكل
الثابت والاثموزج، إنه الوجه الممكن للبحر والحالة المستحيلة للضوء،
المفردة اللامنطوقة لوصف الحب، الجمال ليس حكما منسوبا للفضيلة أو
الخير وإن كان ينطوي عليهما، إنما هو كل ما يتمرد على أي قياس، إنه
الحب في أعلى تجلياته..

أسمعه يردد: الجمال لا يخضع لوحدة قياس فهو شأن لا نهائي،
حالة نسبية، وهو ما لا يمكن الركون اليه لأنه قابل للزوال لينوجد في
زمان ومكان موازيين، الجمال هو حقيقتنا الوحيدة في الحب والموت..

تتحدر الدرجات الصخرية إلى مرج اخضر يقضي إلى جنينة الزهور
التي تطوق متحف المنحوتات، أعمال من فنون اليابان وكاليدونيا
والنيبال وسري لاتكا والعراق ومصر ونيوزيلندا وتركيا، أسير بين
مصاطب الأعشاب العطرية، وتغفم حواسي أشداء المايوران وإكليل

الجبل والريحان والقصعين والزعر البري والشيح الصحراوي، وعلى الحواشي يزهر نسرين الجبال وزنبق الألب وزنبق النهار والكاميليا اليابانية والأرتسيه الهائلة الحجم وليس هناك من زهرة أو عشبة على وجه الأرض لم تفتتح هنا يفاجؤني بستاني عجوز بسحنة آسيوية، ياباتي أم كوري؟؟ لا أميز، يبئسم بتهذيب بوذي ثم ينحني على حوض زهور تفتحت على إحدى شجيراته زهرة غريبة، أعجوبة خارقة الجمال، زهرة بعشرات البتلات تتعاقب في صفوف متباينة الألوان وكأن ينبوعا من الضوء يتفجر من كأسها ويتحلل إلى طيوف في تويجها..

يقطفها الرجل ويقدمها لي:

- أنت وصلت في الوقت المناسب

يضاء وجه العجوز إزاء دهشتي وإنذهالي..

- مامعنى هذا؟؟ ولماذا أنا؟؟

يجيبني بلغة عربية محكمة:

بعد جهد خمس من السنين في تجارب ومحاولات، لم أقنط ولم

أتوقف حتى نجحت وأثبتت بذور زهرتي في الوسط الجبلي المتوسطي

- ماقصتها وقصتك؟؟

-هي زهرة فريدة أتيت ببذورها من مقاطعة (اوكينوا)..

- أنت ياباتي أيها السيد؟

لا تسألني عن هويتي، ولا تحكمني على سحنتي، السحنة قناع

والهوية صورة للحظة عابرة في عمر البشرية، تتغير باختلاف الأحداث

والأزمنة، قد أكون في اللحظة التالية سومريا أو أزيكيا من المكسيك أو

فرعونيا أو من الماوري أو من سلالة بلقيس هل يعينك ذلك كثيرا؟؟

- لا أدري، ربما يعنيني ما تقوم به، ما تفعله هنا..

ذلك هو الصواب، ما أفعله ولماذا أفعله..

نعم، أنا في هذه الأونة ياباني من الجيل الذي شهد مأساة هيروشيما، غادرناها إلى أقصى الجنوب في (أرخبيل) أوكيناوا كنت في الثامنة عندما شهدت الجحيم ومات ابي بسرطان الجلد ولحقت به أمي، كان مولعا بالزهور الغربية، يجمع شتلاتها وبذورها من جهات اليابان والبلاد القريبة، حفظ بذور هذه الزهرة التي ورثها عن جدي في علبة فولاذ محكمة دفنها خلال الحرب في تل من ضواحي هيروشيما وقبل وفاته سلمني العلبة وقال:

-انتظر الألوان الملام، سنتين أو خمسا أو ثلاثين أو خمسين أو ستين، سترى علامات تنبئك بذلك في مكان ما من العالم، ربما في معبد أو غابة أو عندما تقوم حرب مهلكة ويشارك فيها اليابانيون، وعندما ترى طيور الغرائق تحط في الصيف على الأسيجة وتحمر أوراق شجر القيقب في غير أوانها وتغير أسماك الشبوط الذهبية ألوانها إلى زرقة السماء، عندئذ فتش عن جبل وسط العالم وازرعها هناك..

ولبثت أنتظر، لم يكن المكان في أوكيناوا مناسباً إذ أقام الأمريكيان قاعدة عسكرية في الجزيرة، فانتقلت للعيش في يوكوهاما وعشت أنتظر العلامة وعندما ظهرت جماعة (أوم) المتطرفة التي أعلنت خطتها لتدمير البشرية بالغازات السامة، ظننت أن الوقت قد حان لكن حدسي قال لي تريث، العلامة لم تتجل بعد، وسمعت عن جماعة عالمية سرية تسمى (جماعة حافظي كنوز الجمال) اتصلت بهم عبر وسيط وعلمت أنهم يعملون على حفظ مختارات من الأعمال الفنية وكنوز الطبيعة والنباتات والأقراص المدمجة التي تضم موسوعات ومكتبات العالم ولديهم مواقع سرية في أماكن مختلفة من كوكبنا وهذا المكان على جبل لبنان واحد منها وهناك دير على جبل في العراق، وعندما غزت أمريكا العراق وأتى اليابانيون معها، أدركت أنها العلامة وأتيت..

- وحدك؟؟

- وصل أناس من بلاد شتى، غرباء لهم هدف واحد ووسائل تختلف، علماء وفنانون وكتاب، ونجح العلماء في تدجين نباتات نادرة، ومضت خمسة أعوام وأنا أعمل وأواصل تجاربي لإنباتها، أعطتني حتى الآن بضعة زهور وهذه الأخيرة بين يديك..

لماذا أنا؟؟

- كل شيء في عالمنا يتم بمحض مصادفة، أنت وصلت يوم اكتمالها، المصادفة دفعت بك الي، أنا أؤمن بسلطة المصادفات..

- يالي من محظوظة، ولكن هل لي، أعني هل أستطيع العمل معكم؟؟

ما المطلوب مني..؟

- هل تملكين القدر الكافي من الصبر لتكوني بيننا؟؟

- وأكثر..

- مهلا، سأعهد اليك الآن بحفظ هذه الزهرة التي قد تجف خلال أيام، وتظهر بذور هلالية سود، إحفظيها وستكون صالحة للنمو في بلادك حين ظهور العلامة مرة أخرى.

- ما إسمها؟؟

__ أنا أدعوها زهرة أوكيناوا أو زهرة النجاة، لا تزرعيها الآن، انتظري حتى تموت الحروب وستظهر لك العلامة كما ظهرت لي.

- أستبقى طويلا هنا..؟

- سيبقى كل من لجأ إلى هذا المكان فقد نذرنا أرواحنا للمهمة،

حراسة ما آل إلينا من تراث الجمال..

سرت في الممرات التي تندت برشاش الماء ورأيت بين الجواسق رجالا منهمكين في القراءة ولاح لي وجه نحيل مطوق بشعر أبيض طويل يشبه وجه عمي..

أقترب منه، أقترب واقف امامه: عماه !! عمي قيदार؟؟

- حياة؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟؟

- أنت، أنت من جعل حياتي طريقا ممتدا بلا نهاية، لماذا اختلفت؟؟

- لم أختف ، ها أنا أمامك ، ألا ترينني،؟؟
- بغداد، لماذا غادرت بغداد؟؟
- لم أغادرها أنا فيها وهي في... تعالي اجلسي هنا..
- لكنك ذهبت إلى دير مار متى؟؟
- نعم أنا هناك وهنا وفي كل مكان..
- أرجوك لا تدفع بي إلى الجنون.. لماذا لا نعود معا إلى بغداد؟؟
- أنا فيها يا ابنتي، هناك لدي متسع لحفظ الكنوز..
أبي حملني رسالة اليك قبل وفاته، قال بلغني عمك انني مت من
وجع فقدكم جميعا أنت وإخوتي.
- لم تفقدوني يا حياة ها أنا معك، ألا تصدقين؟؟

يبهر عيني ضوء يشع من الزهرة ثم يتلاشى متحولاً إلى ومض
متقطع، تختفي الحدائق والتماثيل والعجوز الياباني الجميل الآتي من
أوكيناوا وتختفي الجواسق والمظلات وهينات الرجال العاكفين على
القراءة، أراني وحيدة وفي يدي زهرة بألف طيف لوني وما هي إلا برهة
حتى بدأت بتلاتها تذبذب وتتساقط وسرعان ما جفت وتركت بذورها
الهالئية السود في راحة يدي..

أفيق من رويائي وأخرج مبهورة الأنفاس من سرداب الرؤى لأجد
عمي الشيخ قي دار جالسا في غرفة الضيوف ومعه رجل بثياب
القساوسة...

أسرعت إليه وعانقته وبكىنا..

- عماه أين.....

وضع يده على فمي:

أصمتي، تبطل الأسئلة عندما نكون نحن الإجابة، أعرفك على صديق
عمري الأب جبرائيل، أتينا لناخذ مخطوطات ثمينة مما تبقى من مكتبة

العالم الراحل حسين علي محفوظ وبعض مخطوطات من مندى الصابنة
وأعمال الأب المؤرخ البير أبونا سنمضي يومين هنا ونغادر إلى الدير..

- أرجوك إبق هنا، لا ترحل مجددا..

- بوسعك أن ترافقينا، ام أن لديك مشاريع لا أعرفها؟؟

- أنتظر ناجي، ألا تعرف ناجي؟؟

- أعرفه وكيف لا أعرفه؟..

- تعقدت مشاريعي بعد خطف ابن هاني وعودتي المفاجئة إلى هنا،

تركت ناجي في نيقوسيا وعدت إلى بغداد..

- وصل هاني وابنه بأمان، حملته برسالة توصية إلى صديق لي

يعمل في مشروع سيرن في سويسرا ورسالة إلى عالم بريطاني ليرعى

الولد العبقري سرمد..

- لقد عانى الكثير هو الآخر..

- دعك منهم الآن، تحملت كل كوارثهم، انتبهي لنفسك واتبعي

مصيرك، تعالي معنا يا حياة، ناجي سيعرف السبيل اليك أينما تكونين،

طالما أنت مؤمنة به وهو منقطع إلى حبك، ساهيء لكما منزلا صغيرا

في الجبل يعون من الأب كريكوس والأب جبرائيل، ليس بوسعك البقاء،

إحملي كراساتك ودعي كل شيء، حسبك ما عانيت هنا..

- هل أكتب لناجي ليلتحق بي في الجبل؟؟

الفهرس

5	الفصل الأول / الأسماء
37	الفصل الثاني / بيت البابلي
75	الفصل الثالث / متاهات
109	الفصل الرابع / غراب قابيل
151	الفصل الخامس / كتاب الحب
187	الفصل السادس / كتاب زبيدة
211	الفصل السابع / كتاب الشيخ قيذار
239	الفصل الثامن / كتاب البنات
289	الفصل التاسع

أعمال الكاتبة-

- 1- ممر إلى أحزان الرجال - قصص بغداد 1970
- 2- البشارة قصص بغداد 1975
- 3- التمثال قصص- بغداد 1977
- 4- إذا كنت تحب قصص بغداد 1980
- 5- عالم النساء الوحيديات- رواية وقصص بغداد 1986
- 6- من يرث الفردوس -رواية -الهيئة المصرية للكتاب 1987
- 7- بذور النار - رواية - بغداد - 1988
- 8- موسيقى صوفية - قصص- بغداد-جائزة القصة العراقية -1994
- 9- في المغلق والمفتوح -مقالات جمالية-تونس 1997
- 10-مالم يقله الرواة -قصص دار ازمنة الاردن 1999
- 11-شريكات المصير الابدي -دراسة في ابداع النساء -دار عشتار القاهرة 1999
- 12-خسوف برهان الكتبي -رواية - طبعة1دارالوواح مدريد -طبعة 2بيت الشعر رام الله 2000
- 13-الساعة السبعون - نصوص مفتوحةبغداد 2000
- 14-ضحكة اليورانيوم -رواية - جائزة الرواية بغداد 2001
- 15-برتقال سمية -قصص -بغداد 2002
- 16- حديقة حياة رواية ط1بغداد 2004 وطبعة 2 دمشق 2004
- 17-يوميات المدن - مذكرات - دار فضاءات - عمان 2009

في الترجمة عن الانجليزية:

18-جلاد الثلوج -رواية -ياسوناري كاواباتا -دار المأمون بغداد

1985

19-ضوء نهار مشرق -رواية أنيتا ديساي -دار المأمون 1989

- 20-من يوميات انابيس نـ دار أزمـة -الأردن -1999
21- شجرة الكاميليا - قصص عالمية مختارة -بغداد 2002

الاعمال الدرامية:

- 22-مسرحية الليالي السومرية -جائزة أفضل نص مسرحي سنة

1994

- 23- مسرحية الشبيه الأخير 1995
24- مسرحية الكرة الحمراء 1997
25- مسرحية قمر اور 1992
26- مسرحية شبح جلجامش 1998

اعمال اخرى

- 27- مختارات من القصة العراقية (اعدادو تحرير وتقديم) مترجم

للإنجليزية والاسبانية 1983

- 28- كتاب العودة للطبيعة -دراسة 1989

- 29-كتاب (دراسات في حرية المرأة -إعداد وتقديم 2005



رواية "سيدات زحل" عمل سردي مميز بكل ما للكلمة من معنى، فهي مكتوبة بشفاافية ندر مثيلها، وبلغة رفيعة الشأن فيها شغف حزين بأحوال المجتمع العراقي فقد عرضت لوحة إنسانية مركبة للعراق في حقبتَي الاستبداد والاحتلال، وتميزت بانتقاء المشاهد السردية، وبالرؤية الأنثوية للعالم، وبهشاشة النساء في مجتمع يمضي في صنع ملحمة القسوة دون أي ملمح للتروي، والنساء هن اللواتي يحاولن كبح تهوره.

وُجِدَت في الرواية أفضل مدونة سردية عن أحوال بلادنا في العقود الأخيرة وندر أن ظهرت رواية عراقية في السنوات القليلة الماضية على مثل هذا المستوى من الجودة في الحبكة، والبراعة في الصوغ السردية، فقد عرضت الشخصية الرئيسية، برؤية أنثوية، تجارب مذهلة عمّا حدث لها ولأسرتها، ولعدد كبير من صديقاتها إبان الاحتلال الأميركي للعراق، وخلال سيطرة الجماعات المسلحة على أحياء كاملة من بغداد في ظروف الحرب شبه الأهلية التي مرت بها البلاد قبل بضع سنوات. وما سبق ذلك من حكم مستبد أفرغ المجتمع من أهدافه الإنسانية والثقافية، فتقوم تلك السيدة بنشر كراسات سرية ارتسمت فيها جميعاً حالات لنساء قتلن، أو شردن، أو اغتصبن، أو جرى التنكيل بهن بلا رحمة، وذلك على خلفية عنف متنام مارسه رجال لا يعرفون الرحمة. وتمتلك الرواية أهميتها الاستثنائية في تمثيل أحوال النساء عامة، ولأنها المدونة السردية الكاشفة لأحدى أهم حقب التاريخ العراقي الحديث.

الدكتور عبد الله ابراهيم



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - لتلفاكس ٨٨٥-٤٦٥ ٦ ٩٦٢ +
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan • dar_fadaat@yahoo.com

